

صفحات مبسولة

من تراثنا الشعري الفكاهي

شخصيات ومواقف

الدكتور

مصطفى رجب

منتدى سور الأزيكية

www.books4all.net

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

صفحات مجهولة

من تراثنا الشجر

الفكا

شخصيات ومواقف

الأستاذ . الدكتور

مصطفى رجب

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

البيانات		
صفحات مجهولة من تراثنا الشرعي الفكاخي (شخصيات ومواقف)		Title - عنوان الكتاب
الأستاذ الدكتور مصطفى رجب		Author - المؤلف
الأولى .		Edition - الطبعة
العلم والإيمان للنشر والتوزيع .		Publisher - الناشر
كفر الشيخ - سوق - شارع الشركات ميدان المحطة تليفون : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١		Address عنوان الناشر
التجليد	مقياس النسخة Size	عدد الصفحات Pag.
مجلد	٢٤,٥ x ١٧,٥	٢٦٨
مؤسسة رؤية		Printer - المطبعة
ش مدرسة ابن النفيس - المعمورة		-Address عنوان المطبعة
٥٦٣٣٤١١		اللغة الأصل
اللغة العربية .		رقم الإيداع
٢٠٠٧ - ٢٠٦٣٧ م		I.S.B.N. التوقيع الدولي
977- 308 - 136 - 2		Date - تاريخ النشر
2008		

حقوق الطبع والنشر محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل
من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

إهداء،

أستاذي وشيخي الجليل

الأستاذ محمد قطب محمد

أنت أول من حبّب إليّ الأدب حين كنت تعلمنا اللغة العربية في مدرسة
(شطورة) الإعدادية أواخر الستينيات من القرن الميلادي العشرين ، وهأنتذا
ترى نتاج غرسك ، فإن تقبلته راضيا فذلك فضل منك نحمد الله عليه ، وإن
كان غير ذلك ، فنستغفر الله ، لتقصيرنا عن تحقيق أملك فينا .

فجزاك الله عنا ما لا نقدر أن نجزيك به من حمد وشكر .

تلميزك (المحب

مصطفى رجب

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
١	إهداء.....	٣
٢	مقدمة.....	٧
٣	القسم الأول : مواقف ضاحكة	٩
٤	الشعراء والبراغيث صراع دام لا ينتهي...!!!	١١
٥	طبيب شاعر يرثي ثوراً ... !.....	٢٤
٦	...يا زوجات الشعراء .. صبرا عليهم...!!!	٣٣
٧	عشاق... في مواقف محرجة...!!!	٤١
٨	هؤلاء الشعراء .. وحيلهم الطريفة...!!!	٥١
٩	هؤلاء الشعراء .. وألقابهم الحيوانية...!!!	٦٢
١٠	هؤلاء الشعراء ومعاركهم الزوجية...!!!	٧٢
١١	البقاء للأصلح...!!!	٩٤
١٢	وجع في ظهر شاعر...!!!	٩٩
١٣	هؤلاء الشعراء فضحوا ضيوفهم...!!!	١٠٥
١٤	شعراء ظلمتهم ألقابهم...!!!	١١٤
١٥	حتى النحلة يضحكون...!!!	١٢٩

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
١٧	القسم الثاني : قضايا وشخصيات	١٤٩
١٨	الشاعر الجاهلي المغمور أبو دواد الإيادي	١٥١
١٩	جانـب مجهول من شخصـية معروفة ابن خلكان شاعراً..	١٧٤
٢٠	بن عبدل.....	١٨٥
٢١	الشاعر الجاهلي خفيف الظل : علباء بن أرقم.....	٢٠٩
٢٢	هذا الشاعر الرائع الجميل.. ابن الحمارة !!.....	٢١٨
٢٣	أبو العلاء المعري ضد تعليم المرأة.....	٢٢٤
٢٤	من عجائب التصحيف حكاية عيسى !!!.....	٢٣٥
٢٥	الألغاز الشعرية النحوية.....	٢٤٥
٢٦	هل عرف أجدادنا أدب الأطفال ؟.....	٢٥٦
٢٧	عندما يهجو الشعراء آباءهم !!.....	٢٦٣

مقدمة

هذا الكتاب عمره ثلاثون عاما أو أكثر ، فقد كانت لي عادة - وما تزال - أن تكون معي كراسة تلازمي وأنا أقرأ كتابا مهما أو جديدا ، فأسجل فيها معلومة تروقني ، أو طرفة تعجبني ، أو مسألة أعتزم الرجوع إليها .

وكراساتي التي تحفل بنوادير من التراث كثيرة سجلت فيها كل ما كنت أحفظ أو ما أعجبني من كتب التراث الأدبي التي قرأتها على مدار الأعوام الثلاثين الماضية وهي أكثر من أن تحصى ، فلما اكتمل لي من تلك مادة ضخمة صنفتها ورأيت أن أنشرها في كتاب يستمتع به محبو الفكاهة وعشاقها ، كتاب أحاول فيه تضيق الفجوة بين شبابنا وتراثه الأدبي الذي يقاطعه شبابنا بسبب فساد الذوق الأدبي نتيجة المناهج التعليمية العجماء الشوهاء التي "يعانيها" شبابنا في المدارس فتصرفهم صرفا عنيفاً عن تذوق جماليات لغتهم وروائع تراثهم .

فهذا الكتاب - ومعذرة لأدعياء التواضع من إخواننا المؤلفين - لا مثيل له في المكتبة العربية في منهجية تأليفه ، وإن كان له مثيل في موضوعه ، فموضوع الطرائف والنوادير باب مطروق ومألوف ومعروف ، ولكن جمع الشوارد من عصور شتى وكتب شتى في موضوعات مجهولة نادرا ما يتطرق إليها الكتاب ، لم يصادفني قبل هذا الكتاب . فإن صح تقديري فالحمد لله الذي أعانني عليه ، ووفقني إلى نشره وإن لم يصح تقديري ، فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء !! وحسبي أنني

صفحات مـجمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

حاولت واجتهدت أن أرسـم البسمة على وجهك أيها القارئ الكريم مراعيـا مسألتين مهمتين :

الأولى : أن يخلو الكتاب من أي إسفاف خلقي مما تموج به طرائف تراثنا

الثانية : أم يخلو الكتاب من أي نادرة مشهورة .

وأسأل الله تعالى أن يجعل منه علما ينتفع به كاتبه وقارئه . إنه سميع

مجيب

د . مصطفى رجب

سوهاج

نو الحجة الحرام ١٤٢٨ - ديسمبر ٢٠٠٧

القسم الأول :

مواقف مناجاة

الشعراء والبراغيث

صراع دام لا ينتهي...!!!

من أمتع صفحات تراثنا الأدبي ، تلك المواقف الطريفة التي سجلتها لنا كتب الأدب ، ودواوين الشعراء، عن الليالي " الحمر " أو " السود" التي بات الشعراء فيها يتقلبون ألما وسهدا وعذابا ، من تلك البراغيث التي تسومهم سوء المخام !! وتقض مضاجعهم ، حتى إذا استيقظوا، أو لنقل : إذا تنفس الصبح [لأنهم لم يهنأوا بنوم] فزعوا إلى الشعر يبتونه شكواهم ، ويصفون ما انتابهم من أرق وعذاب أليم.

وقد تفنن العرب في التعبير عن معاناتهم من البراغيث ، بل ووضعوا في هذه المعاناة من القصص والحكايات ما يسر النفوس ، ويضحك العيوس ، فقد قالوا : إن البرغوث إذا دخل في أذن أحد ، ووضع الإنسان يده على سرتة ، أو أصبعه في سرتة وقال : " سبقتك " فإن البرغوث يخرج فورا من أذنه !! روى ذلك الصفدي في " أعيان العصر".!!

وروى الوطواط في " غرر الخصاص الواضحة " من الخرافات الموضوعة على السنة الحيوانات في مدح الصمت وذم الكلام أن برغوثا وبعوضة اجتمعا وتفاخرا فقالت البعوضة للبرغوث: " إنني لأعجب من حالي وحالك !! أنا أفصح منك لسانا وأرجح ميزانا ، وأوضح بيانا ، وأكبر منك شبابا ، وأكثر طيرانا، ولي في بحر العبودية سباحة ، وفي ساحتها سياحة ، ومع هذا كله فقد أحاط بي الخضوع ، وحرمني الجوع الهجوع ، وأنت - على علالتك - في جميع حالاتك تأكلين وتشبعين ، وفي نواعم

الأبدان ترتعين ، قالت البرغوث : نعم !! أنت بين العالم مطمئنة ، وعلى رؤوسهم مدندنة وطول لسانك سبب حرمانك !! وأما أنا فالتلطف بضاعتي ، والصمت صناعتي وإنما توصلت إلى قوتي بسكوتي !!"

ووصف الشاعر الأندلسي ابن شهيد البرغوث نثرا فقال : " أسود زنجي وأهلي وحشي، كأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب فؤاد شربه عب ، ومشيه وثب ، يكمن نهاره ، ويسري ليله ، يدرك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل كافر ومسلم ، مساور للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يتكفر [أي : يتغلى] بأرفع الثياب ، ويهتك ستر كل حجاب ، ولا يحفل ببواب ، يرد منها العيش العذبة ويصل إلى [المناطق] الرطبة ، لا يمتنع منه أمير ، ولا ينفع فيه غيرة غيور ، شره ماثوث ، وعهده منكوث ، وهكذا كل برغوث !!!

ويحكي لنا أبو هلال العسكري حكاية ليلة حرم النوم فيها من تكاثر البراغيث والبعوض حوله فيقول :

وبدا فغناني البعوض مطربا فهرقت كاس النوم إذ غناني

ثم انبرى البرغوث ينقط أضلعي نقط المعلم مشكل القرآن

وقال الشاعر لسان الدين بن الخطيب شاكيا حاله وواصفا معاناته :

رَجَفْتُ إِلَى رَكَائِبِ الْبُرْغُوثِ نَمَّ الظَّلَامُ بِرُكْبِهَا الْمُخْتَوِثِ

بِالْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ قَابِلَ مَقْدَمِي لِلَّهِ أَيَّ قَرِيٍّ أَعَدَّ حَبِيشَ !!

كَسَحَتْ بِهِنَ دُبَابٍ سَرَحٍ تَجَلَّدِي لَيْلًا فَخَبِلَ الصَّبْرُ حِدُّ رَثِيشِ

إِنْ صَابَرْتُ نَفْسِي أَذَاهُ تَعَبَّدْتُ أَوْ صِخْتُ مِنْهُ أَنْفْتُ مِنْ تَخْنِيشِ

جَيْشَانِ مِنْ لَيْلٍ وَبُرْغُوثٍ فَهَلْ جَيْشُ الصَّبَاحِ لِمَرْخَتِي بُمَغِيثِ؟

وهذا الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني يصف لنا ليلة دامية قضاها محاصرا بجيوش من البق الذي انهال عليه يسفك دمه بشراسة، والبراغيث تتراقص حول البق الهاجم فتؤازره طرية قد أخذ منها الطرب كل مأخذ، مما اضطر شاعرنا إلى خلع ملابسه ليتخلص من تلك الجيوش التي تسكن طيات ثيابه، فإذا به يكتشف أن لون جلده قد تحول إلى قميص أحمر مما سال من دمائه:

يا لحي الله ليلةً قرصتني في دياجيرها البراغيثُ قَرَصَا
شربتُ بَقُّها دمي فتعنت وبراغيثها تواجدنَ رَقَصَا

قد تعرَّيتُ من ثيابي لكري غير أني لبستُ منهنَّ قُمْصَا
كلما ارددتُ منعهنَّ بحرصٍ عن فراشي شرهن فازددن حرصا
من براغيث خِلُّها طافرات طائراتٍ جناحها قد حُصَا
عرَضتْ جيشها الفريقانِ حَوْلِي وهي أوفى من أنْ تعدَّ وتُحصَى

وبات أعرابي عند امرأة فآذاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويذم بلدها ويسأل الله ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمّ مثنوي عِدمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك
ولذع بُرْغُوثٍ أراه مُهلكي أبييت ليلي دائب التحكك

تحكك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينج من وخز
البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت
جرعته عليها قاءت ما شربته من دمانه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقِيلًا ففؤادي من شرهم في عذاب
طفع السكر والشراب عليهم فتقافوا دمي على أثوابي

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المِقابلة والتورية
والاقتباس :

براغيثنا فيهم جرأة فبالأسروالقتل لا يرجعوننا
كثيرو الإساءة مع أنهم " قليلاً من الليل ما يهجعونا "

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فربط ذات ليلة
مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال
متندما عازماً على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه على الجهاد ماشاء
من المال :

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم وأهلي بنجد ذات حرص على النصر
براغيث تؤذيني إذا الناس نوموا وبق أقاسيه على ساحل البحر؟!
فإن يك فرضٌ بعدها لا أعذلهُ وإن بذلوا حُمَرَ الدنانير كالجمر

وقال آخر وقد زار إمارة " الري " فهاله ما وجد فيها من هواء طيب ، وحياة
رغدة وفوق هذا كله حاكم عادل هو يحيى بن خالد أمير " الري " ، وتذكر أيامه

الخالية في بغداد ، تلك الأيام التي لم يذوق فيها للنوم طعما ، بسبب تلك البراغيث
السود المتوحشة التي تتقاذز عليه إذا ما جنه الليل، وهي براغيث سميكة قوية حتى
لكأنها بغال البريد :

هنيئاً لاهل الرِّي طيبُ بلادهم وأن أمير الرِّي يحيى بن خالدِ
تطاولَ في بغدادَ ليلَى ومن يَكُنْ ببغدادَ يلبثُ ليله غيرَ راقِدِ
بلادٌ إذا جنَّ الظلامُ تقافزتْ براغيثها من بين مثنى وواحدِ
ديارِجَةً سودَ الجلود كأنها بغالُ بريدِ أرسلت في مداودِ

وبات أعرابي عند امرأة فأذاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويدم بلدها،
ويسأل الله ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث
حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمّ مثوأي عدمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك
ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلي دائب التحكك
تحكك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينح من وخز
البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت
جرعته عليها قاءت ما شربته من دماؤه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقِيلاً ففؤادي من شرّهم في عذاب

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المقابلة والتورية
والاقتباس :

براغيثنا فيهم جرأة فبالأسروالقتل لا يرجعوننا
كثيروالإساءة مع أنهم " قليلاً من الليل ما يهجعونا"

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فرابط ذات ليلة
مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال
متندماً عازماً على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه على الجهاد ماشاء
من المال :

أنصر أهل الشام ممن يكيدهم وأهلي بنجد ذات حرص على النصر
براغيث تؤذيني إذا الناس نوموا وبق أقاسيه على ساحل البحر؟!
فإن يك فرضٌ بعدها لا أعدُّه وإن بذلوا حُمَرَ الدنانير كالجمر

ولم تكن البصرة بأحسن حظاً من الشام وبغداد ، فهذا أعرابي رمته أقداره
ذات مرة في البصرة فأذته براغيثها أنى شديداً ، وبات ليلته في حرب عوان لا تكاد
تنتهي حتى طلع الصباح فقال:

ظللت بالبصرة في مـراش
وفي براغيث أذاها فاشي
من نافر منها وذئ خـشـش
يرفع جنبـي عن الفـراش

فأنا في حرب وفي تخراش

يترك في جنبي كالحواشي

ولم تكن مصر بأقل من الشام والبصرة وبغداد في حفاوتها بالبراغيث ، فهذا

أعرابي آخر هو أبو الرماح الأسدي يقول كما قال سابقوه :

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن بحنو الغضى ليل علي يطول

يؤرقني حذب صغار أنلة وإن الذي يؤذينه لذليل !!

وذكرت البراغيث عند أعرابي من قيس، فقال يصفها: ليلها ناصب ومددها

دائب.

وذكرت البراغيث عند رجل من كلب، فقال: أخزاها الله، ما أدنا صغارها

وما أشركبارها، وأخفى أنظارها، وأقبح آثارها.

وهذا شاعر آخر يصور إلحاح البراغيث عليه حتى لكأنهن من قوم لهم عنده ثأر

فهن يطالبنه بدمه مقابل ما لهن عنده من دم ، وواضح هنا أنه يستخدم التورية

بكلمة الدم فيقول :

ما للبراغيث أخزى الله ليلتها من يلق منهن ما لا قيت لم ينم

كأنهن وجلدي إذ ظفرن به وضمني مضجعي، يطلبنني بدم

وقد يستخدم الشعراء البراغيث في سياقات أخرى أكثر إيلاما، فهذا شاعر

يريد أن يصف قوما بالبخل فيقول إنه وجماعة من أصحابه باتوا ضيوفا عند هؤلاء

القوم الذين اشتهروا بحلاوة حديثهم ، فما وجدوا عندهم إلا بخلا بالطعام ، وسوء مرقد ، فقال:

وليلة بتنا لدى معشر قد غرت الناس أحاديثهم
فما أكلنا عندهم قدر ما قد أكلت منا براغيثهم !!

وهناك من استخدم البراغيث في سياق آخر كوصف مجلس فن وسماع مثل قول ابن رشيق القيرواني:

لك مجلس كملت بشارة لهونا فيه ولكن تحت ذاك حديث
غنى الذباب فظل يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وأسبق منه إلى هذا المعنى الشاعر أحمد بن أيوب- من شعراء اليتيمة - في قوله :

لا أعذل الليل في تطاوله لو كان يدري ما نحن فيه نقص
إذا تغنى بعوضه طرباً أطرب برغوثه الغنا فرقص

وأما الشاعر السلامي فقد ابتكر استخداماً طريفاً للبرغوث حين قال في صبي يعرف بابن برغوث:

بليت ولا أقول بمن لأنني إذا ما قلت من هو يعشقه
غزال قد نفى عنى رقادي فإن غمضت أيقظني أبوه !!

وفي مجموعته الطريفة " المواعظ والأمثال " - وهي حكايات ألفها الشاعر محمد عثمان جلال منتهى القرن التاسع عشر الميلادي، وأفاد فيها من خرافات

أيسوب اللاتينية - يحكي لنا قصة رجل ضاق بالبراغيث فراح يستغيث بالله من شرها:

فحل من الرجال يستغيث	في فراشه يأكله البرغوث
فهم يشكو بصياح عالي	وهو ينادي سيد الموالي
يقول يا من خلق البرية	بعونك ارفع هذه البلية
قالت له زوجته ما نابك	ومن أذى البرغوث ما أصابك
أمسكه بين الأصبعين باليد	واظفربه لا تستغث بأحد
عجائب عجائب عجائب	إنك والله العظيم خائب
مثلك في الناس كثير العدد	في كل حلة وكل بلد
من طبعهم ودأبهم حب الكسل	أنبيك عن أخلاقهم إذا تسل
في كل عارض صغير زائل	يرجون في تصريفه كل ولي
إن العظيم يدفع العظيم	كما الجسيم يحمل الجسيما

وهذا شاعر قديم ضاق بالبراغيث وجافاه النوم فآثر أن يقضي ليلته متهجدا متعبدا يتلو القرآن ويصلي ويسبح ربه ولكن ... هيهات !! فلم ترحمه البراغيث :

إن البراغيث قد باتت تشيبي	فبت أحبي الدجى نسكاً وأيماناً
فلو رأيتهم يستخرجون دمي	رأيت أكثر خلق الله عدواناً
ضحوا بأشمط عنوان السجود به	يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً !!

ولكن الشعراء السابقين ، فهو يصرح بأنه ممن يصبرون أنفسهم على ألم وخز البراغيث ، وعذاب قرصها وعضها ، حتى ولو

أجبرته على البقاء عريانا ، لكن ما يكاد يفقده عقله من أفاعيلها هو دخولها إلى
أذنيه فيقول :

لن أشتكي البرغوث يا قوم إنه أراق دمي ظلماً وأرق أجفاني
وما زال بي كالليث في وثباته إلى أن رماني كالقتيل وعراني
إذا هو آذاني صبرت تجلداً ويخرج عقلي حين يدخل آذاني

ولأحد شعراء اليتيمة قصيدة وجهها للصاحب بن عباد يصف فيها مرضه
بالحمى في مدينة "جرجان" وتأذيه بهوائها وبراغيتها وبقها ويستأذن منه للعودة
إلى أصفهان منها :

أقمت بها أعالج كلُّ بؤسٍ من الأعلال لا العيش المهاد
تحدّثني بحمّى لو تبدّت بخيبر الحقّتها بالبوادي
ملازمةً إذا لسعت شقياً فكلُّ زمانها وقت العداد
تعاونها عليّ سموم صيفٍ بلفح من لظاءٍ واتّقاد
وذّبانٌ أشردّها فتأبى وترجع كالمرغم ذي الكياد
كأنّي حين أطردّها وتأبى أفرّق بين ذي سغبٍ وزاد
ويا ولي من الليل الوافي فإني حين يطرق في جهاد
له جيشاً براغيثٍ وبقٍ يطلّ عليّ إطلال الجراد
ولي فرشٌ هي الميدان فيه براغثه وخمشي في طراد
وبقٌ فعله في كلّ عضوٍ فعال النار في يبس القتاد
عصائب ينتحين على عروقي بعوجٍ كالمباضع في الفصاد

فتروى ثم ترجع عاطفاتٍ	عليّ وهنّ كالهيم الصوادي
وأنقف بعضهنّ وفي حشاها	دمى فأنال ثأراً من أعادي
تفرّق بين جنبي والحشايا	وتجمع بين جفني والسهاد
ولو أني ثلثت وملت سكرأ	لحالت بين طرفي والرقاد
واستر دونها وجهي بكفّي	وعطف الردن وهو لهنّ بادي
وأظهر في صباحي كلّ يومٍ	بوجهٍ مجردٍ قلقٍ الوساد
وأدمن حكّ ما تركت بجسمي	فيحسبني جربت ذوو عنادي
وقد وقف الوزير على بلائي	بما ضاقت به حيلي وآدي
وإنني لا نهار أقرفيه	ولا ليلٌ يقيني منه فادي
صديقي في دجى ليلي عدوي	وعبدي لا يجيب إذا أنادي
وأترك في ظلام دجاء وحدي	فأذكر ضيق لحدي وانفرادي
وفي يمنائي مروحةً فطوراً	أنود بها وما يغني ذيادي
وطوراً أستريح إلى انتصابي	وطوراً أنثني ويدي اعتمادي
وعلمني البعوض بلطم خذي	خلأق لسنّ من شيمي وعادي
فهل للصاحب المأمول عطفٌ	على عجزني عن الكرب الشداد
بإذنٍ لست أسأله اختباراً	ولكنّ اضطراري في ازدياد
شقاء لا يعاقبه رخاءٌ	وبلوى تستنيم إلى التّمادي
وسيدنا أدقّ الناس حدساً	وأعرفهم بدخلةٍ من يصادي
وحسبي ما بلّاه في اختياري	وشاهد من ولائي واعتقادي

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في

نم دار كان يسكنها حيث قال واصفا ما فيها من حشرات وآفات :

دار سكنت بها أقل صفاتها	أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد	والشردان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدته	كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى	غنت لها رقصة على نغماتها
رقص بتنقيط ولكن قافه	قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عين	الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها	فينا وأين الأسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز	أبصارنا عن وصف كيفياتها
وبها خفافيش تطير نهارها	مع ليلاها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت	عنه العتاق الجرد في حملاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت	في أرضها وعلت على جنباتها
لوشم أهل الحرب منن فسوها	أردى الكمأة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان وأشكال لها	مما يفوت العين كنه ذواتها
أبدأ قص دماءنا فكأنها	حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليماني ما	قد قل ذر الشمس عن ذراتها
ما راعني شيء سوى وزغانها	فتعوذوا الله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظننتها	ورق الحمام سجعن في شجراتها

وبها زنانير تظن عقارباً	حر السموم أخف من زفرتها
وبها عقارب كالأقارب رتع	فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة	ولا حياة لمن رأى حياتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها	والأرض قد نسجت على آفاتها
فضجيجها كالرعد في جنباتها	وترابها كالرمل في خشناتها
والبوم عاكفة على أرجائها	والدود يبحث في ثرى عرصاتها
والجن تأتيها إذا جن الدجى	تحكي الخيول الجرد في حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها	وجهنم تعزى إلى لفحاتها
شاهدت مكتوباً على أرجائها	ورأيت مسطوراً على جنباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا	تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبداً يقول الداخلون ببابها	يا رب نج الناس من آفاتها
قالوا إذا ندب الغراب منازلأ	يتفرق السكان من ساحاتها
ويدارنا ألفا غراب ناعق	كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبراً لعل الله يعقب راحة	للنفس إذا غلبت على شهواتها
دار تبیت الجن تحرس نفسها	فيها وتندب باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفرداً والعين من	شوق الصباح تسح من عبراتها
وأقول يارب السموات العلا	يا رازقاً للوحش في فلواتها
أسكنتني بجهنم الدنيا ففي	أخراي هب لي الخلد في جناتها
واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً	يا جامع الأرواح بعد شتاتها

طبيب شاعر يرثي ثوراً ... !

دأبت أكثر الكتب المدرسية على الحط من شأن عصر حكم المماليك الذين خلفوا الأيوبيين عام ٦٤٨هـ ، وطالت مدة حكمهم حتى عام ٩٢٤هـ وكأن مؤلفي تلك الكتب نظروا إلى السياسة وجانبوا الفكر، واعتنوا بالحروب، وغفلوا عن التأليف ذلك أن سلاطين المماليك حاولوا تقليد أسلافهم الأيوبيين في توريث الحكم، مما أدى إلى كثرة الانقلابات والاضطرابات.

ولعل الأحداث الحافلة التي شهدتها قرون حكم سلاطين المماليك مثل بداية الحملات الصليبية بغزو الفرنسيين لدمياط، وسقوط الخلافة في بغداد (٦٥٦هـ) وهزيمة التتار في عين جالوت (٦٥٨هـ). لعل تلك الأحداث الكبرى قد استحوذت على اهتمام المؤرخين المعاصرين ، مما قلل من اهتمامهم بالاطلاع على آداب تلك القرون ، فتعجلوا في الحكم عليها بالضعف والتهافت.

على أن عصر المماليك ضم نخبة من ألمع علماء الإسلام في تخصصات شتى مثل الفقيه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والمحدث ابن حجر العسقلاني، والمؤرخين ابن شاكر الكتبي، وابن دقماق، والقلقشندي والسيوطي وابن الأثير، والمفسرين كابن كثير والأطباء كابن أبي أصيبعة وابن النفيس وابن الأڪفاني.

وضيفنا في السطور القادمة واحد من هؤلاء الأطباء ، غير أن شهرته لم يكتسبها من مهنة طب العيون التي امتهناها ، وإنما اكتسبها من كونه شاعراً هازلاً اتخذ الفكاهة منهج حياة ، وسمة شخصية مع أنه كان حاد الطبع، عصبياً، ضيق

الصدر ويبدو أن هذه سمة معظم الفكهين حين يصنعون النكتة، ويبدعون البسمة فيما هم في حياتهم الخاصة - يعانون أشد المعاناة.

وقد كان ضيفنا كحالا [وهو لقب طبيب العيون آنذاك] ولد بالموصل ، ونال فيها تربية وتعليماً بين أهله وذويه ، وكان مولده عام ٦٤٦ هـ ، فلما دخل المغول الموصل (٦٦٠ هـ) بعد سقوط الخلافة في بغداد بسنوات أربع. ضاق صاحبنا الحكيم شمس الدين محمد بن عبد الكريم بن دانيال بن يوسف الخزاعي، ضاق بحياته تحت احتلال المغول ، فهاجر من الموصل إلى مصر، ومارس مهنة الكحالة (طب العيون) وذاع صيته في مهنته ، ولكن الذبوع الأكبر ناله من تفرد بفضونه الشعرية.

فقد عرفت مصر في عهده البواكير الأولى لفن المسرح، وكانت تلك البواكير أشبه شيء بما يسمى الآن (مسرح العرائس) وكان الاسم الذي اشتهرت به تلك البواكير المسرحية الأولى هو " طيف الخيال " حيث كان الجمهور يشاهد دمي تتحرك وتتجاوز، تختفي ملامحها تحت أغطية كثيفة، ولكن أحداثها واضحة مسموعة.

ومع الأسف الشديد ، لم ينل هذا الفن ، ولا هذا الشاعر ما يستحقه من عناية ودراسة ، فلا نعلم دراسة تخصصت فيه إلا ذلك الكتيب القيم الذي نشره الدكتور ابراهيم حمادة عن الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر [الهيئة العامة للكتاب حالياً] بعنوان " خيال الظل ومسرحيات ابن دانيال " . وكان ذلك في السبعينيات على وجه التقريب.

وكان ابن دانيال يكتب كثيراً من الأشعار التي يرددنها أبطال "طيف الخيال" ومعظمها أشعار فكهة ساخرة ، تمثل لوناً جديداً من ألوان النقد الاجتماعي الساخر الهادف، لم يكن لأدبنا العربي القديم عهد به قبل تلك الفترة.

وديوان ابن دانيال حافل بأشعار متنوعة الأغراض، ففيها السخرية الشخصية والسخرية العامة، ونرجح أن هذا الديوان لم ينل عناية كافية من الباحثين لما يكثر فيه من ألفاظ عامية، وإن كانت أحياناً فصيحة الأصل، ولما يكثر فيه من معان جارحة للحياء العام. غير أن أبياته التي تشيع في كتب تاريخ الأدب هي تلك التي وصف فيها بيته الضيق المكتظ بالحشرات فذلك حيث يقول:

أَصْبَحْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي	ما في يَدِي من فاقَةٍ إِلَّا يَدِي
فِي مَنْزِلٍ لَمْ يَحْوَ غَيْرِي قَاعِداً	فَمَتَى رَقَدْتُ ، رَقَدْتُ غَيْرَ مُمَدَّد
لَمْ يَبْقَ فِيهِ سِوَى رَسُومِ حَصِيرَةٍ	وَمَخْدَةٍ كَانَتْ لَأُمِّ الْمَهْتَدِي
تُلْقَى عَلَى طَرَا حَةٍ فِي حَشْوِهَا	قَمَلٌ شَبِيهِ السَّمْسِمِ الْمُتَبَدِّدِ
وَالْبَقُ أَمْثَالُ الصَّرَاصِرِ خِلْقَةٍ	مِنْ مُتَهَمٍ فِي حَشْوِهَا أَوْ مُتَجِدِّ
وَتَرَى بَرَاغِيثاً بِجَسْمِي عُلِقَتْ	مِثْلَ الْحَاجِمِ فِي الْمَسَاءِ وَفِي الْقَدْرِ
وَكَذَا الْبَعُوضُ يَطِيرُ وَهُوَ بَرِيشُهُ	فَمَتَى تَمَكَّنَ فَوْقَ عِرْقٍ يَفْصُدِ

كما اشتهر ابن دانيال، بلون آخر من الشعر، أسماء بعض الدارسين شعر "تحصيل الحاصل" وهو شعر فكاهي رائع ، تأتيه الفكاهة وخفة الظل من بنيته الفنية التي تأخذ شكل شعر الحكمة، أما مضمونه فبعيد عن أية حكمة !! ، بل هو كلام شديد السذاجة صب في شكل حكمة غالية نادرة فمن حكمه تلك المزيفة " إنك

إذا رأيت رجلاً عازياً مرتعداً في الشتاء فسوف يسألك ثوباً أو غطاء يقيه البرد !!!
ومن يقتل أفعى نهاراً فقد تؤذيه !! والذي يعاني من الصداغ لن ينفعه الكحل إذا
اكتحل!! والطفل يضحك حين تمنحه الحلوى ، أما إن أخذتها منه فإنه يبكي !! وقد
يخدش القط من يلاعبه ، والكلب يعوي إذا أوجعه الضرب !!! فتأمل من درر تلك
الحكم قوله:

إِذَا وَجَدْتَ فِي الشِّتَاءِ عَارِيًّا	مُرْتَعِدًا ، نَادَى عَلَيْكَ بِالذَّقَا
مَنْ قَتَلَ الْحَيَّةَ فِي هَاجِرَةٍ	عَرَضَ تَفْسُهُ يَقِينًا لِلْبَلَى
وَكُلُّ مَنْ يَشْكُو صُدَاعَ رَأْسِهِ	فَلَيْسَ يَشْفِي مَا بِهِ كُحْلُ الْجَلَا
وَلَيْسَ مَنْ يَسْكُنُ قَاعًا صَفْصَفَا	مِثْلَ الَّذِي يَسْكُنُ بَيْتًا بِالْكَرَى
وَالْقَطُّ قَدْ يَخْدِشُ مَنْ لَاعَبَهُ	وَالْكَلْبُ إِنْ أَوْجَعَهُ الضَّرْبُ عَوَى
وَالطِّفْلُ قَدْ يَضْحَكُ إِنْ أَطْعَمْتَهُ	الْحَلْوَى وَإِنْ أَخَذَتْهَا مِنْهُ بِكَى
وَالْخُبْرُ لِلْجَائِعِ أَدَمٌ كُلُّهُ	وَالصَّيْفُ أَذْفَا زَمَنًا مِنَ الشِّتَا !!
وَيَشْبَعُ الْجَائِعُ بِالْخَيْرِ وَلَا	يَشْبَعُ مَنْ مَصَّ - مِنْ الْجَوْعِ - النَّوَى !!

وإذا كان تراثنا الشعري القديم قد حفل بقصائد أو مقطوعات قصيرة، لشعراء
تأثروا لفقد بعض حيواناتهم الأليفة كالخيل، والحمير، والقطط والكلاب ، فإن
شاعرنا ابن دانيال هذا قد تفرد - في حدود علمنا المتواضع - بقصيدة مطولة رثى
بها ثوراً كان له ونفق !! ، ولا يستطيع قارئ القصيدة [التي تقع في عشرين بيتاً]
أن يجزم برأي فيما إذا كان هذا الشاعر يرثي ثوره رثاءً حقيقياً، أم أنه يهزل كما

رأيناه يهزل في تلك الأبيات النادر مثلها في تراثنا ، وهي التي تمثل لوناً من " الحكمة الزائفة" !!.

يقول ابن دانيال إنه فوجيء بوفاة ثوره العزيز الذي يلقيه ب "ذي القرنين" ذي اللون الأصفر الجذاب الذي يشبه لون الشفق، فكأن الشفق كسا هذا الثور درعاً وبروداً :

على مثله ثوراً ، بُكايَ يَزِيدُ	فَلَا بَرْدًا جَفْنَايَ وهو يَجُودُ
رَرِثْنَا بذي الْقَرْنَيْنِ بِأَسْأَ وَتَجْدَةُ	لَهُ عَدَدٌ مِنْ بِأَسْهِ وَعَدِيدُ
بدا وهلالُ الأفقِ تاجُ لرأسه	وَمَنْ شَفَقَ دِرْعُ لَهُ وَبَرُودُ
فَلَوْ أَنَّهُ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ لَاحَ لِي	لَقُلْتُ هَالِكٌ قَدْ أَطْلُ وَعِيدُ
وذي أَرْبَعٍ قَدْ قُمَعَتْ بِرَبْرَجِدٍ	وهضبات يحكي ما أَقْلَ عَمُودُ
وفي الجزعِ مِنْ رَوْقِيهِ شَبَهُ وَلَوْنُهُ	عَقِيْقٌ وَنَظْمُ الْوَدْعِ مِنْهُ عَقُودُ

وقوله " فلا بردا جفناي " إما أن يكون متعمدا للتفكه - على نهج الحلمنتيشيين المعروف- أو أن يكون قد استعمله على لغة معروفة في الفصح يسميها النحويون تطرفا لغة " أكلوني البراغيث"، وجاء عليها قوله تعالى :

﴿...وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ (١)

ويتحسر شاعرنا على نفوق ثوره مصطنع لوناً من التلاعب اللفظي بين هذا الفقيد، وبين برج " الثور" أحد الأبراج الفلكية المعروفة بأن مواليدها يكونون غالباً

١ . سورة الانبياء : من الآية ٣ .

من السعداء الذين ترتفع أقدارهم يوماً بعد يوم كما يذكر أن ثوره كان من تلك الثيران التي تهزم مصارعها فيولون الأدبار مستسلمين للهزيمة. ولسنا ندري على وجه اليقين أكانت مصر والشام - حيث عاش ابن دانيال - تعرف آنذاك مصارعة الثيران أم أن هذا الوصف، كان خيلاً محضاً من هذا الشاعر العجيب ؟ فهو يقول كم من فارس من مصارعي الثيران تصدى لصراع هذا الثور ، فلما أن رأى بأسه وخشي الهلكة وخسارة الزهان ، أسلم الريح ساقيه ، وكانت مسافة البريد [وهي مسافة أربعة فراسخ] هي أقرب مكان توقف فيه هذا الفار من المصارعة !! :

حَلَا مِنْهُ بَرَجُ الثَّورِ وَالشَّرَفُ الَّذِي سَعَوْدٌ لَهُ نَحْوُ الْعُلَا وَصَعُودُ
فَكَمْ - لِرِهَانٍ - فَرٌّ مِنْهُ مُحَارِبٌ هَزِيمًا وَأَدْنَى مَا وَرَاهُ بَرِيدُ !!

ثم يأخذ شاعرنا في تعداد مآثر ثوره الفقيد، فيذكر أنه حين كان ينكت في الأرض بقرنيه، فيبثثيها تراباً يصاعد إلى عنان السماء، لم يكن يفعل ذلك عبثاً ولهوا بل سعياً إلى مواجهة "عسكرية" مع خصم من بنى قومه يسمع به ولا يراه . هذا الخصم هو ذلك الثور المجهول الذي زعموا أنه يحمل الأرض على قرنيه . فإذا نال منه التعب نقلها إلى قرنه الآخر فيحدث فيها ما يحسه الناس من الزلازل والهزات الأرضية ، وهذا الاعتقاد الشعبي كان سائداً في تلك العصور، وذكره ابن إياس المعاصر لشاعرنا ابن دانيال - أحد مؤرخي العصر المملوكي في كتابه الشهير " بدائع الزهور في وقائع الدهور " .

فكأن ثور ابن دانيال ، كان – حين ينطح الأرض – يبحث عن ابن عمه حامل الأرض على أحد قرنيه لعله يعينه في حملها، و ينتزعها منه ، أو يدخل معه في مصارعة: أيهما أشد قوة وأعظم بأساً؟.. فيقول شاعرنا:

وَقَالُوا تَرَاهُ يَبْحَثُ الْأَرْضَ نَاطِحًا فَيَصْعَدُ نَحْوَ الْجَوِّ مِنْهُ صَعِيدُ
فَقُلْتُ لَهُمْ يَبْغِي الَّذِي يَحْمِلُ الثَّرَى بَقَرْنِيهِ فَالْأَرْضُونَ مِنْهُ ثَمِيدُ

ويصف ابن دانيال ، ما كان يتمتع به ثوره النافق من مزايا، فهو ثور عظيم النفع كان يستعمله صاحبنا في إدارة ساقيته ليجلب الماء من الترع فيسقي أرضه لتجود له بالخير الوفير .

ويتغزل في جمال ثوره إذا تأمل ما في وجهه من حسن التقاطيع، وتناسقها.
كما يتحلى إلى جانب صباحة الوجه، ووسامته، بسيما الأتقياء الصالحين فهو إذا تهادى في "الزريبة" وسط البهائم راعك ما يبدو عليه من الوقار والاتزان فكأنه قائم من سجود وهو يسبح في كل صباح:

مَرَابِعُ فِيهَا قَائِمٌ وَخَصِيدُ وَمَا زَالَ يَسْقِي الْحَرثَ رِيًّا فَأُخْصِبَتْ
شَهِيٌّ رَضَابِ الْمُرْشِفَيْنِ بَرُودُ فَأَهَاءُ لَهُ رَدُّ الشَّبَابِ أَخَا لِي
وَذِي أَرْبَعٍ قَدْ قُمِعَتْ بِرَبْرِجِدٍ وَهَضِيهَاتٍ يَحْكِي مَا أَقْلَّ عَمُودُ
إِذَا اجْتَنَزَا فِي سَاجِ الزَّرَائِمِ خَلْتَهُ مُسَبِّحٌ صَبَحٍ قَدْ عَرَاهُ سَجُودُ

ويذكر ابن دانيال أن ثوره ما نفق إلا لأن الحاسدين الأشرار رموه بنظراتهم النارية المدمرة، فأردوه قتيلاً، فيا ليت حاسديه ماتوا بحسرتهم ، وعاش هذا الثور

يؤدي واجبه مع صاحبه ، فهذا الثور الوفي النبيل يستحق في نظر صاحبه ابن دانيال أعلى درجات الحب والتقدير، حتى إنه ليؤكد لنا أن الهنود والبراهمة إنما حرموا أكل لحوم البقر إكراماً لثور ابن دانيال ، الذي اغتالته يد المنية فبكت عليه قواديس السواقي ، والتروس التي كانت تربطه إلى تلك القواديس ، وبكت عليه "قلوب" النخيل بما تحمله من جريد أخضر:

رَمَتْهُ عُيُونُ الْحَاسِدِينَ بِنَظَرَةٍ فَلَيَّتْ بَقَى دَهْرًا وَمَاتَ حَسُودُ
وَمَنْ أَجَلُهُ قَدْ حَرَمَتْ لَحْمَ مِثْلَةٍ بَرَاهِمَةٌ فِي شَرْعِهَا وَهَنُودُ
بَكَتْهُ قَوَادِيسُ السَّوَاقِي بِأَدْمُعٍ غِرَارٍ لَهَا بَيْنَ الْحِيَاضِ مُدُودُ
وَأَنْتَ لَهُ الْأَتْرَاسُ حُزْنًا وَحَرْقَةً وَذَابَ لَهُ قَلْبٌ عَلَيْهِ جَرِيدُ

وتصل ذروة ألم شاعرنا لفراق ثوره الأصيل ، أنه رفض شراء ثور غيره تهيم إليه قلوب البقر ، لأن ثوره كان من نوع نادر من الثيران ، حتى إنه لو عاش قبل عصره وأدرك أيام نبي الله عليه السلام موسى لعبده بنو إسرائيل ولاتخذوه إلهاً يتقربون إليه:

وَمَنْ بَعْدِهِ مَا عَانَقَ الْبَابَ سَيِّدُ لَهُ كُلُّ أَبْقَارِ الْبِلَادِ عَبِيدُ
وَلَا جَازَ مِنْ تَحْتِ الْجَوَائِزِ مِثْلُهُ وَسَرَقِينُهُ مِسْكٌ يَفُوحُ وَعُودُ
فَلَوْ كَانَ فِي أَيَّامِ مُوسَى صَبَا إِلَى عِبَادَتِهِ - فِي الْمَشْرِكِينَ - يَهُودُ

وهو في هذا البيت الأخير يشير إلى ما كان من أمر قوم موسى حين خدعوا السامري حتى صنع لهم عجلاً من الذهب فعبدوه في أثناء غياب موسى عليه السلام منهم وذهابه لميقات ربه.

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

إن هذه القصيدة نموذج فذ لنوع من الشعر الفكاهي اتسعت له قريحة
الوجدان الفني العربي في عصوره المتتابعة، وبلغ هذا النموذج مستوى عالياً عند
شاعر "تحصيل الحاصل" ذي الحكم المزيفة ابن دانيال الموصلبي !!.

يا زوجات الشعراء . . صبرا عليهم !!!

البيوت أسرار ، هذا صحيح إلا عند الشعراء ، فبيوت الشعراء كأبيات الشعر تنم عما وراءها ، فلا تكون لبيوتهم أسرارها الخاصة.

فالشعراء غالباً ما يلجئون إلى الشعر يستظلون به من قيظ حياتهم الخاصة وزوجات الشعراء فدائيات بغير شك ، إذ يقبلن الحياة مع رجال ليلهم نهار ونهارهم ليل ، أحزانهم طويلة ، وأفراحهم طفولية مفاجئة ، آمالهم معلقة بخيوط أشعة القمر الفضية ، وسعادتهم تبدأ مع شقشقة العصافير.

وقد حفظت لنا كتب التراث العربي الأدبية نماذج شتى من حياة الشعراء الذي وصفوا مشاكلهم الزوجية ، كما زخرت تلك الكتب بقصص الشعراء العشاق الذين حيل بينهم وبين محبوباتهم حيناً بسبب صرامة التقاليد ، وحيناً بأسباب أخرى .

ولما كان الشعر أقرب إلى حياة الألم والحرمان والعذاب ، منه إلى حياة النعيم واللذة والهناء ، فإننا سنستعرض فيما يلي بعض أشعار القدماء ، أو بتعبير آخر سنتسلل إلى بيوتهم لنرى كيف كانوا يعيشون حياتهم الزوجية .

وأول شاعر سترون بيته هو يزيد بن حبناء ، أحد شعراء الخوارج الفرسان إنه مسافر في إحدى الغزوات الإسلامية على الحدود ، وهامي ذي زوجته تكتب إليه رسالة ، لا تبثه فيها شوقاً وحنيناً ، ولا تسطر له فيها سطوراً تثبت أقدامه عند الحرب ، لا تحدثه عن الشجاعة أو البسالة . وإنما تحدثه فيها عن نفسها وتسأله عن

السبب في عدم إرساله الهدايا إليها ، وتلومه على تقصيه في إرسال الغنائم إليها وهاهو ذا يزيد يخلو إلى نفسه فيدندن قليلاً ، ثم هاهو ذا يستخرج من جيبه ورقة وقلماً ويخط إلى زوجته رسالة يشرح فيها ظروفه لزوجته التي يحبها يسألها فيها ألا تعجل ، وأن تتريث لأنه لم يجمع من المال ما يكفي لشراء هدايا لها :

ذري اللوم ، إن العيش ليس بدائم ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم
فإن عجلت منك الملامة فاسمعي مقالة معني بحقك عالم
ولا تعذلينا في الهدية ، إنما تكون الهدايا من فضول الغانم

ونترك يزيد بن حبناء يتلطف مع زوجته في الرد ، ويذكر لها أنه يعرف حقوقها ويعني بها ، وأن الهدايا ستجيئها في وقتها عندما تزداد مغامه .

وننتقل إلى شريح القاضي فنراه يلوم زوجته ، ويعيق بها وهو يريدها ويؤدبها فيشرح لها أن حبه لها لن يستمر إذا ما دأبت على استفزازة ، وينصحها أن تتركه وشأنه إذا رآته غاضباً ساخطاً لأن الحب والغضب يتصارعان إذا اجتمعا في القلب فينهزم الحب :

ومن بعده ما عانق الباب سيد له كل أبقار البلاد عبيد
ولا جاز من تحت الجوائز متله وسرقينه مسك يفوح وعود
خذي العفومي ، تستديمي مودتي ولا تنطقي في سريتي حين اغضب
فإني رأيت الحب في القلب والأسى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ثم ننتقل إلى بيت شاعر يضطرب الرواة في ذكر اسمه فيذكرونه أحياناً باسم أبي دهب الجمحي ، وأحياناً باسم أبي دعبل القريعي ونحن نختار الاسم الأول لأنه

أكثر شيوعاً ، ولعل الاختلاف مرجعه إلى التصحيف ، إن أبا دهبيل هذا رجل رزقه الله زوجة غير صالحة ، تسومه العذاب ، وتنكد عليه حياته ، إنه منزو في ركم من أركان بيته يلفه حزن عميق ، وتلوح على خده دموع ندم غزار ، ما هذا ؟ إن أبا دهبيل يبكي وإنه يدعو على نفسه ، يتمنى أنه لم يخطب زوجته تلك .

فهول يقول لبيت بعيري ضل بي الطريق يوم ذهبت أخطبها وليتني سرت عشرة أيام في طريق مائل بعيد عنها ثم رجعت دون أن ألقاها أو أخطبها :
يا ليتني يوم ذهبت خاطباً لقاني الله طريقاً شاطبا
لا أمما منها ولا مقارباً حتى إذا ما سرت عشرا دأبنا

فلنترك الرجل لحزنه ولننسل قبل أن يرانا فيفتك بنا ، وكفاه ما به من ندم وحسرة .

وإذا كان أبو دهبيل يتحسر على زواجه ممن خطبها ، ويتمنى أن لو كان قد أخطأ الطريق ، فها نحن أولاء نرى رجلاً آخر يثار لنفسه من مخطوبته التي رفضته إنه حنظلة الخير بن أبي رهم بن حسان أحد بني الغوث من قبيلة طيء ويسيمه الرواة الراهب الطائي ، كان حنظلة قد غزا مع كسرى فهلك قومه ، وضاعت أموالهم ، فعاد خائباً ، وبعد وقت غير طويل تقدم امرأة فرفضته لأنه لا أهل له ولا مال فقال :

تلك ابنة العدوي قالت باطلاً أزرى بأهلك قلة الأموال
إننا لعمر أبيك يحمد ضيفنا ويسود سيدنا على الأقلال

غضبت علي أن اتصلت بطيء وأنا امرؤ من طيء الأجيال
أحلامنا تزن الجبال رزانة ويزيد جاهلنا عن الجهال

فهو يرد على اتهامها له ويزعم أنه من قوم تشكرهم ضيوفهم ، ويسود سادتهم
ولو قلت أموالهم ، ويفخر بأنه من طيء التي تشبه الجبال في الثبات والرسوخ
وتتصف بالحلم وهو علامة الحكمة والجهل (الظلم) وهو علامة القوة . وقد أشار
الأمدي إلى أن الفرزدق سرق بيته المشهور :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنأ إذا ما نجهل
من البيت الأخير من أبيات حنظلة الطائي .

وممن خطبوا فرفضوا أيضاً فراصي بن عتبة الأزدي ، خطب ابنة عم له وكان
يهواها فلم يزوجه إياها ، وتزوجت من غيره ولكنه لم يبأس ، ولم يستطع أن ينسى
حبه القديم ، فهو سينتظر عسى أن يطلقها زوجها ، أو يموت عنها فيتقدم إليها من
جديد :

تريص بهاريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

ثم ننقل إلى فريق آخر من الشعراء الذين أصاب حيانهم ألم بسبب زوجات
آبائهم ، فها هو ذا القلاخ بن زيد أحد بني عمرو ابن مالك ، تزوج أبوه بعد وفاة أمه
امراًة مشاكسة تكيد الابن وتعمل على التفرقة بينه وبين أبيه ، فهو يتحسر على
نفسه ويتوجه بالحديث عن أبيه وجهة المعاتبة واللوم ، فيذكره بأنه أقرب رحماً
إليه من زوجته الجديدة ، فهو ابنه الذي يزود عنه إذا دهمه بأس ، ويقاقل عنه إذا

كانت الحرب ، أما زوجته فلن يكون شأنها إذا اشتد البأس إلا شأن سائر النساء
البحث عن زينتها ولهوها :

يخصص زيد وجهه فيطيعها علي ، وللواشي أغش وأكذب
فلوجاء يوم ينشف البأس ريقه لقاتلت عنه اليوم ، وهي تخضب
ولا يستوي يا زيد درج ومجمر وصدر سنان في الحروب محرب

وهذا الفرات بن أبي الخنساء الجشمي (من بنى تميم) خطب امرأة
فرفضته ثم تزوجت أباه ، فهو يهزأ من اختيارها ويصف زوجها - أباه - بأنه عجوز
أشمت شاب شعره وزاغ بصره ، ووهن عظمه ، فلا خير فيه لزوجة شابة ما زالت في
ميلة الصبا ومقتبل العمر وشرخ الشباب :

يا أم علوان هلا كنت قلت لهم إذ يقرنونك : إني أبغض الشمطا
ما خير زوج فتاها لا يداعبها وإن تنقط ألا يبصر النقطا
ألم تري شيخكم شابت مفارقه واللحم عن عضده قد ضل واختلطا

أما الشعراء المحرومون الذي يحل بينهم وبين معشوقاتهم فظلوا يتباكون على
حبهم القديم ، ويتسقطون أخبار محبوباتهم من بعيد ، فمنهم عثمان بن سالم أحد
موالي الحجاز ، كان يعشق امرأة من بنى عمرو بن كلاب تسمى شعتاء وشاءت
الأقدار أن تتزوج شعتاء هذه الفضل بن الربيع الوزير ، وذهبت مع زوجها إلى الحج
وبينما هما عائدان مر العاشق القديم عثمان بن سالم فرأى محبوبته وقد ضربت لها

قبة فخمة يقوم حولها جنود غلاظ شداد فثارت كوامن أشجانه ، وتذكر ألمه القديم
الجديد :

نأت شعناء عنك فما تزور ولطت دونها عنك الستور
فراحت في القباب الحمر خود مبتلة لها وجه نضير
وأمت دونها حرس شديد وأبواب مظاهرة ودور
أنا البين من شعناء بغنا وذلك عندنا حدث كبير

ومنهم عبد الله بن جحش الذي يبدو من حديث المؤرخين عنه أنه كان يعاني
من زوجة مشاغبة ، تلومه إذا تأخر عن موعد وصوله إلى البيت ، ربما لأنها كانت
تعلم أن له عشيقة أخرى تسمى ظمياء يزورها فيقضي معها وقتاً سعيداً يستروح
فيه أنسام سعادة لا يراها في بيته . . فهو يقول :

خليلي من عوف عفا الله عنكما ألما بها إن كان يرجى كلامه
فإن مقيلاً عند ظمياء ساعة لنا خلف من لومة سنامه

وهذا رجل تشيع قصته في كتب التراث دون أن يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن
اسمه أو عصره تزوج امرأة جديدة ، فكانت جارية المرأة الجديدة تمر على بيت المرأة
القديمة وتنشد قول الشاعر:

وما يستوي الثوبان : ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

فأرسلت المرأة القديمة جاريتهَا لتمر أمام بيت المرأة الجديدة لكي تنشد قول

الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل
ويروون أحياناً قصة مشابهة ، تمر فيها جارية المرأة الجديدة على بيت
القديمة فتتشدد :

وما يستوي الثوبان : ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد
قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم كم بين أشهى المطي إلى ما لم يركب
حبة لأول مؤثوبة نظمت ، وحبة لأولم تثقب

فتمر جارية القديمة ببيت الجديد فتتشدد :

إن المطية لا يلذ ركوبها حتى تذلل بالزمام وتركب
والدرليس بנافع أصحابه حتى يؤلف بالنظام ويثقب
وقد اجتهد الشعراء في بذل النصح للشباب الذي لم يتزوجوا ، فوضعوا لهم
صفات المرأة التي تستحب خطبتها حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ممن عاشوا
حياة كئيبة خالية من السعادة فيروي لنا الأبيشي قول الشاعر :

صفات من يستحب الشرع خطبتها جلوتها الأولى الألباب مختصرا:
صبية ذات دين زانه أدب بكر . ولود حكمت في نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءت وهي ثابتة أحاط علماً بها من في العلوم قرا

ويروي لنا الأستاذ يحيى حقي هذه الطرفة القصصية الرائعة والتي نختم بها

المقال :

بعث امرؤ لأبي عزيزة مرة برسالة يبكي ويضحك ما بها

فيها يقول أريد منك صبية
وأديبة وعفيفة ولطيفة
قد أحرزت في العلم غير شهادة
وتكون أيضاً ذات مال وافر
وأريد منها أن تكون مطيعة
فرد عليه أبو عريزة قائلاً :

وافى كتابك سيدي وقرأته
لو كنت أقدر أن أرى من تشتهي
وعرفت هاتيك المطالب كلها
طلقت أم عريزة وأخذتها

وهكذا يقدم لنا تراثنا الشعري العربي صوراً رائعة للإنسان الشاعر في حياته
الخاصة ، سعيداً ، محروماً ، قلقاً ، معذباً ، حائراً ، عاشقاً ، صابراً . . . وهي سمة
يتميز بها عطاء تراثنا المعطاء .

عشاق... في مواقف محرجة!!

يموج تراثنا الأدبي بقصص العشاق الشعراء الذين ملؤوا الدنيا نحيباً ، ومزقوا نياط القلب بشكاواهم ونواحهم ، ومفرداتهم الشعرية تزخر بمرادفات : البين والهجر والبعد والضنى والنوى والجوى .. إلخ .

ولكننا اليوم نستضيف طائفة خاصة من الشعراء الذين عبروا عن أشواقهم تعبيراً فطرياً عكس لنا روحاً مرحّة وظلاً خفيفاً وفطرةً سمحةً يندر أن نجد أمثالها عند العشاق التقليديين اللهم إلا أن جادت قريحة أحدهم مرة بفكرة طريفة كالعباس بن الأحنف المتغزل الخفيف العفيف حين يقول :

هل تأذنون لصبّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وأول ضيوفنا شاعر لم يذكر لنا الرواة اسمه ، ولكنهم رووا لنا قوله :

فما نطفة من ماء مزن تنسمت رياح لأعلى متنه فهو قارس

بأطيب من فيها - وما نقت طعمه ولكنني فيما ترى العين فارس!

فهو يوازن بين ريق محبوبته - الذي لم يذق طعمه - وبين سقيط الماء البارد الذي تشتهيهِ النفس ، ويعتمد في هذه الموازنة (التي تقوم على حاسة الذوق) على تحليلاته العميقة (التي تقوم على حاسة الرؤية) ! وهو يدعي الفروسية في الرؤية !! وهذا شاعر آخر لا ندري أكانت حبيبته مخيفة الشكل إلى هذا الحد ؟ أم أنه كان ضعيف الشخصية إلى هذا الحد ؟ ذلك الحد الذي يجعله إذا خلا إلى نفسه يرتب الأحاديث وينسقها وينمقها ويدققها ويرققها حتى إذا التقى مع حبيبته

أصابه العي أو الوجوم أو الدهشة أو الخوف ، أو ذلك كله فراح يحدثها أحاديث
عجيبة لا صلة لها بمشاعره :

أفكر ما أقول إذا التقينا فترتعد الفرائص حين تبدو
وأحكم دائباً حجج المقال وأنطق حين أنطق بالحال
ولعل محبوبته كانت شرطية !!

وهذا شاعر سيئ الحظ ، أوقعه حظه العاثر في حب امرأة غليظة القلب لا
ترضى منه بظاهر العشق ، بل تريده أن يتريث حتى تظهر عليه علامات المرض
الذي لا يرجى له براء ، والسقم الذي لا يؤمل له شفاء ، إنه يشكو إليها ما يلاقي من
عذاب هواها فترد عليه في دلال شكواه وترجوه أن ينتظر حتى يذهب جلده وعظمه
وحتى يعيبه الخرس .

وبعد ذلك ترضى عنه !! فيقول :

شكوت إليها الحب قالت : كذبتني أأست أرى الأجلاد منك كواسيا
رويدك حتى يبئلي الشوق والهوى عظامك حتى يرتجعن بواديا
ويأخذك الوسواس من لوعة الهوى وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا شاعر يقدمه إلينا الجاحظ دون أن يذكر لنا اسمه ، شاعر فارغ العين
مولع بتتبع النساء ومغارلتهن .

وقد أعجبتة امرأة محتجبة الوجه فتبعها لما رأى من حسن جسمها ، فلما
أسفرت عن وجهها (فإذا هي غول !!) .

كما يقول الجاحظ ، قفز الشاعر هارباً لما رأى من بشاعة وجهها وقال :

وأظهرها ربي بمن وقْدرة على ، ولولا ذلك مت من الكرب
فلما بدت سبحت من قبح وجهها وقلت لها : الساحور خير من الكلب
والساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب ، يعني أن مرآها مغطاة خدعه عن
حقيقتها ، وأن ما ظهر منها خير مما يطن .

وهذا شاعر يضرب به المثل في الحمق والغفلة يقول : أنه سيظل يعشق
حبيبته ما عاش ، فإذا أحس بدنو أجله يعطي تفويضاً لعاشق آخر يكمل مهمته
التاريخية وهي العشق ، والعشق فقط ! فيقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي!!
وهذا شاعر مضطرب إذا التقى بحبيبته وخلال لهما الجولم يفض لها بما
يعتلج في نفسه من شوق ، ولم يبتها ما يعتمل في قلبه من حنين ، وإنما يشكو إليها
ألماً يجده في كبده !! وهذا الألم سببه خوفه من الفراق !! فيقول :

ولما خلونا واطمأنت بنا النوى وعاد لنا العيش الذي كنت أعرف
أخذت بكفي كفها فوضعتها على كبد من خشية البين ترتجف!!

والمألوف عند الشعراء العشاق أن أكثرهم إذا انصرفت عنه محبوبته بكى
واشتكى وذرف الدموع غزيراً على ذكريات حبه ، وما يزال يستشفع ويسترضي
ويستلين قلب محبوبته عساها ترجع إليه . وبعضهم تتركه محبوبته وتزوج غيره بعد
أن تيأس منه وتشك في صدق عاطفته فيظل يبكي حبه القديم أو يعرض عن الزواج
بغير محبوبته ، أو ينتظر طلاقها أو موت زوجها ، كذلك الذي تركته حبيبته
وتزوجت غيره فقال مخاطباً نفسه :

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليها
أما الذين يقفون مع المحبوب وقفة حازمة فما أقلهم من الشعراء العشاق
فمنهم الذي يقول :

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته ، فالسلام على أخرى!!
وهذا شاعر من الأعراب ملته محبوبته وتركته غير عابئة بحبه، وهجرته هجراً
غير جميل ، ولعلها بعثت إليه تخبره بأنها تركته سأمًا ومللاً ورأت أو وراءها أوسع
من أمامها ، أي أن لها بديلاً خيراً من عاشقها الذي يقف " محلك سر " فبعث إليها
يقول :

فإن تشبعي منا وتسروي ملالة فنحن - وبيت الله - أوري وأشبع
وإن تجدي ما خلف ظهرك واسعاً فما خلفنا من سائر الأرض أوسع
وإن تنقضي العهد الذي كان بيننا فنحن لما ضيعت أنسى وأضيع!!
وهذا شاعر آخر أشد غلظة من صاحبه ، وأعظم منه جفاء وسوء خلق ، فهو
يدعو على محبوبته ويلعن حبه لها في لغة غليظة جافية تنم عن غيظ دفين ونفس
سئمة فيقول :

أميطي الهوى عمن قلاك وعرضي لغيري به ، واسترقي الله في الستر
فلو كنت لي كفاً إذن لقطعتها ولو كنت لي أذنًا رميتك بالوقر
ولو كنت لي عيناً إذن لفقاتها ولو كنت لي قلباً نزعتك من صدري
وقد يكون الشاعر عاشقاً وفيماً ولكن أقداره تقذف به بعيداً عن محبوبته
فيضرب في الأرض يبتغي من فضل الله وما أن تمر عليه ليالٍ معدودات حتى يشفق

على نفسه الوحدة والغربة وقسوة الفراق ، فيكتب ويكتب ويظل ينتظر الجواب بلا جدوى .. وهذا واحد من هؤلاء ترك حبيبته وكتب إليها يبثها شوقه وحنينه وندمه على فراقها ويبدو أنها لم تعبأ به فقال :

أترحل عن حبيبك ثم تبكي	عليه ؟ فمن دعاك إلى الفراق؟
كأنك لم تذوق للبين طعما	فتعلم أنه مر المذاق
أقم وانعم بطول القرب منه	ولا ترحل وتكتب باشتياق
فما اعتاض المفاقر من حبيب	ولو يعطى الشام مع العراق

وهذا الحطيئة يهمل بالسفر ويهمل له أصحابه دابته وزاده ثم يخاطب روجه في غلظة ليست غريبة على طبعه المعروف فيقول :

عدي السنين - إذا رحلت - لرحلتي ودعي الشهور فإنهن قصار...!!
فتقول له مستعطفة محذرة :

انكر تحنننا إليك وشوقنا واذكر بناتك إنهن صغار...!!

فتدمع عيناه ، ويرق قلبه - على مافيه من جفوة - ويقول : حطوا ، فوالله لا رحلت أبداً .

وهذا زمير بن أبي سلمى الذي قضى عمره يتغزل في محبوبته أم أوفى ، يكتب عليه السفر أو يكتب على أم أوفى ، فينظر في أمره فيرى أنه متأثر بهذا الفراق ويتسقط أخبار أم أوفى ، فلا يرى فيها تأثراً بفراقه فيشكو :

لعمرك والخطوب مغيرات	وفي طول المعاشرة الثقالي
لقد باليت مزلعن أم أوفى	ولكن أم أوفى ما تبالي

وروي أن بشر بن مروان كان في معسكر له بالبصرة قرب حدودها فبلغه أن كثيراً من الجنود يتركون المعسكر ويترددون على المدينة فأصدر أوامره بمعاقبة من يوجد في المدينة من الجنود عقاباً غريباً ، وهو أن تسمر يداه بمسامير ، وكان في الجنود فتى عاشق ولهان لم يستطع أن يزور حبيبته فكتب إليها يقول :

لولا مخافة بشر أو عقوبته وأن تسمر في كفي مسمار

إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم إن المحب إذا ما اشتاق زوار

(عطلت ثغري : أي تركت الثغروهو مكان تجمع الجنود على الحدود) .

فكتبت إليه محبوبته تقول :

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في كيه النار

إن المحب الذي لا عيش ينفعه أو يستقرومن يهواه في الدار

فهرب الجندي العاشق ونزل البصرة ، فلما أمسكه الحرس جاءوا به إلى بشر فسأله عن سبب هروبه فقال هذه الأبيات ودفعها إليه ، فقرأها بشر وضحك ثم أمر منادياً ينادي :

من أحب المقام في المعسكر فليقم ، ومن أحب دخول البصرة فليدخل .

وهذا عاشق أحرق يشكو بثه وحزنه إلى أحد العلماء فيقول : إني صنعت

شعراً وأريد عرضه عليك ، فيقول له : هات ما عندك ، فينشد :

إن جسمي سل من غير مرض وفؤادي لجوى الحزن غرض

فيقول له العالم : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فيكمل :

كـجـراب كان فيه جـبن دخل الفأر عليه فقرض

فيضحك العالم من حمقه وسذاجته

ومن الشعراء من يستعظم دلال محبوبته فيعاتبها في لغة ساذجة تعبر عن
فطرة نقية ويختار صورة بسيطة من بيئته التي يعيش فيها أو يعبر عن ضيقه
بمحبوبته تعبيراً فيه صراحة ومباشرة مقبولتان لظرفهما .

فهذا شاعر هجرته حبيبته فهو يعاتبها لأنها لم تبعث له (إنذاراً) حتى
يتمكن من الاستعداد (لإخلاء الطرف) من عهده فيقول :

أحين ملكتني أعرضت عني؟ كأنني قد قتلت لكم قتيلا

فهلأ إذ هممت بصرم حبلي جعلت إلى التصبرلي سبيلا؟

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه
شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به وقبلته عاشقاً
ولكنها لم تلبث أن خذلته ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها وشأنها
لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ لشؤونها ،
فقال :

أطمعتني فقلت أخذاً بكفي ثم عادت من بعد ذاك بخلف

زعمت أنها تريد عفافاً قلت : ربي على قلبي وعفي

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه
شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به حبيباً وقبلته

عاشقاً ولكنها لم تلبث أن خذلت ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها
وشأنها لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ
لشؤونها ، فقال :

أطمعتني فقلت أخذاً بكفي ثم عادت من بعد ذاك بخلف

زعمت أنها تريد عفافاً قلت: ردي عليّ قلبي وعيّي !

وهذا شاعر فاته قطار الزواج فيما يبدو ، حتى شاب شعره ، وتقدمت به
السن ، فصبغ شعره وتقدم خاطبها شاعرة تدعى أم العلاء بنت يوسف بن حور
المجلسي الحجازية، ذكرها صاحب المغرب، وقال: من أهل المائة الخامسة، فكتبت
إلى ذلك الخاطب الأشيب تسفهه :

يا صبح لا تبد إلى جنح والليل لا يبقى مع الصبح

الشيب لا يخدع فيه الصبا بحيلة فاسمع إلى نصحي

فلا تكن أجهل من في الورى تببت في الجهل كما تضحى!!

وكصنيع هذه الشاعرة ، صنعت شاعرة أخرى هي عائشة بنت أحمد بن محمد
بن قادم القرطبية .

قال أبو حيان في المقتبس لم يكن في زماننا في حرائر الأندلس من يعدلها علماً
وأدباً وشعراً .

وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة!! وكانت
حسنة الخط .

تكتب المصاحف ، وقد ماتت عذراء سنة أربعمائة. لأنها لم ترض أحدا ممن خطبوها ،

وخطبها ذات مرة بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه كما كتبت سابقتها تزجره زجرا عنيفا فقالت في غير رحمة ولا شفقة بهذا الخاطب الولهان إنها لا تحب أن تتزوج مطلقا ، ولو أرادت لاختارت من هو خير من هذا الخاطب التعس :

أنا لبوة لكنني لا أرتضي برقي مناخاً طول دهري من أحد
ولو أننى أختار ذلك لم أجب كلباً وكم غلقت سمعي عن أسد

ويبدو أن المرأة إذا اجتمع لها الجمال والأدب والشعر ، صارت أكثر قسوة من غيرها كما رأينا في المثالين السابقين ، وإذا شئنا أن نعززهما بثالث تذكرنا موقف الشاعرة عائشة الإسكندرانية المعروفة بزهرة الأدب!! قال ابن سعيد: كان مجلسها يعرف ب"الروض" فقد قالت تخاطب شاعرا رقيقا [رومانسيا !!] بعث إليها بشعر ذكر فيه أن قلبه من الحب يتقلب في جمر الغضا. فكتبت إليه تسخر من مشاعره ، وتخشى على رواد مجلسها من الأدباء والأديبات من حرنار أشعار ذلك العاشق المسكين فنصحته أن يحتفظ لنفسه بمشاعره تلك الساخنة ، وقالت له :

إذا كان قلبك ذا صاحبٍ ... فلا تبعثنِ بأسراره !!!!!

فإنني لأشفق من ناره على "الروض" أو بعض أزهاره

وهذا شاعر عصبي ابتلى بعشق امرأة عصبية فهو يشكو وهي تشكو وهو يجادلها وهي تجادله ، ويبدو أنهما اتفقا على ألا يتفقا فهو يقول :

شكوت ، فقالت : كل هذا تبرماً بحبى ؟ أراح الله قلبك من حبى
فلما كتمت الحب قالت : لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
فشكواي تؤذيها وعتبي يسوءها وتغضب من بعدي وتغضب من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها؟ أشيروا بها واستوجبوا الأجر في الصد
ونحن لا نجد له لا حيلة ولا حولاً ، ولا نريد من وراء مشورته أجراً ولا طولاً
مادام غيباً ، لا يرى في هذه الدنيا الواسعة الآفاق إلا هذه المرأة الضيقة الأفق . . فلا
حيلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هؤلاء الشعراء .. وحيلهم الظريفة !!

كثيراً ما يقع الشعراء في مآزق بسبب طول ألسنتهم وسلطانها، فيعرضون أنفسهم لما لا يطيقون من البلاء والمكروه.

وهنا نعرض بعض مواقفهم التي لجأوا فيها إلى الحيلة والذكاء وخفة الظل هروباً من العقوبة ، أو تخلصاً من موقف محرج ، أو تلطفاً في التعبير، أو إظهاراً لما حباهم الله تعالى إياه من ذكاء وفطنة، أو رغبة في قضاء مصلحة دون أن يفطن لذلك من يخشون بأسه.

ومن هذا النوع الأخير ما روي عن عاشقين شاعرين متعاصرين هما: جميل بن معمر، وكثير بن عبد الرحمن .

فقد اشتاق جميل إلى بثينة بعد أن حيل بينه وبينها ، فقصد صديقه كثيراً . وقال له: "إن بثينة تقيم مع عمها، وحاشية عمها كثيرة. فاذهب إليها وحذلي منها موعداً نلتقي فيه". فأطرق كثير وهو يفكر فيما قد يناله من أدنى على أيدي حاشية عمها، وبعد تفكير عميق اهتدى إلى حيلة يلجى بها رغبة صاحبه جميل . فسأل جميلاً: متى كان آخر عهدك بها؟

قال : يوم كذا .

قال : وأين كان اللقاء بينكما؟

قال : في "وادي الدوم".

وقد أصاب ثوبها شيء فغسلته يومذاك.

فأتى كثير إلى حي بثينة، فأخذ يتعرف إليهم، ويحدثهم، حتى انتهى إلى مجلس عمها قريباً من خيمتها فأخذ يحدثه. ثم رفع صوته وقال لعمها: سأسمعك أبياتاً قلتها في محبوبتي "عزة" حضرتني الآن.
قال: هاتها.

فأنشد بصوت عالٍ لكي تسمعه بثينة .
قائلاً :

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمريني ما الذي فيه أفعلُ
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم بأسفل وادي الدوم، والثوبُ يُغسلُ ؟
فقطنت "بثينة" إلى أنه يقصدها .

فصاحت بصوت يسمعه عمها: اخساً .
فصاح عمها : ما أخسأت؟

قالت : كلباً يعترينا ليلاً ثم رأيتُه الساعة !! فرجع كثير إلى جميل .
وقال : انتظرها الليلة فإنها ذكرت الليل !!.

وهذا شاعر آخر نزل ضيفاً على قومٍ بخلاء فمكث فيهم ثلاثة أيام يعاني جوعاً شديداً.

فلقيه بعض أصحابه فسأله عن حاله مع مضيفيه البخلاء، فقال له موارباً:
كيف أصبحت؟

فقال الشاعر:

وصامتُ ثلاثاً ناقتي بفنائهم ولو مكثتُ فيهم ثلاثاً لصلّتُ !!

فهو يقول : إن ناقته لم تعتلف علفاً لثلاثة أيام ، ولو مكثت ثلاثة أيام آخر فسوف تهلك وتموت !! [وصلت هنا معناها: تلفت وماتت، وفيها تورية لمقابلتها مع كلمة "صامت" من قولهم: صلّ اللحم، وأصلّ: إذا أنتن وهو نيء . وحمّ وأحم : إذا أنتن وهو مطبوخ]. فخرج الشاعر بهذه الحيلة من الإحراج مع هؤلاء البخلاء.

وحكى الربيع قال : حججت مع أبي جعفر المنصور ، فلما دخل المدينة المنورة أمرني أن أبحث له عن رجل يسايره ويريه شوارع المدينة ومنازلها، فوجدت رجلاً ظريفاً منقطعاً ، فأحضرت له . فسار معه وكلما سأله المنصور عن شيء أجابه وحديثه بما يطربه.

فقال له المنصور: أين منزلك؟

قال : لا منزل لي ولا زوجة ولا ولد ولا جارية!!.

قال له : فمن أنت؟

قال : رجلٌ مغمورٌ لا تبلغك والله معرفته .

قال : قد أمرت لك بأربعة آلاف درهم!! فرمى نفسه فقبل رجله.

ثم خاف الرجل أن ينسى أمير المؤمنين ما وعده به ، فطلب من الربيع أن يتنجز الوعد من أمير المؤمنين .

قال الربيع: فقلت له: إنه راحل غداً فابحث لنفسك عن حيلة.

وفي اليوم التالي ، ركب المنصور فدعا بالرجل ثانياً ليحدثه. فبينما هما يسيران إذ مرّاً على موضع .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي ذكره الشاعر الأحموس
فلم يفطن المنصور لما يقصده الرجل .

وقال له : أنشدني الشعر. فخاف الرجل لأن القصيدة كانت مدحاً لعمر بن
عبد العزيز، وهو أموي، والمنصور عباسي .

فقال : إنه يمدح عمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين؟! قال: وإن كان .
فأنشده الرجل :

يا بيت عاتكة الذي أتعللُ حذر العدا ، وبه الفؤاد موكلُ
إني لأمنحك الصدود وإننى -قسماً- إليك مع الصدود لأُميلُ
إلى أن بلغ قوله :

وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم مدق اللسان يقولُ ما لا يفعلُ
فضحك الخليفة وفهم حيلة الرجل ، وأمر الربيع أن ينفذ له الوعد .

وروي أن رجلاً كان يختلف إلى الخليل بن أحمد ليدرس عليه علم العَرُوض
وكان رجلاً بطيء الفهم ، غيباً ، فتبرّم منه الخليل ، ولكنه كره أن يخرجه ، فقال له
ذات يوم : قطع قول القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففهم الرجل غرض شيخه وانقطع عن درس العروض .

فقال الخليل : "ما رأيت أفطن منه على ما فيه من بَلَهٍ!!".

ويُحكى أن ابن دُرَيْد تشوق لزيارة بغداد من كثرة إغراء أصحابه وتشجيعهم
إياه على زيارتها.

فلما زارها لم تعجبه، لما رأى من أخلاق أهلها السيئة. فلما سأل بعض أصحابه عن رأيه فيها، أراد أن يعرفهم حقيقة شعوره من غير أن يستفز أهل بغداد فيفتكوا به.

فقال لهم :

سمعتُ بذكرِ الناسِ هنداً، ولم أزلْ أخا صَبُوةٍ، حتى نظرتُ إلى هِنْدِ
فلما أَرَانِي اللهَ هنداً وزرئُها تمنيتُ أن أزدادُ بُغْداً على بُعْدِ!!
وقيل: إن شاعراً كان يحترف الغناء، فزار يوماً بعض أصحابه، وكانوا قد انتهوا من تناول طعام الغداء. فطلبوا منه أن يشاركهم الشراب فشرب معهم - وهو جائع - ثم طلبوا منه أن يغنى لهم.

فما زال يغنى وهو يكابد مكروهاً عظيماً من الجوع فلما فاض به الكيل غي لهم:

خَالِيَّ دَاوِيَتَمَا ظَاهِراً فمن ذا يداوي جَوِي باطِناً؟
ففطن صاحب الدار إلى قصده وأمر له بطعام عاجل ..
وروي أن الفرزدق دخل على بلال بن أبي بردة، فوجده يذمّ في قبيلة مضر ويمدح اليمن .

فقال الفرزدق : إن فضل اليمن لا يستطيع إنكاره أحد لا سيما إذا عرف ما فعله أبو موسى مع رسول الله ﷺ. فقال بلال وقد شعر بالخوف من لسان الفرزدق: "إن فضائل أبي موسى كثيرة، فأيتها تعني؟".

فقال الفرزدق : إن رسول الله ﷺ غلبه دمه في بعض أسفاره فحجمه أبو موسى .

فقال بلال : "أجل .

لقد فعل ذلك برسول الله ﷺ ولم يفعله بأحدٍ قبله ولا بعده" -أي أنه لا يحترف الحمامة لأن الفرزدق أراد تعييره بهذه الحرفة- فقال الفرزدق : "إن الشيخ [يعنى أبا موسى] كان أتقى لله وأعلم به من أن يُقدم على حمامه نبيه ﷺ بغير حذق!!" [أي بدون خبرة سابقة بهذه الصنعة] فسكت بلال مفحماً ، وعدّها العلماء من جوابات الفرزدق المسكتة التي اشتهر بها!!.

وقيل : التقى رجلان أحدهما من بني تميم والآخر من بني نضير، في مجلس من المجالس ، فخاضا مع الخائضين في ذلك المجلس، حتى قال التميمي : "يعجبني من الجوارح: البازي".

فرد النميري في الحال قائلاً : "لا سيما إذا كان يصيد القطاة (الحمامة).

فضحك الجالسون إذ فطنوا إلى ما قصده الرجلان.

فقد أراد التميمي قول الشاعر جرير:

أنا البازي المطلُّ على نُميرٍ أُتِحتُ من السماء - لها- انصباباً

وأراد النميري قول الطرماح :

تميمٌ بطرق اللؤمِ أهدى من القطَا ولو سلَّكتُ طُرُقَ المكارمِ ضَلَّتُ!

وقد يتخذ الشعراء من إعاقاتهم البدنية حيلاً لطيفة كما فعل الشاعر الأحول

أبو حفص الشطرنجي حين قال :

حمدتُ إلهي إذ بُليت بحبّها على حَوْلٍ يُغني عن النَّظَرِ الشَّدْرِ
نظرتُ إليها، والرقيب يظنني نظرتُ إليه، فاسترحتُ من العذرِ

ولما أصيب الشاعر رجاء بن الوليد الأصفهاني بضعف السمع الذي يكاد يصل
إلى الصمم ، كان يتحين الفرص للحديث مع محبوبته لكي تلتصق وجهها بوجهه
وترفع صوتها حتى يسمع ، فأخذ قول أبي حفص الشطرنجي وغير فيه ، فقال
مستخدماً صيغة المذكر:

حمدتُ إلهي إذ بُليت بحبّه على طَرَشٍ يُشفي ويُغني عن العُذْرِ
إذا ما أراد السرّ ألصقَ حده بخدي اضطراراً ليس يدري الذي أدري!!

أي : هو في حاله يتكلم ، وأنا في حالٍ أخرى من الصبابة والوله والسعادة
لالتصاق الخدين !!.

ولما ورد الأحنف على معاوية، كان في مجلسه عمرو بن العاص، فقال عمرو
لمعاوية : أتأذن لي أن أمارح الأحنف؟
قال : لا تفعلْ فإنه جاهز الجواب .
فأبى عمرو إلا أن يمارحه.

فقال : يا أحنف ما معنى قول الشاعر يزيد بن الصعق الكلابي :
إذا ما مات ميتٌ من تميمٍ وسرّك أن يعيش فجئٌ بزازٍ
بخبزٍ، أو بسمنٍ ، أو بتمرٍ أو الشيء الملقّف في البجادِ
فقال : أراد السخينة (لون من الطعام) يرحمك الله!!
فضحك معاوية وقال لعمرو بن العاص : دُوْ عَقَق!!.

والسخينة طعام كانت تُعَيَّر به قريش . هجاها به كعب بن مالك الأنصاري
رضي الله عنه ، وقبله خدّاش بن زهير العامري . وغيرهما من الشعراء .

وأما قول معاوية (دُقْ عَقَقْ!) فهو معدول عن قولهم : (يا عاق) ، أي : تحمل
نتيجة اختيارك لمازحة نهيتك عنها فعققتني .

وهاهونا الأحنف قد عَيَّرَ بما يُخجلك !!

وذكر أبو الحسن الماوردي : أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب
دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا ، فأمر بإحضارهم ، تهيدا لمحاسبتهم وبتأديبهم
فقال كاتب شاعر شاب منهم معتذرا عما جنوه :

أطال الله عمرك في صلاحٍ وعزياً أمير المؤمنين

بعفوك نستجير فإن تجرنا فإنك عصمة للعالمينا

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فأمر بتخليتهم ، ووصل هذا الشاعر الفتى وأحسن إليه .

وقريب من هذه الحيلة أعني التوسل بالشعر لاستعطاف الحكام مارووه من

أن أبا نواس حبس مرة في عهد الرشيد فأرسل إليه يستعطفه قائلاً :

بعدك بل بجودك عذت لا بل بحبك يا أمير المؤمنين

فلا يتعدرن عليّ عفو وسعت به جميع العالمينا

فإني لم أخنك بظهر غيب ولا حدثت نفسي أن أخونا

براك الله للإسلام عزاً وحصناً دون بيضته حصينا

فقد أوهنت أهل الشرك حتى تركتهم وما يترمرموننا

تزورهم بنفسك كل عام زيارة واصلين لقاطعيننا
ولو شئت استرحت إلى نعيم وقاسى الأمر دونك آخروننا
فشفع حسن وجهك في أسير يدين بحبك الرحمن ديننا
إذا ما الهون حل بمستجير فليس لجار بيتك أن يهونا

فأطلقه الرشيد بعد أن سمع الأبيات وتشفع له وزيره الفضل بن يحيى، ثم
تكرر حبسه في عهد ابنه الخليفة الأمين ، ففعل معه كما فعل مع أبيه الرشيد وكتب
إليه يستعطفه :

تذكر أمين الله والعهد يذكر مقامي وإنشاديك والناس حضر
ونثري عليك الدرّيا درّ هاشم فمن ذا رأى درّاً على الدرّينثر
مضت لي شهورٌ مذ حبست ثلاثة كأنّي قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم تعنّي وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

وروى الرياشى عن الأصمعي أنه قال : مدح نصيب بن رباح عبد الله بن
جعفر ، فأمر له بمال كثير ، وكسوة شريفة ، ورواحل موقرة براً وتمراً .

ف قيل له : أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟

قال : أما لئن كان عبداً ، إن شعره في لحر، ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض
وإنما أخذ مالاً يفنى ، وثياباً تبلى ، ورواحل تنضى، وأعطى مديحاً يروى ، وثناء
يبقى .

وذكروا عن أبي النجم العجلي مأزقا عنيفا وقع فيه أبو النجم ثم احتال
بذكائه وخفة ظله حتى تخاص منه ، وذلك أنه أنشد الخليفة الأموي هشام بن عبد
الملك شعره الذي يقول فيه:

الحمــــد لله الوهــــــــوب المــــــــجــــــــزل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشــــــــمس في الجــــــــو كعــــــــين الأــــــــحــــــــول

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فطرد .

فأمل أبو النجم رجعته ، فكان يأوي إلى المسجد. فأرق هشام ذات ليلة فقال
لحاجبه : ابغني رجلاً عربياً فصيحاً يحدثني وينشدني .

فطلب له ما سأل . فوجد أبا النجم ، وهو لا يعرف موقف الخليفة منه . فأتى

به.

فلما دخل عليه قال : أين كنت منذ أقصيناك؟

قال : حيث ألفاني رسولك .

قال : فمن كان يعولك ؟

قال : كنت عند رجلين أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر.

قال : فما لك من الولد؟

قال : ابنتان .

قال : أزوجتهما ؟

قال : زوجت إحداهما .

قال : فبم أوصيتها ليلة أهديتها؟

قال : قلت لها :

سبى الحماة وابهتي عليها وإن أبت فازدلفي إليها

ثم اقرعي بالعود مرفقيها وجددي الخلف به عليها

قال : هل أوصيتها بعد هذا؟

قال : نعم :

أوصيت من برة قلباً براً بالكلب خيراً والحماة شراً

لا تسأمي خنقاً لها وجراً والحي عميهم بشر طراً

وإن كسوك ذهباً ودرا حتى يروا حلو الحياة مرا

قال هشام : ما هكذا أوصى يعقوب ولده .

قال أبو النجم : ولا أنا كييعقوب ولا ولدي كولده .

قال : فما حال الأخرى ؟

قال : هي ظلامه التي أقول فيها :

كان ظلامه أخت شيبان يتيمة ووالداها حيان

الرأس قمل كله وصئبان وليس في الرجلين إلا خطيان

فهي التي يذعر منها الشيطان

قال هشام لحاجبه : ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها؟ قال : هي عندي

وهي خمسمائة دينار .

قال له : ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامه مكان الخيطين !!

هؤلاء الشعراء .. وألقابهم الحيوانية!!!

من الطرائف الغريبة التي يزخر بها تراثنا الأدبي القديم ، تلك الأسماء والكنى والألقاب العجيبة التي عرف بها بعض أعلام هذا التراث من قضاة ووزراء وكتاب وشعراء.

ومن تلك الألقاب والأسماء العربية نستضيف في السطور القادمة ستة من الشعراء ذاعت شهرتهم بأسماء لها طابع حيواني!! فمنهم من تأذى منها ، ومنهم من أحسن التعايش معها ، وصنع مادةً فكاهية من غرابتها. أو ... لعلها كانت وراء شهرته. وهؤلاء الضيوف هم – ولا مؤاخذة أيها القراء:-

١. ابن الفرس.

٢. ابن الحمارة.

٣. ابن خروف.

٤. أبو العجل.

٥. أنف الكلب.

٦. جحشويه.

فهيا بنا نتجول في حدائق التراث، لنرى ما ذا حملت لنا كتب الطبقات والتراجم من أخبار هؤلاء وأشعارهم.

١. ابن الفرس:

ابن الفرس من كبار علماء الأندلس؛ فقد كان قاضيًا شهيرًا في غرناطة واسمه الحقيقي عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن أحمد الخزرجي المالكي

تفقه على والده وجده، في علمي أصول الدين والفقه، وله كتاب في "أحكام القرآن" وصفه الصفدي في "الوافي بالوفيات" بأنه "من أحسن ما يصنع في ذلك".

وقد تُوُفِّيَ ابن الفرس سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة (٥٩٧ هـ).

وكانت عادة القادة العرب المسلمين قديماً أنهم إذا قتلوا رأساً من رؤوس الكفر من أعدائهم، علقوا رأسه على سن رمح ، وطيف بها ليراها الناس فتشتفي صدورهم من قادة أعداء الدين .

وقد حدث مثل هذا الصنيع في عصر ابن الفرس، فقال يصف رأس عدو من الأعداء الذين قتلهم زعماء عصره بالأندلس :

بعثوا براس "العلاج" عنه مخبراً يا من رأى ميثاً يقول ويخبرُ
فَسَمَا به متنُ القنَاةِ كواعظٍ يسموبه بين المعاشر منبرُ
وكانه قد أثمرته قنائه يا من رأى غصناً برأس يثمرُ

على أن كتب التراث لا تدلنا على سر تلقيبه بهذا اللقب الغريب ، مما جعلنا نظن أنه لم يكن المراد به الذم ، كما هو الحال في ألقاب أخرى كثيرة ، بل لعله اسم جد من جدوده ، على عادة العرب في التسمية بأسماء الحيوانات ، ككلب . وأنف الناقة وغيرهما ، من غير تأثم ولا شعور بالحرَج .

٢. ابن الحمامة :

منح التاريخ هذا اللقب العجيب لرجل موهوب ذي شخصية فذة ، برع في الموسيقى ، وبرع في الشعر ، وكان له اهتمام بالفلسفة فقد تتلمذ لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجة.

ثمَّ هو فوق هذا كله: رجل دولة معروف فقد تولى الوزارة. وترجم له ابن سعيد في "المغرب في حلى المغرب" وترجم له المقرئ في "نفح الطيب" وغيرهما. والذين ترجموا له لم يذكروا لنا سنة مولده ولا سنة وفاته، ولكنهم في الغالب اتفقوا على أنه كان ذا شعر جيد .

كما اتفقوا على أنه حمل هذا اللقب الغريب ، وإن كانوا لم يشرحوا لنا سر هذا اللقب .

ويتميز شعرا بن الحمارة بالركة والعذوبة والسلاسة ، ورقة القافية .

فمن ذلك قوله يصف آلام الغربة والشوق إلى الأحبة:

ألا يا ليل: هل لك من صباح	وهل لأسير نجمك من سراح
ألا يا ليل: طُلْتُ عليَّ حتى	كأنك قد حُلقت بلا صباح
فهل باتت فطيمةُ فيك تشكو	كما أشكو اغترابي وانتزاحي
أردد زفرة المَضىنى كأنني	جريح أن من ألم الجراح
يقلبني الأسى جنبًا لجنبٍ	كأنني فوق أطراف الرماح

فهو يشخص الليل ، ويخاطبه راجيًا أن ينزاح عنه ، ويأذن بطلوع النهار رحمةً

بهذا العاشق الدنف المضىنى الذي يببب أسيرًا للنجوم في حركتها البطيئة وتتلاحق أنفاسه الحرَّى كأنها آهات جريح مطعون .

ثمَّ يترك الليل وخطابه ، ويتجه إلى محبوبته فطيمة التي يكنِّيها بأَم عمرو فيصف لها لهفته إلى لقاءها ، وكيف أنه تجشم مشاق السفر ليزورها، فلم يستطع

رؤيتها ؛ لأن أهل بلدتها أنكروه، فعاش بينها غريباً ، مأزوماً ، وحيداً ، يتجرع مرارة
الغربة ومرارة الحرمان :

دعاني الحب نحوك أم عمرو فطرتُ إليك خفاق الجناح
ولو أسطيع من طربٍ وشوق ركبتُ إليك أجنحة الرياح
أحببتنا رويدكم علينا فقد جمح الهوى كلَّ الجماح
هو القدر المتاح جرى علينا ومن يسطيع للقدر المتاح؟
ويبدو أن شاعرنا كان مبتلى بحراس معشوقاته الذين يسهرون على أولئك
النسوة ، فيمنعونهن لقاء أولئك العشاق المتطفلين.

فهؤلاء الحراس يتكرر ذكرهم مع امرأة أخرى غير أم عمرو، يسميها أم طلحة .
فيقول في قصيدة أخرى مكرراً نفس الشكوى: الحب ، والحرمان ، والخوف من
الحراس :

يا أم طلحة والديار قريبة والنجمُ من غفلات قومك أقربُ
يا سرحة حُرمتُ عليّ، وإنها لألذ من ماء الحياة وأعذب
ما بعد ظلك لي مقيلاً فاعلمي كلا، ولا لي بعد مائك مشربُ
ويعود ابن الحمارة إلى موطنه تاركاً ديار أم طلحة، آيساً من لقاءها، ولكنه
يتحسر على أيامه الخاليات معها. فيقول في قصيدة أخرى:

ألا ليت شعري هل تعود كعهدنا ليال طويناهنَّ طيَّ المراحل
إذا ذكرتها النفس كادت من الأسى تسرَّبُ في أولى الدموع الهوامل
ويسرف في لوم نفسه على فراقه لأم طلحة التي تغلغل حبها في دمه ، وسكن
شرايينه ومفاصله

إنه يشبه بفراقه إياها ، إنساناً شاردًا في الصحراء ، اشتد به الإجهاد والظمأ فلما وجد ماءً وهمَّ بالشرب منه طلع عليه قوم شداد بأيديهم أسلحة ماضية فأبعدوه عن الماء .

فانظر إليه وهو يصور هذا المعنى الدقيق لتجسيد الحرمان فيقول:

وإني وتركى أم طلحة بعد ما تسلسل مني حبها في المفاصل
كظمانُ قفرٍ أبصر الماء حسرةً وقد زيد عن أطرافه بالمناصل

٣. أبي خروف :

ابن خروف أحد مشاهير النحاة، فقد وضع شرحًا لكتاب سيبويه ، وشرحًا لكتاب (الجمل) ، ودرّس في الأندلس ومصر وحلب، وله إسهامات في علم الأصول والمواريث ، وتوفي سنة تسع وستمئة للهجرة (٦٠٩ هـ).

وقد وردت ترجمته في كثير من كتب الطبقات ، مثل : "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"عقود الجمان" لابن الشعّار، ولقبه الأصلي هو نظام الدين ، وكنيته أبو الحسن ، واسمه علي بن محمد بن علي بن محمد الأندلسي. ولكن لقب ابن خروف هو الذي غلب عليه.

ويبدو أنه كان يضيق بهذا اللقب ، بل لعله اتخذ منه مادةً للفكاهة يتندر بها ليدفع عن نفسه ما قد يضمّره جلساؤه من سخرية ، فقد ورد في شعره ما يدل على "توافقه" مع هذا اللقب العجيب!!

فقد دعاه صديق يدعى نجم الدين بن اللهيّب إلى طعام، فاعتذر لأن أباه (خروف) ، ولأن أبا صديقه (اللهيب).

فلولبي الدعوة لاحترق الخروف في اللهب حتى تتم (الطبخة).

فهو يقول مازحاً وساخراً من صديقه الذي خاتته نباهته فلم يراعِ هذه

المفارقة:

ابن اللهب دعاني دعاء غير نبيه

إن سرت يوماً إليه فوالبي في أبيه!!

وكتب مرةً إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، يطلب منه هديةً تقيه البرد

الشديد، فهو يطلب فراءً من صوف الغنم فيقول مخاطباً القاضي أنه طلب هذا

الكساء ليتقي به الأمطار الشديدة (الأنواء) ، فيقول :

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب

طلبتُ مخافة الأنواء من نِعماك جلدَ أبي

وفضلك عالمٌ أني خروفٌ بأرع الأدب!!

وكان ابن خروف خبيث الهجاء ، حاد اللسان ، إذا هجا أوجع ، وقد أورد له

الصفدي في "الوافي بالوفيات" أبياتاً هجا فيها طبيباً شاعراً من معاصريه من أعلام

الطب في العصر الأيوبي ، وهو مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الملقب بالدُّخوار

(ت ٦٢٧ هـ)، وكان أعرج .

فقال ابن خروف يهجوه بأنه دميم الخلقة لو اطلع عليه المتطبب (المريض)

لولى منه فرارا وللى منه رعبا من شدة دمامته، وهو - مع دمامته - جاهل بالطب

فلو أن لديه بصرا بالطب لسارع إلى علاج نفسه مما يعانيه من عرج في رجله ، وما

يعتريه من تكبر وغطرسة وغرور وإعجاب بنفسه :

لا ترجون من "الدُّخوار" منفعةً فلوشفى علتيه: العُجْبَ والعرجا

فإنه إن رأى المطبوبُ طلعتَه لا يرتجى صحةً منها ولا فرجاً
وفي قصيدة أخرى يهجوهُ أيضاً متهمًا إياه بالجهل المطبق، فهو لا يعرف من
الطب ظاهراً ولا باطناً.

ويقول : إن المريض يجيء إليه وهو بين الحياة والموت فيعجل بموته لما يصف
له من الدواء الخطأ فيقول ساخراً:

إن الأعيرج حاز الطب أجمعه أستغفر الله : إلا العلم والعَمَلَا
وليس يجهل شيئاً من غوامضه إلا الدلائل والأمراض والعَلَلَا
(الدلائل – والأمراض – والعلل) هي أسماء العلوم التي كان يتعين إتقانها
على كل من أراد تعاطي مهنة الطببيب ، ويقول شاعرنا إن هذا الطبيب واسع
الخبرة في التعجيل بموت مرضاه، ولكنه ضعيف الحيلة في شفائهم :

في حيلة البرء قلتُ عنده حيلٌ بعد اجتهد ، ويدري للردى
الروح يسكن جثمان العليل علاته ، فإذا ما طَبَّه رحلا

وقالوا: إن ابن خروف كان يعشق فتى نصرانياً جميل الطلعة، وحدث أن
هذا الفتى ، أو غيره ممن يشبهه ، أدين في قضية فحبسه قاضي القضاة ، فكتب ابن
خروف أبياتاً إلى القاضي ، يقول فيها إن هذا الفتى الوسيم يقتل عشاقه بجماله
دون عقوبة، فكيف يحبسه القاضي من أجل دراهم معدودة ، وتبالغ كتب الطبقات
في ذكر غرام ابن خروف بهذا الفتى.

فيقول مخاطباً القاضي:

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً أتى وجه الزمان به عبُوساً

حبست على الدراهم ذا جمال ولم تحبسه إذ سلب النفوسا!!

٤. أبو العجل :

كان أبو العجل ينحو نحو أبي العبر وأبي دلالة وغيرهما ممن يتحامقون ويتخذون من هذه الحماقة المصطنعة وسيلة للعيش والارتزاق.

والمصادر التي بين أيدينا لا تدلنا على اسمه الحقيقي، وتكتفي بإيراد أشعاره تحت هذا اللقب على نحو ما نرى في طبقات ابن المعتز:

ولكن أشعار أبي العجل رقيقة ، خفيفة الظل ، تدل على روح مرحة بلا تكلف فهو يقول مثلاً :

أيا عاذلي في الحمق دعني من العذل فإني رخي البال من كثرة الشغل

وأصبحت لا أدري، وإنني لشاهد، أفني سفرأصبحت أم أنا في الأهل؟

فانظر إليه كيف يأتي بهذا التركيب الفنى الغريب : فهو يستسمح عاذله أن يخفف من لومه ، فلا يلومه لأن له عذراً في الحماقة : فهو رخي البال من كثرة ما لديه من أشغال !! وهو يعلم – ولا يعلم أيضاً!!- إن كان مسافراً أم مقيماً في أهله؟ إنه أسلوب شعري يذكّرنا بنظرائه ممن كانوا يتعمدون الإغراب للتفكه.

ثم يخاطب عذوله فيسأله أن يأمره بما يشاء ، فسوف يفعل العكس تماماً لأنه آلى على نفسه أن يتظاهر بقلّة العقل ، فمثل هذا التظاهر سيجلب إليه الغنى والثروة فيصبح مشهوراً :

فمرني بما أحببت، أتِ خلافه فإن جئتني بالجِدْ جئتكَ بالهزل

وإن قلت لي: لمْ كان ذاك؟ جوابه: لأنني قد استكثرت من قلة العقل

فأصبحتُ في الحمقى أميراً مؤمراً وما أحد في الناس يمكنه عزلي
وصيرلي حمقى بغالاً وغلمةً وكنتُ - زمان العقل!! - ممتطياً رجلي!!
ويقول أيضاً واصفاً ما ناله من حظوة مع الناس بعد أن شاع لقبه هذا (أبو
العجل) وبعد أن شاع عنه ما أراه لنفسه من حماقة وغفلة، وهو يسخر من أولئك
الذين يلومونه على هذا الصنيع، فيقول:

عذلوني على الحماقة جهلاً وهي من عقلم الدُّ وأحلى
أذعن الناس لي جميعاً وقالوا يا أبا العجل: مرحتين وسهلاً!!
فيها - لا عدمتها - صرتُ فيهم سيِّداً أتقى، ورأساً ورجلاً
٥. أنف الكلب :

اسمه خطَّاب بن المعلّى الليثي، شاعر من أهل البصرة ، وفد إلى مصر وعُرف
بلقبه الغريب هذا "أنف الكلب".

وردت ترجمته في كتاب "الوافي بالوفيات" للصفي.
وروى أنه لما جاء إلى مصر مدح واليها علياً بن اـصلح بن علي الهاشمي ويبدو
أن هذا الوالي لم يرقه مدحه، فلم يعطه ما تمنى ، أو لعله وعده خيراً، وتأخر عليه في
إنجاز وعده.

فقال في بيتين ، لا ندري هل هما استنـجاز للوعد ، أم من الهجاء الخفيف
الذي يشبه العتب الجميل؟

فهو يقول : إن لهذا الوالي نسباً شريفاً، ما أجمل أن يزيده جمالاً بإنفاـذ وعده
لهذا الشاعر ، فيقول أنف الكلب :

لعليّ بن صالح بن عليّ نسب، لو يزيئـه بالسماح

صفحات م جمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

ومواعيده الريح فهل أنت بكفيك قابض للريح؟!

٦. جشويه :

هذا لقب شنيع لقب به شاعر من العصر العباسي، وردت ترجمته في "طبقات" ابن المعتز وغيرها. لكنه سيئ السلوك، وبذيء الهجاء. لا نستحسن الاستشهاد بشيء من شعره إلا ما استحسنه النقاد من قوله في مدح ابن الجهم:

نماری ندی ابن الجهم يوماً وبأسه	وقالا: رضينا في المحاكمة الفخرا
فقال الندي: يا فخر، ألهمت ماله	ولكنني عوضته الحمد والأجرا
فقال له البأس: انتضيت سيوفه	فأوردتها بيضاً، وأصدرتها حُمرا
فقال مجيباً: شِدْتما قُبَّة العِلا	وأوطنها، فلتعمرها به الدهرا

فهو كما ترى، شاعر مجيد، وإن كان سوء خلقه غلب على سيرته، فكان جديراً بهذا اللقب العجيب !! ويا له من لقب!!

هؤلاء الشعراء ومعاركهم الزوجية !!

يحفل تراثنا الأدبي القديم بطرائف ونوادر عديدة، وكلما كان الشعراء طرفاً في تلك النوادر، ازداد تأثيرها الممتع في النفس، لما يسبغه الشعراء على المواقف المختلفة من ظرف وخفة ظل، وروح فكهة.

وسنختار هنا عدة مواقف وجد الشعراء أنفسهم فيها أطرافاً في معارك زوجية تختلف أسبابها، وكعادتهم، يهجون خصومهم أو يهجوهم خصومهم.

وما أطرف أن يكون الخصمان في المعركة شريكي حياة: شاعرا وزوجته. والشعراء حين يدخلون معركة، يدخلونها بأسلحتهم التقليدية وهي أسننتهم الحداد التي تفيض بالتشويه والتشهير والافتراء واختلاق الأكاذيب، والسخرية من الخصم.

ويروي لنا الجاحظ في "الحيوان" ما أنشده إياه شاعر يسمى محمد بن يسير تزوج امرأة من غير أن يراها، فلما عاش معها استبشع منظرها فوصفها وصفاً قبيحاً، فقال:

أنبتت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أسنانها مائة، أو زبن واحدة كأنها- حين يبدو وجهها- غول

وشهر الصوم أطول شيء عند الشعراء، لأنه يحرمهم من اللذات فهو يشبه طول عرقوبها بشهر الصوم، ويعد أسنانها فيجدها ما بين مائة سن، ومائة وواحدة!!

ويروي أن أعرابياً كان عليه ديون كثيرة، فاجتمع غرماءه يطالبونه بمالهم عنده من ديون، وهو يدافعهم وينكر أن معه مالا يسدد به ، فلما طال بينهم وبينه التنازع والتدافع واشتد الجدل، طلبوا إليه أن يحلف بالطلاق من زوجته- وكان عنده زوجتان يكرههما معا- فحلف للدائنين بالطلاق ، من زوجته جميعا ، حاثناً ثم هرب من تلك البلدة وأنشد:

لو يعلم الغرماء منزلتيهما ماخوفوني بالطلاق العاجل !!

قد ملتا، ومللت من وجهيهما عجفاء مرضعة، وأخرى حامل !!

وهذا أعرابي يتأمل دمامة وجه امرأته ويصفه لنا وصفاً دقيقاً، فيقول إن عينيها ضيقتان فلا تستطيع إيصال المرود إليهما لتكتحل، وأما ثدياها فواحد صغير جداً كأنه "موزة" والآخر كبير جداً يشبه قربة الماء التي يحملها المسافرون :

ولا تستطيع الكحل من ضيق عيناها فإن عالجته صار فوق المحاجر

وثديان أما واحد فـكـ "موزة" وآخر فيه قربة المسافر!!

وهذا أعرابي تزوج امرأة اسمها "صعبة" وعاش معها ثلاثين سنة في نكد مستمر، وعذاب متجدد ، فضجر من الحياة معها ، ونذر أن لو أراحه الله منها فلن يتزوج بعدها ، فيقول :

ثلاثين حولاً لا أرى منك راحةً لهئك في الدنيا لباقية العمر!!

فإن أنفلت من حبل "صعبة" مرة أكن من نساء الناس في بيضة العقر

[لهتك :- لأنك : أي إنك واللام لام الابتداء. وهي لهجة عربية تبدل الهمزة

هاء].

وقال أبوالأسود الدؤلي يتضجر من طول عشرته كذلك مع زوجته أم عوف:

أبى القلب إلا أم عوف وحبها عجوراً، ومن يحبب عجوراً يفند

كثوب اليماني قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد...!!

[يفند: بفتح النون المشددة: يُلام ويؤاخذ].

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، ولكن ذكرهما ورد

على لسان أعرابي مع جبلي طيء، حين شبه بهما أسنان امرأته فقال وهو يهجوها بالقبح والبرودة والثقل :

ألام على بغضي لما بين حية وضبع وتمساح أذاك من البحر

تحاكي نعيماً زال من قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر

هي الضربان في المفاصل دائباً وشعبة برسام ضمنت إلى صدري

إذا سفرت كانت لعينك محنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر

حديث كقلع الضرس أو تنف شارب وغنج كهشم الأنف عيل به صبري

وتفتر عن قلع عدمت حديثها وعن جبلي طيء وعن هرمي مصر

وقال الرحال بن مجدوح النميري ، يهجو امرأته مثلما هجا جران العود

امرأته، وكانا صديقين ، وليست من الألف المختارة:

أقول لأصحابي الرواح فقربوا جماليّة وجناء توزع بالبقر

وقربن ذئلاً كأن سراته سراه نقا العراف لبده القطر

فقلن أرخ لا تحبس القوم إنهم ثووا أشهراً قد طال ما قد ثوى السفّر

فقامت بئيساً بعد ما طال نزرها كأن بها فترا وليس بها فتر

قطيعٌ إذا قامتَ قطوفٌ إذا مشتَ
خطاها وإن لم تألُ أدنى من الشبرِ
إذا نهضت من بيتها كان عقبةً
لها غولٌ ما بين الرواقين والسترِ
فلا بارك الرحمنُ في عودِ أهلها
عشيّةَ زفوها ولا فيك من بكرِ
ولا بارك الرحمنُ في الرّقمِ فوقه
ولا بارك الرحمنُ في القطفِ الحمرِ
ولا في حديثٍ بينهنّ كأنّه
تثيمُ الوصايا حين غيّبها الخدرُ
ولا جلوةٍ منها يحلّيني بها
ألا ليتني غيّبتُ قبلك في القبرِ
ولا في سقاطِ المسكِ تحت ثيابها
ولا فرشِ ظوهنّ من كلِّ جانبِ
ولا الرّعفرانِ حين شحّنها بهِ
ولا رقةَ الأثوابِ حين تلبّستِ
ولا عجزِ تحت الثيابِ نبيلةِ
وجهزتها قبل الحاقِ بليلةِ
وقد مرّ تجرّفاً شتروا لي بناءها
ولا في إذ أحبوا أباهها وليدةً
وما غرّني إلا خضابُ بكفها
وكحلّ بعينيها وأثوابها الصّفْرِ
وسالفةِ كالسّيفِ رايلَ غمدهُ
وعينِ كعينِ الرّئمِ في البلدِ القفرِ
وشبهِ قناةٍ لدنةٍ مستقيمةِ
وإن جلستُ وسطَ النّساءِ شهرنها
وذاتِ ثنايا خالصاتٍ من الحبرِ
فلما برزناها الثّيابُ تبّينتِ
وإن هي قامتُ فهي كاملةُ الشّبرِ
طماحِ غلامٍ قد أجذب به النّقرُ

دعاني الهوى نحو الحجاز مصعداً وإني وإياها لمختلفا النجر
ألا ليتهم زفوا إليّ مكانها شديد القصيرى ذا عرام من النمر
وقال أعرابي يهجو امرأته :

خرقاء بالخير ما تهدى لوجهته وهي صناع الأذى في الأهل والجار
ليست بشبعى ولو أوردتها هجراً ولا برياً ولو حطت بذى قار
والى هذا المعنى نظر القائل :

كالحوت لا يكفيه شيء يلهمه يصبح ظمآن وفي البحر فمه
ولآخر يخاطب امرأته :

يا ربّ مثلك في النساء عزيزة بيضاء قد روعتها بطلاق
لم ندر ما تحت الضلوع وغرها مني تجمّل عِشرتي وخلاقي

وقالوا : كانت دقاق أم ولد يحيى بن الربيع أحمد المعروف بابن دقاق مغنية
محسنة متقنة الأداء والصناعة ، وكانت قد انقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى
غضيض ، وكانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

قال أحمد بن الطيب : وعثقت دقاق فتزوجها بعد مولاها ثلاثة من القواد
من وجوههم ، فماتوا جميعاً ، فقال عيسى بن زينب يهجوها :

قلت لما رأيت دار دقاق حسنّها قد أضر بالعشاق
حذروا الرابع الشقي دقاقا لا يكونن نجمه في محاق
أله عن بضعها فإن دقاقا شؤم حرها قد سار في الآفاق
لم تضاجع بعلاً فهب سليما بل جريحاً وجرحه غير راقى

وأما الشاعر المجهول أبو محمد الحسن بن يحيى بن روبيل الأبار ، وهو من أهل دمشق .

فقد ذكره بعض معصريه وقالوا: كان شيخاً مطبوعاً ديناً ناسكاً لا يشرب الخمر ولا يقرب المنكر ؛ وله دكان في سوق الأبارين يبيع الإبر . وتوفي بدمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

قالوا : وكان مع نسكه وعفته ، مغرى بهجو زوجته.

وذلك أنها أشارت عليه بمدح كبير فمدحه فما نفع ، فهجاه فصفع ، فقال لولا زوجتي لما صفعت ، ولولا تغريرها بي لما وقعت. فقال يهجوها :

أُغْرِيتُ زوجتي بِشُرْبِ الْعُقَارِ أَسْكَنْتَنِي بجنب دارِ الْقِمَارِ
أَطْعَمَتَنِي مَخَّ الْجِمَارِ فَلَمَّا أَبْصَرْتَنِي قَدْ صِرْتُ مِثْلَ الْحِمَارِ
بَذَلْتُ فَرْجَهَا وَصَاحَتْ إِلَى النَّاسِ سَ هَلَمَّوْا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ

وقال :

لِي قِطْعَةٌ أَنْظِفُ مِنْ زوجتي وَدُبْرَهَا أَنْظِفُ مِنْ فِيهَا
وَكُلَّ مَا صَوَّرَهُ رَبُّنَا مِنْ الْخَنَاءِ رَكَّبَهُ فِيهَا

وله فيها أشعار أشد قبحا مما اخترناه ، لا نستطيع إيرادها هنا .

وذات مرة اشترى أبو الأسود هذا جارية حواء ، فشعرت زوجته أم عوف بالغيرة لأن زوجته كانت ابنة عمه، ورأت في تلك الجارية الحواء منافسة لها فشنت على الجارية حرباً نفسية، وكانت كلما رأت زوجها أبا الأسود ، والجارية

واقفة أو جالسة قريباً منها ، رفعت عقيرتها وقالت كأنها في سوق النخاسة : من يشتري جارية حواء ؟

فلما طال ذلك وتكرر قال أبو الأسود : يدافع عن جاريته ويغمز في امرأته :

يعيبونها عندي، ولا عيب عندها سوى أن في العينين بعض التأخر

فإن يك في العينين سوء فإنها مهففة الأعلى، رداح المؤخر

ومن أبواب الشجار الدائمة بين الشعراء وزوجاتهم ، تقدم السن بأحد الطرفين والمرأة دائماً هي التي تدفع الثمن غالباً إذا تقدمت بها السن ، لأن من عادة الشعراء التماس الجمال ، ونشدان الربيع الدائم ، وحدث مرة أن تأخر أعرابي في الزواج إلى أن بلغ الخامسة والأربعين فتزوج امرأة في مثل سنه.

فقال له شاعر من أصدقائه :

وأعّست نفسك حتى إذا أتيت على الخمس والأربعينا

تزوجتها شارقاً فخمّة فلا بالرّفاء ولا بالبنيينا

فلا ذات مال تزوجتها ولا ولد ترتجي أن يكونا

بها أبداً فالتمس غيرها لعلّك تعطى بغتٍ سميناً

وتزوج جهم الشاعر امرأة من بني فقّعس ، وباع إبلاً له ليدفع مهرها، فلما دخل عليها رآها عجوزاً فتحسر على إبله التي ضاعت، وتوقع لنفسه الموت أسفاً وندماً على يدي هذه العجوز الشمطاء وكان اسمها "قمامة"!! فقال جهم باكياً:

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحية كما لمت نفسي في عجوز بني شمس

غبننت ولم أغبن غداة اشتريتها وبعثت تلاد المال بالثمن البخس
فإن مات جهنم غيلةً فاقتلوه قمامة إن النفس تقتل النفس
وكانت نظرة العرب الى تقدم العمر عجيبة ، وفيها تحيز الى جانب الرجال
فكانوا يقولون إن خير نصفي الرجل آخرهما (أي النصف الثاني من عمره) ففي
هذه المرحلة من العمر: يذهب جهله، ويثوب حلمه، ويجتمع له رأيه ، وإن شر نصفي
المرأة آخرهما: يسوء خلقها ، ويحد لسانها ، وتعقم رحمها!!

ولذلك قال بعضهم يحذر من زواج العجائز:

لا تنكحن عجوزاً إن دعوك لها وإن حبوك على تزويجها الذهبا
وإن أتوك وقالوا: إنها نصفٌ فإن أطيب نصفها الذي ذهب
ومن الشعراء من تمنى الموت لنفسه أو لزوجته حتى يستريح من عذاب الحياة
المؤلة التي تجمعهما.

فهذا شاعر يدعو على الوسطاء الذين رشحوا له امرأته التي تزوجها ، ويدعو
على نفسه بالموت فيقول :

وقد مرتجرفا اشتروا لي بناءها وأثوابها ، لا ببارك الله في التجر
ولا في إذ أحبوا أباهاً وليدةً كأني مسقي يعل من الخمر
ولا ببارك الرحمن في عود أهلها عشية زفوها ، ولا فيك من بكر
ولا ببارك الرحمن في الرقم فوقه ولا ببارك الرحمن في القطف الحمر
ولا جلوة منها يحليني بها ألا ليستني غيبت قبلك في القبر

[تجر: تجار، القطف: بضم القاف والطاء: من القطفية].

وهجا بعضهم امرأته فوصفها وصفا حسيا شنيعا ، فهي بين البرغوث والبعوضة في ضالة الجسم – والأذى بطبيعة الحال !! – ووجهها يذكر شاعرنا بوجوه القروذ في قبحه ودمامته ، بل إنه يراه أشد من القروذ قبحا ، ولو أن الشيطان نفسه رأى وجهها لقضى يومه وليلته مستعيذا بالله من قبحها :

لها جسم برغوث وساقا بعوضة ووجهه كوجه القرد بل هو أقبح
تبرق عينيها إذا ما رأيتها وتعبس في وجه الضجيع وتكلح
لها منظر كالنار تحسب أنها إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها تعود منها حين يمسي ويصبح

وأما ذلك الأعرابي فقد تمنى الموت لزوجته ، وكاد يقتلها لولا أنه خشي ما يترتب على قتلها من أخذ بالتأثر، فهو يقول لنا إنه كان يفكر كثيرا في أن يقتلها ثم يتوب الى الله ويرجو مغفرته ولولا خوفه من عقاب الله لوضع السيف على رقبتها في موضع العقد واستراح منها:

لولا مخافة ربي أن يعاقبني وأنها عدة تقضى وأوتار
لقد جعلت مكان الطوق ذا شطب وتبت بعد ، فإن الله غفار

ويتحسر شاعر آخر على ما آل إليه حاله مع زوجته ، ويسترجع أيام الخطبة حين خدعته بكحلها الفاتن ، وأثوابها الملونة، وعطورها الذفافة ، فلما عاش معها ، وسبر طبعها ، وملّ من حديثها عن الحب ، فاضت نفسه بهذه الأبيات يتحسر فيها على ما كان فيقول:

وما غرّني إلا خضابٌ بكفّها وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصّفر

تسألني عن نفسها: هل أحبّها؟ فقلت: ألا ، لا ، والذي أمره الأمر!!

تفوح رياح المسك والعطر عندها وأشهد عند الله ما ينفخ العطر!!

على أن من الشعراء من فضل الطلاق على تمنى الموت ، ورأى في الطلاق خلاصاً من جحيم حياة زوجية لا سكن فيها ولا سكينه، ولا حب فيها ولا حنان فهذا شاعر يقول لزوجته إن ليلة طلاقها ستكون أحب إليه من ليلة دخوله بها:

تَجْهَزي لِلطَّلَاقِ وانصربي ذاك جَرَاءِ الجَوَامِيعِ الشُّمُسِ

لَلَّيْلَتِي حِينَ بَتِ طَالِقَةً أَلْدُّ عِنْدِي مِنْ لَيْلَةِ الْعُرْسِ

والزوجات يرددن الصاع صاعين:

وإذا كان الشعراء يستعينون بألسنتهم الحداد للانتقام من نسائهم والسخرية من دماמתهن ، أو كبر أعمارهن ، فإن من النساء أيضاً شاعرات انتقمن لأنفسهن وهجون أزواجهن ، وعبرن عن ضيقهن ومللهن من حياتهن الكئيبة مع أزواج مزعجين لا يريحون ولا يستريحون .

فهذه شاعرة تسمى عصيمة الحنظلية تختنق من سوء خلق زوجها ، وتشعر بأن بيتها سجن ، أو حفرة مملوءة بالدخان حين يكون زوجها بالبيت ، فهي تتمنى أن يأخذ السفر زوجها فلا يعود إليها، بل إنها لو استطاعت لافتدت نفسها من حياتها معه بمائة من الإبل تدفعها لمن يخلصها من هذا السجن :

كأن الدار حين تكون فيها علينا، حفرة ملئت دخاناً

فليتك في سفين بنى عباد فتصبح لا نراك ولا ترانا

فلو أن البدور قبلن يوماً لقد أعطيتها مائة هجاناً

ونتقدم خطوة أكبر مع امرأة من بنى ضبة تسخر من زوجها الدميم ذي القدمين المقوستين ، وهو زوج يبغضه كل من يعرفه ، فهي حين تدعو عليه تجد دائماً من يؤمن على دعائها تشفيا منه ، وتعبيراً عن بغضه.

وتتمنى لو أن الأقدار فرقّت بينهما تفريقاً لا لقاء بعده بحيث تكون هي في أقصى الشرق في الصين، ويكون هو في أقصى الغرب في أوروبا فتقول تلك الضبية:

تراه أهوج ملعوناً خليقته يمشي على مثل معوج العراجين

وما دعوت عليه قط ألغنه إلا وأخريتلوه بأميسن

فليته كان أرض الروم منزله وأننى قبله صُيرتُ في الصين

وكما عبر بعض الشعراء عن ندمهم على زواجهم لدرجة أنهم كانوا يفضلون الموت على هذه الزيجة، فكذلك كان شعور بعض الزوجات تجاه أزواجهن.

فهذه جمرة الأزدية تذكر زوجها أبا وائل فتصفه بأنه ليس من وجوه الرجال وتتمنى أن لو كانت ماتت ولم تنزوجه:

لعمرك ما إن أبو وائل إذا ذكر القوم بالطائل

فيا ليتني لم أكن عرسه وعُجلت بالحدث العاجل

ورَوَّجَت امرأة تسمى أم جحدر ابنة لها من رجل قبيح المنظر فقالت إن الذين وصفوه لها خطيباً لابنتها غشوها غشاً كبيراً فليتها حين وُصف لها تحققت منه وتأملت وجهه ورجليه:

لقد دُئس الخطّاب يا أم جحدر لكم في سواد الليل إحدى العظام

ألم تنظري - حبيبت يا أم جحدر - إلى وجهه أو تنظري في القوائم

فلما تمـعنـت فيه أبـدت أسـفـها وقـالت قـبـح اللـه الطـلـعة وأنشـدت :

وإن أناساً زوجوك فقاتهم لجدُّ حراس أن يكون لها بعلُّ !!

ولكن العجب أن يكون الزوج شاعراً والزوجة شاعرةً، ويتبادلان السخرية والسباب ، فهذا شاعر يرى زوجته تمر أمامه في البيت فيقول إنه لو حُيِّرَ يوم تزوجها بينها وبين حية عظيمة لا خـتار الحية بدلاً من زوجته ، وقضى بقية حياته يـمرح ويـسرح مع الرعاة في الجبال :

تلك التي لو أنني خيرتها أوحية هماسة الأسنان

لاخترتها بدلاً بها وغرلتها وصدرت ذا جذلٍ مع الرعيان

فترد له الصاع صاعين ، فتمعن في ذم عيوبه فهو عجوز لا خير لامرأة فيه ولم يبق منه إلا لسانه الطويل الشتام ، ويتشبت بالشباب مع أن ظهره قد انحنى ووجهه قد تغضن فكثر عليه الذباب ، فلو أنها حُيِّرَت يوم تزوجته بينه وبين كلبها " ذكوان " لاخترت الكلب ولم تختره :

يا رب شيخٍ قد تولى خيره ذرب اللسان كأنه ظريان

يرجو الشباب وقد تحنى ظهره وعفاه - بعد منامه - الذبان

ذاك الذي لو أنني خيرته لم أرتضيه بـكلبنا " ذكوان "

ولكن في المقابل هناك نساء يحفظن العهد ، ويستمسكن بالود، فهذه امرأة شاعرة طلقها زوجها ثلاث طلاقات ، فتزوجت محلاً، فأعجبته ورفض المحلل أن يطلقها ، فبقيت على مودتها لزوجها القديم تتذكره أول يومها عندما تستيقظ، وآخر الليل عندما تنام، ولكنها لا تملك له إلا هذا الود الصافي وأن تظل دائماً وفيه له طوال

عمرها ، تنصحه بما ينفعه إذا استنصحتها وترشده إذا استرشدها فبعثت الى زوجها تقول له :

قُصاراك مني النصح ما دمتُ حيةً وود كماء المزن غير مشوب
وأخرشي أنت في كل هجعة وأول شيء أنت عند هبوبي
وقالت تصف حالها مع هذا المحلل :

لِمَنْ بكرة مطروفة العين نازعٌ معذبةٌ في حبل راعٍ يهينها ؟!!
وقال أعرابي يخاطب امرأته وقد غرّها منه طيب العشرة وحسن الخلق
فأساءت إليه :

يا رَبُّ مثلك في النساءِ عزيزةٌ بيضاء قد روعّتها بطلاقٍ
لم ندر ما تحت الضلوعِ وغرّها مني تجمّل عِشرتي وخلاقي
وقال أعرابي آخر يهجو امرأته لما رأى منها من سوء المعاشرة وإيذاء الأهل
والجيران وحماقة التصرف وشراهتها إلى الطعام والشراب :

خرقاء بالخير ما تُهدى لوجهته وهي صنّاعُ الأذى في الأهلِ والجارِ
ليست بشبّعى ولو أوردتها هَجْراً ولا برياً ولو حَلَّتْ بذِي قارِ
ولما هجا أبو الطرّوق الضبّيُّ امرأته، وكان اسمها شَعْفَرُ بالقُبْحِ والشناعة فقال:
جاموسة وفيلةٌ وخَنَزْرُ وكلُّهنَّ في الجمالِ شَعْفَرُ
جعل الخنزير خَنَزْراً، فجمعها كما ترى للتشابه، وقال آخر في وصف امرأته أيضاً:
كَأَنَّ الذي يَبْذُونَا من لثامِها جَحافلٌ عَيرٌ أو مشافرٌ فيلِ
وقال أعرابي في امرأة تزوجها وكانت سَوْداءَ :

كَأَنَّهُا وَالْكُخْلُ فِي مِرْوَدِهَا تَخَلَّ عَيْنَيْهَا بِبَعْضِ جِلْدِهَا

وقال فيها يخاطبها :

أَشْبَهَكَ الْمِسْكُ وَأَشْبَهَتْهُ قَائِمَةٌ فِي لَوْنِهِ قَاعِدَةٌ

لَأَشْكَ إِذْ لَوْتُكُمَا وَاحِدٌ أَنْكُمَا مِنْ طَيِّبَةٍ وَاحِدَةٍ

وقال يصفها ويقول إنه لو كشف للناس نصف وجهها لأغرقوه ببصاقهم

لسوء اختياره :

وَلَوْ أَنِّي أَبْدَيْتُ لِلنَّاسِ بَعْضَهَا لَأَصْبَحَتْ مِنْ بَصِقِ الْأَحْبَةِ فِي بَحْرِ

وقال في وصف امرأته وكأنه يرسم لنا لوحة فنية :

يَا رَكْبَتِي خَزَزَ وَسَاقُ نَعَامَةٍ وَزَيْبِلُ كَنَاسٍ وَشَدَقَ بَعِيرُ

يَا مَنْ أَشْبَهَهَا بِحُمَى نَافِضٍ قَطَاعَةٌ لِلْقَلْبِ ذَاتُ زَفِيرِ

صَدَاكَ قَدْ شَمَطًا وَنَحَرَكَ يَابِسٍ وَالصَّدْرُ مِنْكَ كَجَوْجُؤِ الطَّنْبُورِ

يَا مَنْ مَعَانَقَهَا يَبِيتُ كَأَنَّهُ فِي مَحْبَسِ قَمَلٍ وَفِي سَاجُورِ

قَبْلَتَهَا فَوَجَدَتْ طَعْمَ لَنَاتِهَا فَوْقَ اللِّسَانِ كَلْسَعَةُ الزَّنْبُورِ

وهجاً أعرابيٌّ امرأته، فقال:

يَا بَكْرَ حَوَّاءَ مِنَ الْأَوْلَادِ وَأُمَّ آلَافٍ مِنَ الْعِبَادِ

عُمِرَكَ مَمْدُودٌ إِلَى التَّنَادِي فَحَدَّثِينَا بِحَدِيثِ عَادِ

وَالْعَهْدِ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ يَا أَقْدَمَ الْعَالَمِ فِي الْبِلَادِ

إني من شخصك في جهاد !!!

ولأعرابي آخر في زوجته يهجو. وقد أحسن في وصفه تكمش وجهها:

ولا زُفَرْدِيَّةُ الثَّانِيَا قَدْ قَمَعَتْ رَأْسَهَا بِقِيرِ
كَأَنَّمَا وَجْهَهَا قَمِيصٌ قَدْ فَرَّكَوهُ عَلَى حَصِيرِ
وَنَلِيَ عَلَى مَا وَقَعَتْ فِيهَا أَوْقَعَهَا اللَّهُ فِي السَّعِيرِ
وله في ولده أيضاً:

لي وَلَدٌ لَا وَلَدَتْ أُمُّهُ أَعْذَلُهُ الدَّهْرَ فَمَا يَزْعَوِي
اللَّهُ قَدْ صَيَّرَهُ أَعْوَجاً يَا ذَنْبَ الْكَلْبِ أَمَا تَسْتَوِي
وله في زوجته أيضاً يصف شرها للجنس وطمعها في المال:

قَالُوا تَزَوَّجْتَ دُبَيْسِيَّةً أَضْرَى مِنَ الذَّنْبِ عَلَى الشَّاةِ
تَقْدِيسُهَا النَّخْرُ وَتَسْبِيحُهَا وَهَاتِ تَقَرًّا فِي التَّجَحَّيَاتِ

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، وذكرهما أعرابي مع جبلي طيء، فقال وهو يهجو امرأته بالقبح والبرودة والثقل:

أَلَامَ عَلَى بَغْضِي لِمَا بَيْنَ حَيَةٍ وَضَبَعَ وَتَمَسَّحَ أَتَاكَ مِنَ الْبَحْرِ
تَحَاكِي نَعِيماً زَالَ مِنْ قَبْحِ وَجْهِهَا وَصَفَحْتُهَا لِمَا بَدَتْ سَطْوَةُ الدَّهْرِ
هِيَ الضَّرْبَانُ فِي الْمَفَاصِلِ دَائِباً وَشَعْبَةٌ بِرَسَامٍ ضَمَمْتَ إِلَى صَدْرِي
إِذَا سَفَرْتَ كَانَتْ لَعَيْنُكَ مَحَنَةً وَإِنْ بَرَقَعْتَ فَالْفَقْرُ فِي غَايَةِ الْفَقْرِ
حَدِيثُ كَقْلَعِ الضَّرْسِ أَوْ نَتَفِ شَارِبٍ وَغَنَجُ كَهْشَمِ الْأَنْفِ عِيلٌ بِهِ صَبْرِي
وَتَفْتَرُ عَنْ قَلْعِ عَدَمَتِ حَدِيثِهَا وَعَنْ جَبْلِي طِيٍّ وَعَنْ هَرَمِي مَصْرِ

وقالوا : إن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ويقال بل خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة كان تزوج امرأة تسمى حميدة قبل روح بن زنباع فقالت فيه:

نكحت المديني إذ جاءني فيالك من نكحة غاوية
له دفر كصنان التيوس أعياء على المسك والغالية
كهول دمشق وشبانها أحب إليّ من الجالية

[الدفر: الرائحة ، الصنان : الرائحة الكريهة ، والجالية هم الذين أجلاهم عبد الله بن الزبير من الحجاز من بني أمية وغيرهم من أشياعهم إلى الشام.]
فقال زوجها مجيباً لها

أسنا ضوء نار صخرة بالقفرة أبصرت أم تنصب برق
أية ما يكن فقد هاج للقلب اشتياقاً وأنه غير مبق
لسنا بين الحجون إلى الحرة في مغمرات ليل وشرق
ساكنات العقيق أشهى إلى القلب من ساكنات دور دمشق
يتضوعن إذ تمخضن بالمسك صناناً كأنه ربح مرق

ثم طلقها فتزوجها روح ، [المرق : صوف الجلد القديم]

وقال أبو العاج الكلبي لامرأته:

عجوزٌ ترجى أن تكون فتية ... وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها ... ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر
أقول وقد شدوا عليّ حبالها ... ألا حبذا الأرواح والبلد القفر

فـقـالـت:

ألم تر أن الناب تحلب علبة ... ويترك ثلب لاضراب ولا ظهر

وقال فيها:

قد زوجوني عجوراً متبعاً رجلاً ... قد كنت قبلك حذرت المتابعين

فـقـالـت:

شئت الشيوخ وأبغضتهم ... وذلك من بعض أفعاليه

تري زوجة الشيخ مغبرة ... وتمسي لصحبته قاله

فلا بـارك الله في عـرـده ... ولا في عظام استه البالية

وقالت بنت عبد الله بن عتاب من عنزة لزوجها رجاء بن خيثمة بن عتاب:

الحمد لله الذي أهانكا ... وجعل الذريح من أخدانكا

ببلدة تبلي بها أكفانكا

فقال يجيبها:

قد جعلتني وذريحاً نـدـين

وهي عجور لا تساوي فلسين

مـحـترقـين مـن نـحـاس نـحـسـين

كسلعة السوء تباع في الدين

فـقـالـت:

تركنتي ببلسد طموس

ليس بهاجن ولا أنيس

إلا بقايا الحيز والحليس

يا ليتته في حفرة مرموس

وقالوا : كانت تحت رجل من أريم بن ثعلبة بن يربوع يقال له أبو مرحب

بنت عم له فقالت:

يموت الرجال الصالحون ولا أرى ... أبا مرحب إلا شديد الجوانح
أطعن فلا يعصين أمري فلا يروا ... إذا رجعوا إلا ديار الجوامح
فإني سأهديكن في كل سبب ... تهادي به أيدي القلاص الطلائح
فقال أبو مرحب مجيباً لها:

لعمري لقد غاليتها فاشتريتها ... وما كل مبتاع من الناس رابح
رأيت لها أنفأ فبيحاً يشينها ... وعلباء سوء لم تزنه المسائح
وقالت هند بنت عصم السدوسية وكانت عند ربيعة بن غزالة الكندي لامرأة أبيها
يزيد بن ربيعة بن غزالة:

أيزيد قد لاقيت منكراً ... عجلت بأملك مدخل القبر
هوجاء جاهلة إذا نطقت ... ليست كعاباً بضة الخدر
سوداء ما تنفك متأفة ... ملأى مضببة على غمر
ما كان جدك في النساء بذى ... فرع عشية طيرها يجري

وقالت أم الأسود الكلابية تهجو زوجها:

سأنذر بعدي كل بيضاء حرة ... منعمة خود كريمة نجارها
قصير قبال النعل يضحى وهمه ... قريب ويمسي حيث يعشيه نارها
إذا قال قد أشبعني بات راضياً ... له شملة بيضاء خاف حمارها
يرى الطيب عاراً أن يمس ثيابه ... أو المسك يوماً إن علاه صوارها

ولكنه من رطب اخثناء صنانه ... إذا أمرعت بالكف منه ديارها
وطير بذيال يرى الليل متنه ... لناقته حتى يحين اذكارها
بعيد المدى يقضي الكرى فوق رحله ... إذا القوم بالمومة حار شرارها
لعمر أبي ما خارلي أن يبيعني ... بأبصرة إذ قحمته عشارها
فوالله لولا النار أو أن يرى أبي ... له قوداً أو أن ينالني عارها
لقد نازعت كفي المهند ضربة ... وكان عليه خبلها وشنارها

وقالت حميدة لروح بن زنباع إن فيك لأربع خصال ما يسود عليهن أحد قال
وما هي لا أباك فوالله إن الخصلة الواحدة لتفسد الرجل السيد قالت أما الواحدة
فإنك من جذام وأما الثانية فإنك جبان وأما الثالثة فإنك غيور وأما الرابعة فإنك
بخيل قال روح أما قولك أني من جذام فحسب المرء أن يكون من صالح من هو منه
"أي من صالح قومه" وأما قولك اني جبان فإن مالي نفس واحدة ولو كان لي
نفسان جدت بإحداهما وأما قولك أني غيور فوالله اني لجدير بالغيرة على الورهاء
اللئيمة مثلك وأما قولك أني بخيل فوالله ما في مالي فضل عن قومي ولكن اذهبي
فأنت طالق.

وأنشد أبو غسان لامرأة تهجوا امرأة أبيها:

جازبها وهي تبكي الأهلا ... تكحلهمما إلى التمام كحلا
من سهر مضي يذدن هملاً ... آماق أجفان حذلن حذلاً
يا رب رب الراقصات ذملاً ... يزحلن بالأرجل زحلاً زحلاً
يطوون سيراً شركياً سهلاً ... أبعث عليها تيحاناً صلاً
شختاً لطيفاً كالقضيبي علا ... يحل منها بالإصبعين حلاً

حل الفليجات سملن سملًا

وقالوا : مدح قتادة بن مغرب يزيد بن المهلب فأعطاه وملاً يديه وتزوج بنت

يزيد الحنفي فلما دخل بها ، كرهها من ليلتها فلما أصبح طلقها وقال:

تجهزي للطلاقِ وارتحلي ... ذاك دواءٌ للرامح الشمس

لليلةٍ حين بنت طالقة ... ألد عندي من ليلة العرس

بست لديها بشر منزلةٍ ... لا أنا في نعمةٍ ولا فرسي

هذا على الخسف لا قضيم له ... وبت ما إن يسوغ لي نفسي

قال فالحقها بأهلها وبلغها قوله فشدت عليها ثيابها وأتت باب يزيد بن

المهلب فاستأذنت عليه فدخلت وفتادة عنده فقالت تصف عذابها معه من نتن

رائحة فمه :

حلفت فلم أكذب ولا فكل ما ... ملكت لبيت الله أهديه حافية

لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها ... مخافة فيه أن فيه لداهية

وكيف اصطباري يا فتادة بعدما ... شمتت العدى من فيك أدمى سماخيه

فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب ... فتادة إلا ريسح مسكٍ وغالية

وقال لقيط بن بكير : قالت طارقة وهي مولاة لأهل بيت من امرء القيس

بن زيد وكان تزوجها مولى لبني كلب يقال له ثابت وكنيته أبو الفصيل فخطب

مولاة أخرى من مواليات بني امرؤ القيس وكانت تتهم بالسحر وكان يقال لها نجود

وبلغها ذلك فجعلت تقول:

لا خاربني لأبي الفصيل ... ولا وقاه عشرة الذلول

بدل مني أخبث البدول ... هوجاء مقاء كشبه الغول

تـحـمـل رـفـعاً وـاسـع الفـضـول ... مـثـل إـهـاب المـيـحـة المـبـخـول

بـيـتٍ فـيـه الذـئـب أـو يـقـيل

وقالوا : كان يزيد بن هبيرة المحاربي أول أميرولي اليمامة لعبد الملك بن

مروان فتزوج امرأة من ولد طلبة بن قيس بن عاصم المنقري فقالت:

للـبـس عـبـاءة وتـقـر عـيـنـي ... أـحـب إلـيّ مـن لـبـس الشـفـوف

بـكـر يـتـبـع الأـطـعـان صـب ... أـحـب إلـيّ مـن بـغـل زـفـوف

وـبـيـتٍ تـخـفـق الأرواح فـيـه ... أـحـب إلـيّ مـن قـصـر مـنـيـف

وقالوا : تزوج رجل من بني جسر امرأة من ولد طلبة بن قيس وكان الرجل

دعياً فرفع إلى يزيد بن هبيرة ففرق بينهما وقالت وهي عنده:

لـقـد كـنـت عـن حـجـر بـعـيـداً فـسـاقـنـي ... صـرـوف النـوى والسـابـقـات إلـى حـجـر

يـقـولـون فـرـش مـن حـرـيـر وإـنـما ... أـرى فـرـشـهـم عـنـدي كـحـامـية الجـمـر

وإـنـي لـأـسـتـحـي تـمـيـماً وغيـرـها ... مـن إـنـكـاحـهـم إـيـاي عـبـد بـنـي جـسـر

مـحـلـل الزـوجـات :

ومـن الزـوجـات مـن تـوقـع بـزـوجـهـا فـي مـهـاوي الضـيـق بـكـثـرة مـطـالـبـها ، مـثـل اـمـرأة

أبي دلامة التي أمرته أن يطلب إلى الخليفة المنصور أن يهبه مالا ومزرعة. فذكر

أبو دلامة ذلك للخليفة المنصور في قصيدته الشهيرة:

إـن الخـلـيـط أـجـد البـيـن فـانـتـجـعـوا وـزودوك خـبـالاً، بـئـس مـا صـنـعـوا

إـلى أن قال فـيـها يـذـكـر سـوء خـلـق زـوجـتـه ويـصـف جـسـمـهـا وـصـفاً مـشـيـناً ويـصـف

إـلـحـاحـهـا عـلـيـه ، فـيـقـول :

لـا والـذي يـأـمـير المـؤـمـنـيـن قـضى لـك الخـلـافـة فـي أـسـبـابـهـا الرِّفـعُ

مازلتُ أخلصها كسبي فتأكلهُ دوني ودون عيالي ثم تضطجُ
شوهاء مشئية في بطنها بجرُّ وفي المفاصل من أوصالها فدعُ
ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتدع
فاخرنطمت ثم قالت وهي مغضبة أنت تتلو كتاب الله يا لكعُ؟!!
أخرج لتبغ لنا مالاً ومزرعة كما لجيراننا مال ومردعُ
واخدع خليفتنا عنا بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدع

فضحك المنصور، وقال لرجاله: أرضوها عنه ، واكتبوا لها ستمائة جريب
عامرة وغامرة (الجريب: قطعة معينة من الأرض، والعامرة: المزروعة والغامرة
البور)

فقال أبودلامة: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب عامرة من
الحيرة الى النجف وإن شئت زدتك!!
فضحك المنصور وقال: اجعلوها كلها عامرة !!.

البقاء للأصلح !!!

ذم الشعراء الشيب كثيراً ، ولكنهم لم يكثروا القول في ذم الصلح مع أن الصلح قد يكون داعية لقبح المنظر أكثر من الشيب ، وربما كانت قلة الشعر في ذم الصلح راجعة إلى طيبة الشعوب العربية في تغطية الرؤوس بالعمائم وما يقوم مقام العمائم من أغطية فلم يكن منظر الصلح من المناظر المألوفة أمام أعين الشعراء النقاد بعكس الشيب الذي يظهر في السوالف وفي القفا وفي اللحى والشوارب ، فالصلح مستور ، والشيب - إن لم يصبغ - لا يمكن ستره .

ولما كانت اللغة العربية تتميز بدقتها البالغة في تحديد معاني الألفاظ المتقاربة ، فإننا نجدها قد فرقت بين الألفاظ التي تعبر عن حالات مختلفة تكون عليها الرأس على نحو ما نراه عند الثعالبي في فقه اللغة حين فرق بين الكلمات التالية :

منتدى سوري الأندلسية

www.80054a1.net

https://www.facebook.com/book4all.net

- الأنزع : وهو الذي انحسر الشعر على جانبي جبهته .
- الأجلع : وهو الذي زاد انحسار الشعر على جانبي جبهته إلى حد أكبر .
- الأجلي (أو الأجله) : وهو الذي بلغ انحسار الشعر في نصف رأسه .
- الأصلح : وهو الذي زاد انحسار الشعر عن نصف رأسه .
- الأخص : الذي لم يبق في رأسه شعر .

- الأقرع : الذي ذهب بشـرته مع شعره .

ولكن وصف الرأس بالصلع فيه قدر من الفكاهة لما يثيره هذا الوصف من المشاعر الضاحكة وخصوصاً إذا اقترن الصلع بالشيب فأصبح ذلك دليلاً على تقدم العمر بالإنسان وزهد النساء فيه كما قال رؤبة واصفاً دهشة محبوبته سلمى من صلعه واستنكارها أن يكون هذا الصلع إلا امتداداً للجبين :

قال سُلَيْمى : والكبير يصلع ؟ ما رأس ذا إلا جبينٌ أجمعُ !

ويقال للرأس أصلع ، ويقال كذلك هامة صلعاء وجمعها هام صلُع كما ورد في قول عمرو بن معد يكرب :

وَسَوْقٌ كَتِيبَةٌ دَلَفَتْ لِأُخْرَى كَأَنَّ رُهَاءَهَا رَأْسٌ صَالِحُ

ويوصف اليوم الشديد الحر بأنه يوم أصلع كما جاء في الشعر :

يا قِرْدَةً خَشِيتُ عَلَى أَظْفَارِهَا حَرَّ الظَّهِيرَةِ تَحْتَ يَوْمٍ أَصْلَعِ

وأما المرأة التي ذهب شعرها فقد يقال لها : صلعاء ، زعراء ، قزعاء ، والصلعاء

اسم للداهية الشديدة ، ولهذا اعترض بعض علماء اللغة على وصف المرأة بها ، ومالوا إلى وصفها بالزعراء والقزعاء .

وقد تذكر الشعراء بالصلع إذا اقترن بكبر السن واحدواب الظهر وبيضاض ما

تبقى من شعر الرأس واللحية ، فهذا عبد الرحمن بن أبي شريح الأنصاري من

الخطباء والشعراء المعمرين (ت : ١٠٠ هـ)

يقول : إن قيامة الرجل تقوم إذا حدثت به ثلاث علامات :

إذا رأيت صـلـعاً في الهامـة
وحـدباً بعد اعتـدال القامـة
وصار شعر الرأس كالثـغـامة
فأئـأس من الصـحة والسـلامة
وعـدد إلى التوبـة والندامـة
فقد - عليك - قامت القيامة

(الثغام : نبات في الجبال يبيضُ إذا يبس ويشبه به الشعر الأشيب)
وهذا شاعر آخر يجزع من الصلع ويرى أن الشيب أفضل منه لأن الشيب
يمكن ستره بالخضاب ولكن الصلع لا علاج له :

في الشيب عافية ما لم يكن صلعُ فإن ذاك وذا بلوى إذا اجتمعا
لئن المشيب إذا ما شئت يستره لئن الخضاب فماذا يستر الصلعا ؟

وهذا أبو الحسن المدني - وقيل المزني - أصابه الصلع وهو ابن أربعين سنة

فراح ينوح :

فهل ترى بعد المشيب والصلعُ
لابس ثلاثين وعشرين طمعُ ؟
يرقّعُ والدهر يغري ما رقعُ
فهل ترى يُغني الحذار والجزعُ
إذا الفتى عاين شيئاً قد طلعُ
كأنما عاين هول المطلعُ

أي أنه يائس من أي أمل بعد أن غزا الشيب ما تبقى من رأسه وداهمه الصلغ فلم يعد ينفعه الحذر بعد أن ظهرت عليه إمارات تقدم العمر ولم يعد فيه مطمع للغواني .

ويضيف علي بن الجهم رجلاً قضى عمره معاقراً للخمر حتى إذا ما أصابه الشيب والصلغ ورأى صورته منعكسة على صفحة الخمر في الكأس أحس بدنو الأجل فأقلع عن الخمر في الحال :

وَعَطَّتْهُ الكأسُ أُرْتَعَهَا
زجرتـه فـسـانـتـهـي عـنـهـا ولـو
وأرثـهـ الشـيـبَ فـيـهـا والـصـلـغُ
غـيـرـهـا يـرـدـع عـنـهـا ما ارتـدـعُ

وينظر ابن الرومي إلى الصلغ نظرة إلى الصلغ نظرة أخرى فهو يصف الرأس الصلعاء بأنها تشبه المرأة في لعانها وبريقها فهو يهجو قائلاً :

يا صـلـعـةً لأبـي حـفـصٍ مـمـرـدةً
كأن سـاحـتـها مـرأة فـولـاد

ومع ذلك فهناك من الشعراء من نظروا إلى الصلغ وقرينه الشيب على أنهما من علامات الهيبة والمكانة فهذا شاعر يصف ممدوحه بالشجاعة والحكمة فيقول :

“ يلوح في حافات قتلاه الصلغ ”

أي أنه يتجنب الأوغاد ولا يتقل إلا الأشراف من الناس المعمرين لأن أكثر الأشراف – كما يقول ابن منظور – وذوي الأسنان صلغ كقول الشاعر :

صفحات مـجمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

فقلتُ لها لا تنكريني فقلماً يسود الفتى حتى يشيبَ ويصلحاً
فهو يعاتب حبيبته التي أنكرت شيبه وصلعه ويؤكد لها أن الشيب والصلح
علامتان من علامات الهيبة التي ترشح أصحابها للعز والسيادة .

وجع في ظهر شاعر !!..

الشعراء من أكثر الناس حبا في الشكوى من زوجاتهم ، أو من عشيقاتهم ، أو من الأطباء ، أو من الفقر وسوء الحال ، أو من سوء أحوال منازلهم وكثرة ما بها من براغيث ، أو تداعي بيوتهم الآيلة للسقوط ، أو من فساد الزمان بوجه عام حين يعجزون عن معرفة سبب آلامهم .

ولكننا هنا سنقف مع طائفة خاصة من الشعراء الشكائيين البكائيين وهو أولئك الذين بلغوا من العمر أرذله ، وطال عليهم الأمد كما طال علي لُبد – أحد نسور لقمان يضرب له المثل في طول العمر – فصاروا يشبكون من ضعف أبصارهم أو تحول أجسادهم أو تهرؤ عظامهم ، ولكن أكثر شكواهم طرافةً هي الشكوى من انحناء الظهر بوصفه أوضح دليل على الشيخوخة والاقتراب من محطة الوصول المرعبة (الموت) فهذا أبو حية النميري يقول إنه كان يمشي على رجلين فأصبح – بعصاه – يمشي على ثلاثة أرجل :

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ أوجعني ظهري فقامتُ قيام الشارب السكر
وكنْتُ أمشي على رجلين معتدلاً فصرتُ أمشي على أخرى من الشجر

وهذا أعرابي من بني تميم يرى أنه لا عيب فيه يمكن أن يشينه سوى هذا الوجع الدائم في ظهره الذي جعله يألف عصاه فتبدو عليه بسببها علائم الشيخوخة وإمارات الزمن :

وما بي من عيب الفتى غير أننى ألفتُ قناتي حين أوجعني ظهري

وهو يرى حمل العصا عيباً من عيوب الفتى لأن العادة أن حامل العصا
محفوف بالوقار فلا يُستحبُّ منه أن يلهو أو يتغزل كما قال شاعر آخر :
إذا دببت على المنسأة من كبرٍ فقد تباعد عنك اللهو والغزلُ
المنسأة : العصا

وكما قال حين تقدمت به السن :
رأيت الغانيات نفرن مني نفور السوحش من رامٍ مفيقٍ
رأين تغيري وأردن لَدُنَّا كفصن البان ذي الفنن الوريقِ
فالشعراء يشغلهم كثيراً أن تزهد فيهم النساء بسبب كبر السن حتى أبو
العتاهية المشهور بزهده يقول متحسراً :
عريتُ من الشباب وكان غضاً كما يعرى من الورق القضيبُ
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ
ويفسر لنا عروة بن الورد سر كراهية كبر السن واستعمال العصا فيقول : إن
الإنسان إذا تقدمت به السن واعتمد على العصا أمن أعداؤه شره لأنه لم يعد قادراً
على القتال ، وزهد فيه أهله لأنه أصلح عبئاً عليهم في خدمته ، يقول عروة متذكراً
مصيره :

أليس ورائي أن أدب على العصا فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي ؟
وهذا الأعشى بن ربيعة يتحسر على حاله فيقول مخاطباً زوجته أو حبيبته إن
جاز أن نتخيل أن له حبيبة في هذا العمر : إنني وإن كنت الآن منحنى الظهر أسير
متوكئاً على عصاي ، فطالما مشيتُ مشية الشباب المختال الذي يسير ملتوياً من

شعوره بالقوة حتى لكان بع عرجاً ، ولكن الزمن ما زال يساومني وأوساومه حتى
أخذ شبابي :

فأما ترينى حليف العصا فقد كنت من وثبة خامعاً
فساومنى الدهر حتى اشترى شبابي وكنت له مانعاً
والشاعر المخضرم لبيد بن أبي ربيعة كان من أكثر الشعراء معاناة من آلام
ظهره الذي انحنى بسبب تقدم عمره ومما يروى له عندما بلغ عشرين ومائة سنة قوله :
أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تُحني عليها الأصابع ؟
أخبر أخبار القرون التي مضت أدبٌ كاني كلما قمت راكحاً
وهذا شاعر آخر أصابه الكبر وحنى ظهره ، فهو يسير كأنه صياد يتحين
الفرص لصيد ثمين ، فهو يسير منحنيًا مقترباً من الأرض حتى لا تنتبه الفريسة :
حننتني حانيات الدهر حتى كأني حابلٌ يدنول لصيدٍ
والعرب تعبر عن اعتدال قامة الرجل "بالقناة" وهو تشبيه دقيق بالقناة إلى
جانب اعتدالها قوية صلبة ، ولذلك نرى الشعراء الذين التوت ظهورهم يعبرون عن
هذا المعنى مستخدمين ذلك التشبيه السائد فيقول أحدهم :

قَصَرَ الحَوَادِثُ حَطْوَةً فَتَدَانِي وَحَنَيْنَ صَدْرُ قَنَاتِهِ فَتَحَانِي
صَجِبَ الزَّمَانُ عَلَى اخْتِلَافِ فَنُونِهِ فَأَرَاهُ مِنْهُ شِدَّةً وَلَيَانَا
مَا بِالْشَيْخِ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ أَنْضَى ثَلَاثَ عُمَائِمِ أَلُونَا
سَوْدَاءَ دَاجِيَةٍ وَسَحَقَ مُقَوِّفٍ وَأَجَدَّ أُخْرَى بَعْدَ ذَاكَ هِجَانَا

والعمائم الثلاث التي أفناها ذلك الشيخ مختلفة الألوان كناية عن ثلاثة أحوال لشعر رأسه حين يكون أسود فاحماً ثم مختلط البياض بالسواد في أول الشيخوخة ثم ناصع البياض حين يغمره الشيب غمراً .
وقال عمرو بن قميئة :

كانت قناتي لا تلين لغامز فألأنها الإصباح والإمساء
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ليُصِحَّنِي فإذا السلامة داءٌ

وهل يرد الدعاء العمر الذي ولي ؟ ويدفع الشيخوخة التي هجمت ؟
ويروون أن عبد الملك بن مروان قال لرجلٍ من العمرين يدعى العريان بن الهيثم يوماً : كيف تجدك يا عريان ؟

قال : أجدني يا أمير المؤمنين قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسود ، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، ولان مني ما كنت أحب أن يشتد ، ثم أنشد راجزاً :

سلني أنبئك بآيات الكبر نوم العشاء وسعال بالسحر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وسرعة الطرف وتحميج البصر وتركك الحساء من قبل الظهر

والناس يبلون كما تبلى الشجر

(التحميج : تصغير العين لتمكينها من الرؤية ، أو إدامة النظر ففتح العينين)

فهذا المعمر يعدد علامات الكبر على هذا النحو :

١- النوم المبكر عند آذان العشاء .

٢- السعال الدائم قبيل الفجر .

٣- الأرق طول الليل .

٤- قلة الأكل .

٥- سرعة انغلاق العين وانفتاحها.

٦- الزهد في النساء .

وهذه العلامة الأخيرة في هذه الأبيات يرويها الرواة بروايتين الأولى التي اخترناها والتي تدل على أنه من شدة زهده في النساء يتغافل عن المرأة الحسناء من قبل الظهر، والرواية الثانية تجعل الظاء طاء وتدل على أنه يهرب من معاشرة المرأة من قبل أن تتطهر من حيضها .

ويبكي شاعر آخر على نهايته المؤلمة وقد بلغ السبعين من العمر ولا يرى لنفسه علاجاً إلا الموت بعد أن بلى شبابه وتقوس ظهره ولعبت به الأيام واقترب من لقاء خالقه :

إذا كانت السبعون سنك لم يكن لدائك - إلا أن تموت - طبيبُ

وإن امرأً قد سار سبعين حجَّةً إلى منهلٍ من ورده لقريبُ

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خولتُ ولكن قل : عليّ رقيبُ

إذا ما انقضى القرنُ الذي أنت منهمُ وحُلِّقْتَ في قرنٍ فأنت غريبُ

وهذا أعرابي آخر أكثر واقعية فهو يصف حال العجوز وصفاً دقيقاً وكأنه يشخص لنا حالة مرضية مستعصية فهو يقول : إن الرجال إذا صاروا جدوداً - أي

صار لهم بنون وحفدة – واضطربت أجسادهم ، وأصبحت الأمراض ضيوفاً دائمة
التردد عليهم فإنهم يشبهون – والحالة هكذا – زروعاً أينعت وحن قطاها :
إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامها تعادها فهي زروع قد دنا حصادها
وهذا شاعر يشكو انحناء ظهره نتيجة إسرافه على نفسه في شبابه فيقول
متندما :

هزئت عميرة إذ رأت ظهري انحنى وذؤابتى علت بماء خضاب
لا تهزئي مني عمير فإنني أنفقت فيكم شرطي وشبابي
ولم تقتصر شكوى انحناء الظهر على الرجال من الشعراء ، بل نجد نساء
شواعر يشكون انحناء ظهورهن مثل الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب التي ذكرها ابن
دحية في كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب وقال: أديبة شاعرة جزلة مشهورة
تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها.
وعمرت عمراً طويلاً، سكنت أشبيلية وشهرت بها بعد الأربعمئة.
وذكرها صاحب المغرب ، وقال : من أهل المائة الخامسة. ومن شعرها وقد
كبرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهلهل؟
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصي وتمشي بها مشي الأسد المكبل!!

هؤلاء الشعراء.....فضحوا ضيوفهم!!!

من فنون اللياقة المعاصرة (الإتيكيت) أن يتناول الإنسان طعامه بصورة مقبولة اجتماعياً ، غير منفرة لجلسائه على المائدة ، بحيث لا يصدر منه - في أثناء الأكل - صوت ، ولا ينتثر من فمه طعام هنا وهناك ، ولا يمد يده إلى ما يكون أمام غيره من طعام .

وهذه الآداب العصرية ، سبق بها الإسلام ، بل سبقت بها الطبيعة العربية ذات الذوق المرفف ، والحس النبيل .

ومن هنا فقد تفنن الشعراء العرب - قديماً وحديثاً - في نبذ الشره ودم الانكباب على الطعام بصورة حيوانية .

وبالغوا في السخرية من كل أكل ضخم الأشداق ، واسع الأمعاء ، يجوع بعينه قبل أن تجوع معدته ، ويهجم على الطعام كأنه يخوض حرباً ضروساً ولسان حاله يردد مقولة شكسبير (أكون أو لا أكون تلك هي القضية!) غير أنه يحورها لتصبح : أكل، أو لا أكل ، ذلك هو الفيل في هذه الموقعة التاريخية الحاسمة !! . فهو يرى كل وجبة - في غير داره - حرباً لا بديل أمامه إلا كسبها وسحق خصومه فيها .

ومن الصور الساخرة التي جادت بها قريحة ابن الرومي - وهو المعروف بإقذاعه في الهجاء وتفننه في السخرية - صورة ذلك البصري الأكل الذي يهجم على الطعام حريصاً على افتراسه كأنه وكيل أيتام ، أولص قبور ، وهذا الأكل لا يخشى

أن يهجو أحد لأنه يهدد الإنس والجن والطير والوحش . وإنه ليبلغ من الشره أن لو حاول بلع جبال تهامة لبلغ من ذلك ما يريد .

يقول ابن الرومي :

وأما يد البصري في كل صفحة	فأقلع من ميل وأغرف من رَفَش
يبادر في قلع الطعام كأنه	وكيل يقيم أو مريب على نبش
سأنقش سطرأً بيناً في جبينه	بأن له فصّي زجاج بلا نقش
سهوتُ أقبِلوني فإني مغفلٌ	وإن له شأنًا أجَلّ من الحرش
أأوعده بالشعر وهو مسلطٌ	على الإنس والجنان والطير والوحش؟
ألم أره لو شاء بلع تهامةٍ	وأجبالها طاحت هناك بلا أرش؟

ويستخدم ابن الرومي في وصف صاحبه مفردات فارسية - وهذا معهود في شعره إلى حد يمكن رصده - فيصف بلاعيمه بأنها (دهنشار) بمعنى فم الفسق أو الفحش أي أنها معيبة ، وأنها (دُرْدُور) أي تشبه دوامة الماء التي تدور حول نفسها فيقول :

أعذني من تلك البلاعيم إنها	دهنشار والدُرْدُور يا صاحب العرش
يغير على مال الوزير وآله	فينفش في رغفانهم أيما نفش

ومن الحيل الخبيثة لهذا الرجل الأكل الشره ، أنه كلما رأى صديقاً له سارع يشكو إليه آلام أضراسه وأسنانه التي أخنى عليها الدهر فضعفت وتكسرت ويحذرنّا ابن الرومي من أن تنطلي علينا تلك الحيلة الخبيثة . فما هي إلا ستار :

على أنه ينعي إلى كل صاحبٍ ضروساً له تأتي على الثور والكبش
يخبّر عنها أن فيها تنلُّما وذلكم أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحى عند نقرها وتجريشها تأتي على الصلب والهش؟
فلا تقبلوا ذاك التفارق واحذروا شباه ، ولو أمسى مسجى على نعش

وننتقل من ابن الرومي إلى ابن هانيء الأندلسي الذي نراه يخصص قصيدة كاملة في وصف صاحب له أكل جشع كأنما تسكن الثعابين فمه ، فهو لا يمضغ طعامه بل يزدرده ازدراداً . فإذا فتح فمه هالك ما ترى فيه من سعة كأنه ميدان من الميادين ، وليس فماً كالأفواه المعهودة .

إن لهاته (اللحمية المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) وهي مفتوحة تشبه جهنم التي يقذف إليها بالحجارة والكفار فتقول هل من مزيد؟ :

انظر إليه وفي التحريك تسكين كأنما التقيمت عنه التنانين
يا ليت شعري إذا أومي إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وجارح ، لا يضرمها جهنم قذفت فيها الشياطين

ويرى ابن هانيء في فكي صاحبه زوجاً من الطواحين ، أو مخزناً من مخازن الفراعنة التي كانوا يكдسون فيها الأسلحة الفتاكة ليحاربوا بها رسل الله :

تبارك الله ما أمضى أسنّته كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين

ويصف لنا ابن هانئ طريقة صاحبه في الأكل : فهو يمسك بالحمل المشويّ فيقذفه في جوفه كأنه يونس حين التقمه الحوت ، ويمسك الجداء (جمع جدي صغار الماعز) المشوية فيلف أيديها مع أرجلها فيقذفها في جوفه كما تفعل الذئاب أما طريقته في التهام البط والإوز فعجبية حقاً ، فهو كالشاهين (الطائر المفترس) يهوي عليها فيأخذها أحاداً ومثنى ، وأصوات أسنانه وهي تطحنها تعزف ألحان الطرب والتنغيم :

كانما الحمل المشوي في يده	ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها	كانما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة	كانما اختطفتهن الشواحين
يخفض الوزن من قرن إلى قدم	وللبلاعيم تطريب وتلحين

ثم يحذر ابن هانئ الناس من صاحبه الأكل بعد أن فزعت من مجالسته البغال والحمير وأهابت بأصحابها أن يهربوا قبل أن يفترسهم ذلك الطاحون المهلك الذي لا يرتوي ولو شرب نهر الفرات ولا يشبع ولو أكل كل ما حملت سفينة نوح :

قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا	وجاذبتنا الأعنات البراذين
نصحتكم فخذوا من شذقه وزراً	أولا فأنتم سويق فيه مطحون
فليس ترويه أمواه الفرات ولا	يقوته فلك نوح وشو مشحون

وفي تراثنا الشعري القديم قصيدة بديعة لا مثيل لها في بابها ، رواها لنا الثعالبي في يتيمة الدهر، وهي للشاعر الماجن أبي القاسم الواساني وتقع في ١٩٦ مئة وستة وتسعين بيتاً من روائع الشعر العربي ، وفيها يصف نكبة حاقت به في وليمة

عملها في داره التي يقيم فيها في قرية قرب مدينة دمشق فناله من أصحابه أذى كبير
يفتتحها بقوله :

من لعين تجود بالهملان ولقلب مدأله حيران
يا خليلي أقصرا عن ملامي وارثيالي من نكبتني وارحماني
من عذيري من دعوة أوهنت عظمي وهدت بهولها أركاني؟

وفي أكثر من عشرين بيتاً يصف أبو القاسم الواساني بواكير المؤامرة ، حين
وجه الدعوة لأصحابه ، فلم يقصروا في تلبيتها على أتم صورة فدعوا جميع معارفهم
من سائر البلاد : من الروم وصقلية والسند والهند وبلغاريا والبلقان وبادية الحجاز
وبادية نجد ومن سائر الملل والأديان وأجاعوا بطونهم ثلاثين يوماً ثم جاءوا إليه بهذا
الجيش العرمرم ذي الأسنان المسنونة :

جمعوا لي الجموع من خيل جيلا ن وفرغانسة إلى ديلمان
ومن الروم والصقالب والتر لك وخلقا من بلغروالان
ومن الهند والطماطم والبر بروالكيلجوح والبيلقان
لم يبقوا ممن عدت من الآ فاق من مسلم ولا نصراني
والبوادي من الحجاز إلى نجد عد معديها مع القحطاني
كل ضرب فمن طوال ومن حد ب قصار والحوال والعوران
وشيوخ مثل الفراخ وشبا ن رحاب الأشداق والمصران
معد جوعت ثلاثين يوماً بسلام شاك من الأسنان

ويصف لنا الواساني شعوره لحظة قدومهم إليه ومباغتتهم إياه فلما رأهم كاد
يغـمى عليه بمـجـرد رـؤـية هـذا الجـيـش الجـرار من الجائعين :

ما شعرنا ونحن من آمن العالم إلا بصرخة الديدبان
لست أنسى مصيبي يوم جاءوني وقد غصّ منهم الواديان

ويصف ما كان في بيته من أخشاب للتدفئة ومن زروع وضروع وألبان ولحوم
وشراب راح ضحية تلك الهجمة الشرسة لهذا الجيش العرمم .

وقد كان لهذا الجيش من الضيوف زعيمان أحدهما من بني هاشم :

هونمس الدجاج والبط والأوز وذئب النعاج والخرفان

والثاني أخوه واسمه الفضل وهو ضخم الجثة لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه

أمام المائدة :

لست أنساه جاثياً جاحظ العي	من عبوساً في صورة الغضبان
كالعقاب الغرثان يقتنص اللح	م ويهوي إلى طيور الخوان
كلما شقق الفراريج شقق	ت لغيظي من فعله قمصاني
وهو في أمره مُجِدُّ رخيٍّ الـ	بال لم يعنه الذي قد عناني
مجرهد كالسوس في الصوف في الصـ	يف بقلب خال من الإيمان
قلت قل لي يا ابن البشر ما شأ	نك من بين من غراني وشاني
ليس هذا من شهوة الأكل هذا	من طريق البغضاء والشنآن

وينقل لنا الواساني حواراً دار بينه وبين أحد هؤلاء الذين ينكبون على الطعام

والشراب بلا هواة فيقول :

قلت للفيلسوف لما غدا في الـ أكل أعني فتى أبي عدنان
واستحث الكؤوس صرفاً بلا مز ج مكباً كالهائم العطشان
ليت شعري أمن رسائل بقرا ط تعلمت ذا وسجع الكهان
أنت تزداد يا خليلي بهذا الـ فعمل علماً بالعالم الروحاني

ويصف رجلاً آخر من بلاد (فرغانة) [أوزبكستان حالياً] فيقول إنه مع
عجمة لسانه أفصح من أفصح خطباء العرب : قس بن ساعدة وسحبان بن وائل غير
أن فصاحته التي يقصدها شاعرنا إنما هي في الأكل لا في الخطابة :

ثم لا تنس ما لقيت وما مر لشؤمي من عسكر الفرغاني
أعجمي اللسان أفصح من قـ سـ إذا ما نشأ ومن سحبان

ويصف جسم ذلك الرجل فيقول إنه طويل ضخم قليل الفهم والعقل ويدعو الله
ألا يميته حتى يرى ذلك الرجل وقد هذه المرض فأخذ من طوله شبرين :

رجل كالفنيق قدم بلالـ ب طويل في صورة الشيطان
يققأ كالعمود يستعذب الصفـ ع ورأس أصم كالسندان
زائد الخلق ناقص العقل والديـ ن غليظ القذال كالقلتان
يبلغ الطيبات بلعاً بلا مضـ ع ويحسوا النبيذ كالثعبان
لا تمثني حتى أراه وقد قصـ ر من فضل طوله شبران

ثم يصف آثار تلك الغزوة على وجه الإجمال فيقول إن ضيوفه تركوه فقيراً
جائعاً عارياً لا يجمع محدثه وإذا سمع فإنه لا يفهم :

أفقروني وغادروني بلادا ر . ولا ضيعة ، ولا بستان
حبروني ودلهوني فقد صر ت بليداً كالذاهل السكران

أسمع اللفظ كالطينين لسهوي وهو لفظ يجري لغير معاني
تركوني يا قوم أفقر من فر خ وأعرى ظهراً من الأفعوان

ويقدم لنا الواساني إحصائية أو كشف حساب بما تم إفناؤه في تلك الوليمة
من خبز ودقيق وبن ومعز وضأن ودجاج وأسماك وبيض ومخلل وتفاح وغير ذلك
فيقول :

أكلوا لي من الجرادق ألفيد	من بين تشنقه العارضان
أكلوا لي أضعافها غير مسطو	رومالوا إلى سميد الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثيد	من قريصاً بالخل والزعفران
أكلوا ضعفها شواء وضعفد	ها طبيخاً من سائر الألوان
أكلوا لي تبالة تبلت عق	لي بعشر من الدجاج السمان
أكلوا لي مضيرة ضاعفت ضر	ي بروس الجداء والعصبان
أكلوا لي كشيكة قرحت قل	بي وهاجت لفقدها أشجاني
أكلوا لي سبعين حوتاً من النه	ر طرياً من أعظم الحيتان
أكلوا لي عدلاً من المالح المش	وي ملقى في الخل والأنجدان
أكلوا لي من القريشاء والبر	ني والمعلقي والصرفان
ألف عدل سوى المصقر والبر	دي واللؤلؤي والصيحاني
أكلوا لي من الكوامخ والجو	ز معاً والخلاط والأجبان
ومن البيض والمخلل ما تع	جزع عن جمعه قري حوران
فتتوا لي من السفرجل والت	فاح والرازقي والرممان
والرياحين ما رهنست عليه	جبتي عند أحمد الفكهاني

درسوا لي من البنفسج والنر جس ما ليس مثله في الجنان
ذبخوا لي بالرغم يا معشر الننا س ثمانين من معيز وضان
ما كفاهم ما مر من غنم القر ية حتى أخنوا على الثيران
ذبخواها والدمع يجري على خد ي انسياباً مثل انسياب الجمان
أكلوا كل ما حوته بميني وشمالي وما حوى جبراني

وتكون المفاجأة في نهاية الوليمة أليمة حقاً حيث يقول الواساني :
ثم لما أتوا على كل شيء ختموا محنتي بكسر الأواني

شعراء ظلمتهم ألقابهم !!

الألقاب كما قال العلماء ثلاثة:

١. لقب تشريف: مثل: الفاضل ، الأفضل ، الصالح ، الواثق

٢. ولقب تعريف: مثل: الجاحظ، والأعشى، والأعمش.

٣. ولقب تسخيف: يراد به السخرية من صاحبه .

واللقب اسم يطلق على إنسان بخلاف اسمه الذي سُمِّي به يوم ولد. ويغلب أن يكون لكل إنسان: اسم، وكنية. ولقب. فالاسم هو ما سماه به أبواه يوم مولده والكنية هي ما صُدِّرَ بأب أو أم ، واللقب هو ما عرف به وشاع عنه. فمثلاً: "أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب" يتضمن الكنية، واللقب، والاسم على الترتيب. والسطور القادمة تتناول ألقاب تسخيف لشعراء التصقت بهم هذه الألقاب ولعلها أساءت إليهم لكنها مثيرة للسخرية والاستهزاء.

وإن كان بعضهم يعمد إلى اللقب السيئ يلصق به، فيصوغه شعراً في بيت أو بيتين متفاخرًا به، فيعفي نفسه من عناء السخرية والهزاء. فمن هؤلاء الشعراء ذوي الألقاب الغريبة:

١- (الوزن) :

هذا لقب غريب لقب به عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاري. كان طبيباً وواعظاً، وفقياً، وكان معروفاً بخفة ظله، وحلاوة مجالسته، أقام ببعلبك مدة، ثم انتقل إلى القاهرة ومات بها سنة ٦٧٧ هـ وقد وردت ترجمة له في "تاريخ الإسلام"

للذهبي، و"السلوك" للمقريزي، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، و"الوافي بالوفيات" للصفدي .. وغير ذلك من كتب الطبقات.

ترجم له صاحب " المنهل الصافي " ترجمة وافية فقال :

هو عبد الله بن عمر بن نصر الله، الأديب الفاضل الحكيم موفق الدين أبو محمد الأنصاري، المعروف بالورن.

كان قادراً على النظم، له مشاركة في الطب والوعظ والفقه، وكان حلو النادرة. لا تمل مجالسته، أقام ببعلك مدة، وخمس مقصورة ابن دريد مرئية في الحسين رضي الله عنه وتوفي سنة سبع وسبعين وستمائة.

من شعره :

يا سعد إن لاحت هضاب المنحني وبدت أثيلاتُ هناك تبين
عرج على الوادي فإن ظباءه للحسن في حركاتهن سكون
وله :

حار في لطفه النسيم فأضحى رائحاً نحوه اشتياقاً وغادي
مذ رأى الظبي منه طرفاً وجيداً هام وجداً عليه في كل وادي

ومن شعره في الغزل قوله:

تجور بجفنٍ ثم تشكو انكساره فوا عجباً: تعدو عليّ وتستعدي!!
أحمّل أنفاس القبول سلامها وحسبي قبولاً حين تُسعف بالرد
تثنت فمال الغصن شوقاً مقبلاً من الترب ما جرّت به فاضل البُرد

وقال متحسراً على أيام قضاها مع بعض أحابيه، وهو يستخدم في هذين البيتين تضميناً لأسماء بعض كتب الفقه الشهيرة (المجموع)، و(المختصر). وهذا لون من التكلف الذي شاع في شعر ذلك العصر الأيوبي:

لله أيامنا والشمل منتظمٌ نظماً به خاطرُ التفريق ما شَعراً
والهَفَ نفسي على عيش ظفرت به قطعتُ "مجموعه" المختار "مختصراً"
ومن شعره يتغزل في فتى بدأت لحيته في الظهور، فشبهها بالنمل الذي يدب فوق خديه، ويحرص الشعراء على حبه والهيام به، مستخدماً التورية فالشعراء والنمل اسمان لسورتين متجاورتين من سور القرآن الكريم (٢٦، ٢٧) يقول الورن:

أنا أهوى حلوالشماثل ألي مشهد الحسن جامع الأهواء
آية "النمل" قد بدت فوق خديهِ فهيموا يا معشر "الشعراء"
وفي الجملة فإن شعر "الورن" متوسط القيمة، ضعيف التأثير.

١. (ابن خروف):

هو أبو الحسن، نظام الدين، علي بن محمد بن محمد، الأندلسي، غلب عليه لقب أن خروف، أحد النحاة المعروفين، وكان له مؤلفات في علوم عدة، منها: الأصول والمواريث (الفرائض)، ولكن شهرته في علوم النحو والعربية فاقت شهرته في غيرهما من العلوم. فقد أُلِّفَ في فنون العربية مؤلفات عديدة، منها شرحه لكتاب سيبويه، وشرحه لكتاب (الجميل) وقد درَّس في الأندلس وفي حلب، وتوفي عام ٦٠٩ هـ وترجمته في "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"عقود الجمان" لابن الشعار، و"المُعرب" لابن سعيد، و"بغية الوعاة" للسيوطي.. وغيرها.

ولم يكن ابن خروف يخجل من هذا اللقب الغريب الذي اشتهر به، بل إنه جعله مادةً يتفكه بها في أشعاره، فقد كان له صديق من كبار القوم يدعى نجم الدين بن اللهيبي دعاه يوماً إلى طعام، فاعتذر عن عدم الحضور ببيتين من الشعر ظريفيين، فالداعي هو ابن اللهيبي، والمدعو هو ابن خروف.

ولو أنه لبي الدعوة فسوف يهلك حرقاً فهو يقول:

ابن اللهيبي دعاني دعاء غسير نبيهِ
إن سرت يوماً إليهِ فوالدي في أبيهِ!!
وذات مرة كتب إلى القاضي بهاء الدين بن شداد يستهديه كساءً مصنوعاً من فراء الغنم، فقال:

بهاء الدين والدنيا ونور المجسد والحسب
طلبت مخافة الأنواء من نعيمك جلد أبي
وفضلك عالم أنبي خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره وفي حلب صفا حلبني
وحدث مرة أن كلفه القاضي محيي الدين بن الزكي الإشراف على البيمارستان النوري، وكان لهذا البيمارستان بواب اسمه "السيد" - بتشديد السين المكسورة - ومعناه الذئب، فاعتذر قائلاً إن الخروف يخاف الذئاب، فقال:

مولاي، مولاي: أجرني، فقد أصبحت في دار الأسى والحتوف
وليس لي صبر على منزل بوابه "السيد" وجدّي "الخروف"!!

ومن شعره في وصف نهر النيل حين زار مصر قوله:

ما أعجب النيل، ما أحلى شمائله في ضفتيه من الأشجار أذواح

من جنة الخلد فياضٌ على ترَعٍ تهب فيها - هبوب الريح - أرواحُ
ليست زيادته ماءً كما زعموا وإنما هي أرزاقٌ وأرباحُ
وحدث ذات مرة أن أصدر حاكم دمشق حكمًا بحبس فتى وسيم كان عليه
دين لم يسدده. فكتب إليه ابن خروف يستشفع لهذا المحبوس الجميل فقال:

أقاضي المسلمين حكمت حكمًا أتى وجه الزمان به عبوسا
حبست على الدراهم ذا جمال ولم تحبسه إذ سلب النفوسا
٣. أنف الكلب :

وهذا لقب من أسوأ الألقاب، ولعله كان شؤمًا على صاحبه، فلم أعتزله على
ترجمة إلا في كتاب الوافي بالوفيات للصفدي، واسمه خطاب بن المعلّى الليثي
الملقب بأنف الكلب، كان من أهل البصرة، ثم وفد إلى مصر، ومدح واليها علي بن
صالح بن علي الهاشمي، ويبدو أن مدحه لم يلقَ رواجًا لدى ذلك الأمير، فوعده وعودًا
لم يف بها، فهجاه بقوله:

لعليّ بن صالح بن عليّ نسب، لو يزيئُه بالسماح
ومواعيده الرياح فهل أنت بكفيك قبابض للرياح؟
٤. السُميسر:

هو أبو القاسم ، خلف بن فرج الإلبيري ، الملقب بالسُميسري، له ترجمة في
"المُعرب" لابن سعيد، و"الذخيرة" لابن بسام، وغيرهما. ومن شعره يتندر على بعض
من يحبون الأكل:

يا آكلًا كلَّ ما اشتهاه وشاتم الطَّبِّ والطبيبِ
وثمار ما قد غرست تجني فانتظر السقم عن قريبِ

تُجْمَعُ الداء كلَّ يوم أغذية السوء كالذنوب
ويبدو أن قضية كثرة الأكل فوق طاقة الإنسان كانت تشغل السميسر كثيراً
فقد قال أيضاً مخاطباً نفسه، أو أحد معارفه، مويخاً إياه لكثرة أكله كل ما يشتهي
مع أن الأصل أن يقتصد في طعامه، حتى ساءت حاله، وأصبح عاجزاً عن تناول كل
ما يشتهيهِ. فيقول:

أَتَأْكُلُ مَا تَشْتَهِي؟ نهيت، فلم تَنْتَه
لَأَكْلِكَ مَا تَشْتَهِي بقيت، وما تَشْتَهِي!!
وكان مقذعاً في هجائه، فهو حين هجا أبا الحسن علياً العامري، وصفه بشدة
البخل، وأنه لما جاد عليه بشيء يسير، قبله منه، لأن الدرهم من يد البخيل يساوي
بدره (أي كيساً مملوءاً بالنقود بلغتهم آنذاك) وقد تعجب الناس حين رأوه يقبل
هذا العطاء اليسير، وتعجبوا أكثر كيف جاد ذلك البخيل؟ فقال لهم إنه رماه برقية
آتت ثمارها في نفسه، وحولته من صخرة لا أمل فيها لعطاء، إلى رجل سمح، فقال
السميسر:

جَادَ نَزْراً فقبلنا درهم الساقط: بِذَرَّة!
عَجِبَ النَّاسُ وَقَالُوا: كيف نيلت منه ذرة؟
عَمِلْتُ فِيهِ رِقَاناً فلماذا خالف أمرة
هَلْ رَأَيْتُمْ بَعْدَ مُوسَى أحداً فجر صخرة؟!
٥. (البارو):

هو أبو تمام ، عبد الواحد بن الحسين بن محمد الدباس، الملقب بالبارد.

كان من رواة الحديث الشريف ، فقد رواه عن جده لأمه أبي البركات محمد بن يحيى الوكيل ، ورواه عنه آخرون.

وكان أبو تمام الملقب بالبارد ، يستغل هذا اللقب ، ولا يخجل منه ، فقد حدث أن جلال الدين بن صدقة- ويبدو أنه كان وزيراً أو قاضياً كبيراً- احتجب عن الناس بعض الوقت ، وجاء البارد يزوره ، فلم يؤذن له ، فألح في الدخول مستغلاً لقبه وكتب ورقةً وبعث بها إليه يقول فيها:

وقالوا: تحجب عنك مولى وصار له مكانٌ مُستَخصرٌ
فقلت: سيفتح الأبواب شعري ويدخلها؛ لأن "البرد" لصٌّ!!
وقد وردت ترجمة أبي تمام البارد في "ذيل تاريخ بغداد" لابن البخار، وفي "الوافي بالوفيات" للصفدي. ومن شعره قوله:

مات أبو حامد ومات جلال الدين فاستحصر الهجاء والمديحُ
كنت أهجو هذا، وأمدح هذا فأنا اليوم خاطري مستريحُ
٦. (البطين):

هو البطين بن أمية البجلي وكنيته: أبو الوليد، شاعر حمصيٌ جيدُ الشعر. وقد ترجم للبطين بهذا اللقب العجيب الأصفهاني في "الأغاني" وياقوت في "معجم الأدباء"، وابن المعتز في "الطبقات".

وذكروا أنه كان من أطول الناس في عصره ، فقد كان طوله اثني عشر شبراً بآتم ما يكون من أشبار الناس ، وكان يرعب من رآه؛ لطوله، وقبح وجهه.

قال ابن المعتز: "وكان إذا أقبل لا يشك من يراه أنه شيطان!!! حتى يحاوره فيصيب منه آدب الناس وأفصحهم...".

ولكن الذين أرخوا له ذكروا أنه - مع أدبه وفصاحته - كان فاسقاً، وقد أحب امرأةً يهوديةً من أهل الرملة ، فرفض أهلها أن يزوجوها إياه ، لأنه مسلم فتهود ، وتزوجها ، ثم عاد إلى إسلامه!! وكان جيد الشعر محكمه ، يشبه نمطه نمط الأعراب.

وهو القائل :

لم أقل عند الكريهة يا	ليتنى في الخفض والدعة
بل تسربت الحفاظ على	ميت، في الصدر لم يمت
وحسام لا يطيق صدأ	كانصاب الكوكب الكفت
وُصِلت بالموت هبتة	كاتصال السم بالحمه
فهو ما أحببت من وزر	مطرق ما لم يهيج حفت
يا أبا العباس ليس على	جمجمات البين من صلت
مُنيت نفسي بواحدة	منك لم تدرك ولم تفت
رعية العهد التي وصلت	بقواها قووة المقه
فأذني من إضاعتها	إن هذاك من الضعة
لم يزل شكريك متصلاً	بلساني لسك والشفة
فإذا قابلت معضلة	كنت مصغاتي وملتفتي

ويروون أن البطين لقي عبد الله بن طاهر فيما بين سلمية وحمص فوقف على

الطريق فقال لعبد الله بن طاهر:

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي الجود طاهر بن الحسين

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي العزتين في الدعوتين
مرحباً مرحباً بمن كفه البج رُ إذا فاض مزبد الرجوين
ما يبالي المأمونُ أيده الل هُ إذا كنتماله باقين
أنت غربٌ وذاك شرقٌ مقيما أي فتق أتى من الجانبين
وحقيقٌ إذ كنتمافي قديم للرريقِ ومصعبٍ وحسين
أن تنالاً ما نلتماه من المج د وأن تعلوا على الثقلين

قال : فأمر له عبد الله بن طاهر بعشرة آلاف درهم ، فجاء أبو عمران فقاسمه

إياها.

وله أيضاً:

ذروني وكلباً إنني اليوم إلها كما هي لي في كل نائبة إلـبـ
ألا لا أبالي عتب من كان عاتبا يمر برأسي دون ما رضيت كلبـ

وربما احتال البطين لرزقه شأن شعراء ذلك الزمان فقد روى الشيباني عن

البطين أنه قال : قدمت على علي بن يحيى الأرميني فكتبت إليه:

رأيت في النوم أني راكب فرساً ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم حذق ومعرفة رأيت خيراً وللأحلام تعبير
رؤياك فسرغداً عند الأمير تجد تعبير ذاك وفي الفال التباشير
فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً وعند مثلك لي بالفعل تيسير

قال : فوق لي في أسفل كتابي: أضغات أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام

بعالمين.

ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيت في منامي.

ومما يستحسن للبطين قوله :

رَمِينَا خَمْسَةَ وَرَمَوْا نُعِيمًا	وَكَانَ الْمَوْتُ لِلْفَتَيَانِ زِينَا
فَلَمَّا لَمْ نَدْعِ نَدْبًا وَرَمَحَا	بِرُكْنِنَا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمِينَا
فَإِنَّكَ لَوْرَأَيْتَ بَنِي أَبِينَا	وَشَدَّتْهُمْ وَعَكَّرَتْهُمْ عَلِينَا
لَعَمْرُ الْبَاكِياتِ عَلَى نَعِيمٍ	لَقَدْ عَزَتْ رَزِيَّتُهُ عَلِينَا
فَلَا تَبْعُدْ نَعِيمَ فَكُلِّ حَيٍّ	سِيلْقَى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ حِينَا

على أن أجود شعره الذي وصل إلينا هو ما كان في الغزل فمن ذلك قوله :

لِلَّهِ قَلْبٌ سَمَاءٌ بِحُبِّكُمْ	لَمْ يَأَلُ فِي مَرْتَقَاهُ مَرْتَفَعَا
لَمْ يَصْنَعْ الْحُبَّ غَيْرَ مَوْضِعِهِ	وَلَا سَعَى فِي السَّلُوحِ حِينَ سَعَى
أَحْبَبْتُ قَلْبِي لِمَا أَحْبَبَكُمْ	وَصَارَ أَمْرِي لِأَمْرِهِ تَبَعَا

قال ابن المعتز: "وهذا معنى بديع قلما يرزق الشاعر مثله". وذكر له من هذه

القصيدة نفسها أبياتاً آخر منها:

شَيَّعْتُ قَلْبِي إِلَى مَشِيئَتِهِ	مَتَّبَعًا فِي الْهَوَى وَمَتَّبَعَا
وَرَبُّ قَلْبٍ يَقُولُ صَاحِبِهِ	تَعَسَّأَ لِقَلْبِي فَبُئْسَ مَا صَنَعَا
يَا مَنْ تَعَرَّيْتُ مِنْ تَعَطُّفِهِ	وَمَنْ كَسَاهُ تَعَطُّفِي خَلَعَا
مَا هَبَّاتِ التَّرِيحِ مِنْ بِلَادِكُمْ	إِلَّا تَقَطَّعْتَ إِثْرَكُمْ قَطَّعَا
وَلَا اسْتَقَلْتُ مِنْ نَحْوِ بِلَدَتِنَا	إِلَّا تَمَنَيْتُ أَنْ نَكُونَ مَعَا!!!

وقد كانت وفاة البطين في الاسكندرية بمصر، فقد قال جعفر بن أحمد بن حمدان المصري: قدم علينا البطينُ مصرَ وخرج إلى الإسكندرية، فانخسفت به بئرُ مخرج، فتلفَ فيها.
٧. (المثقال).

لقب بهذا اللقب الغريب شاعر مجيد، وضعه ابن رشيق في "الأنموذج" بأنه شاعر مطبوع، قليل التكلف، سهل القافية، خبيث اللسان في الهجاء. اسمه عبد الوهاب بن محمد الأزدي، وردت ترجمته في "مسالك الأبصار" و"الوافي بالوفيات" و"معاهد التنصيص" وغيرها من كتب الطبقات. ويبدو من سيرته أنه كان يتردد بين الأندلس والإسكندرية.

ومن شعره في الغزل :

خيالك زائري من غير وعد	وأكثر منك بي برًا وحُبًا
فلما أن رآك أطلت بُعدي	ولم تمنح محبك، منك قريبًا
سرى وهنًا فقلّني وآلى	يمين الله، لا عذبت صَبًا
فأحيا مهجةً تلفت غرامًا	وقلّنا لم يفق دنفًا وكربًا
فكان الطيف أرأف منك نفسًا	وألين منك أعطافًا وقلبًا

وهي أبيات كما ترى في غاية الرقة واللفظ والابتكار، ورهافة الحس.

ومن شعره كذلك قوله وقد أجاد فيه حسن التشبيه:

هم بالوجوه: من البدور	وبالقُدود: من الغصون!!
ودروعهم: صُبغُ الحيا	وسيووفهم: لحظ العيون!!

قال عنه ابن رشيق في الأنموذج: شاعر مطبوع، قليل التكلف، سهل القافية خبيث اللسان في الهجاء. ماجن لا يمدح أحداً. كان يألف غلاماً نصرانياً خماراً واشتهر وأقام ببابه في الحانة ثلاث سنين ، ويدخل معه الكنيسة في الآحاد والأعياد طول هذه المدة، حتى حذق كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله ، وهجره مرة فاستعان وتحيل فلم يجد إليه سبيلاً ، وزعم أن عليه قسماً شديداً أن لا يكلمه إلى شهر فدعا بالفاصد وفصد إحدى يديه، ثم دعا بفاصد آخر وفصد اليد الأخرى ، ودخل داره وأغلق بابه، وفجر الفصادين ، فما شعر أهله إلا بالدم يدفع من سدة الباب ، وبلغ الغلام أنه يدعي أنه قتله، فصالحه خوفاً على نفسه! ومن شعره:

خيالك زائري من غير وعد	وأكثر منك بي براً وحباً
فلما أن رأك أطلت بعدي	ولم تمنح محبك منك قرباً
سرى وهناً فقبلتي وآلى	يمين الله لا عذبت صبا
فأحیی مهجة تلفت غراماً	وقلباً لم يفق دنفاً وكربا
فكان الطيف أرأف منك نفساً	والين منك أعطافاً وقلبا

ومنه:

هم بالوجوه من البدور	وبالقود من الغصون
ودروعهم صيغ الحيا	وسيوفهم لحظ العيون

ومنه :

لما تنهاهى وكملى	وتم لى فيه الأمل
أعرض واستبدل بى	كذلك الدنيا دول

ومنه :

قد زارني طيف من أهوى يعللني عند الصباح وخيط الفجر قد طلعا
فطرت شوقاً لعلمي أن قبلته في النوم تحدث لي في وصله طمعا
ووقد مات محبوبه النصراني بالإسكندرية فقال برثيه :

أخي بوداد لا أخي بديانة ورب أخ في الود مثل نسيب
وقالوا أتبكي اليوم من لست غداً إن هذا فعل غير لبيب
فقلت لهم هذا أوان تلهفي وشدة إغوالي وفرط كروبي
ومن أين لا أبكي حبيباً فقدته إذا خاب منه في المعاد نصيب
فيا ناصحي مهلاً فلست بمرشد ويا لئمي أقصر فغير مصيب
وسلمان أودى حيث لا أنا حاضر أعلله يوماً بوصف طبيب
وأجعل كفي تحت جيب مكرم علي وخد بالتحول خضيب

٨- (المنتوف) :

كنيته أبو الجراح ، واسمه عبد الله بن عياش الهمداني الكوفي، روى الحديث عن الشعبي وغيره ، وروى عنه الهيثم بن عدي لأنه كان أحد رواة الأنساب ، والأخبار ولذلك تجد له ترجمةً في كتب المحدثين مثل "تاريخ الإسلام"، و"العبر"، و"ميزان الاعتدال"، و"لسان الميزان".

وقد وصفوه بأنه كان أبرص، وكان يتنفّ لحيته، وهذا هو سبب اللقب الذي عرف به عند من أرخوا له.

وروا عنه أنه كان كَيْسًا، مطبوعًا، ولكنه كان صاحب نواذر تنم عن خفة ظل وسرعة بديهة؛ فمن ذلك ما روي أن رسالةً جاءت إليه من معن بن زائدة أحد

وجهاء اليمن المعروفين يقول فيها للمنتوف: قد بعثت إليك بخمسمائة دينار، ومن الثياب اليمنية بخمسين ثوباً أشتري بها دينك!!"، فكتب إليه: "قد بعثك ديني كله إلا التوحيد لعلمي بقله رغبتك فيه"!!!

وكان مقرباً من الخليفة المنصور، ويتخذ من هذا القرب سنداً لكي يسخر ممن يشاء، حتى إنه كان يسخر من وزيره الربيع، ويطعن في نسبه طعنًا قبيحاً. ويقول له: "فيك شبه من المسيح"!! يخدعه بذلك، فكان يفرح بذلك ويكرمه فلما بلغ ذلك المنصور ضحك كثيراً.

وقال: إن المنتوف يعبت بالربيع، ويقصد بذلك أنه يشبه المسيح في أنه لا أب له!!

ومن شعر المنتوف في صديق له حالت الدنيا بينهما، فقال:

صحبت أبا سفيان ستين خليلي صفاء ودنا غير كاذب

فأمسيت لما حالت الأرض - على قربه مني - كمن لم أصاحب

حافي رأسه :

حافي رأسه هو النحوي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر العلامة جمال الدين التلمساني الزناتي الكملائي المازوني، ولقبه محيي الدين وكان من أئمة العربية في ثغرا الاسكندرية في عصره وكان يحفظ كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ويقرئ بداره وقد تتلمذ عليه كثير من النحاة ولقب بحافي رأسه لحفرة كانت في دماغه وقيل كان في رأسه شيء يشبه الحفرة، وقيل لأنه كان في أول أمره

مكشوف الرأس وقيل رآه رئيس في الثغر فأعطاه ثياباً جديداً لبدنه فقال: هذا لبدني
ورأسي حافي، فأمر له بعمامة فلزمه ذلك اللقب، ومن شعره :
ومعتقد أن الرياسة في الكبر ... فأصبح ممقوتاً بها وهو لا يدري
يجر ذيول الكبر طالب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر
وله شعر يصف فيه أهل الاسكندرية بالبخل فيقول :
يا منكرأ من بخل أهل الثغر ما ... عرف الورى أنكرت مالا ينكر
أقصر فقد صحت نتانة أهله ... ومن الثغور كما علمت الأبر
وقد كان حافي راسه أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد - أي : هو
في الاسكندرية وابن النحاس في مصر وابن مالك في دمشق ومن شعره الغزلي :
ومعلمي الصبر الجميل بهجره ... فثنى فؤاداً عنه لم يك ينثني
لا بد من أجر لكل معلم ... وإلى السلو ثواب ما علمتني
وكتب إلى الأمير نور الدين على بن مسعود الصوابي :
شكوت إليك نور الدين حالي ... وحسبي أن أرى وجه الصواب
وكتبي بعتها ورهنت حتى ... بقيت من المجوس بلا كتاب

حتى النحاة يضحكون !!

النحاة - دون غيرهم من أهل العلم - مشهورون بالصفات المنفردة : كالكآبة والتعقر، والانغماس في سفاسف الأمور، وما أكثر ما يذكر الناس قول القائل فيهم.

إذا اجتمعوا على ألفٍ وياء وواو، ثار بينهم الجدلُ

وفي العصور الإسلامية الأولى كان الشعراء والفقهاء يجدون لدى الخلفاء ترحاباً وعطفاً وعطايا متجددة ، فيما كان النحاة يعانون من الإهمال والتكبر لقيمة ما يحملون من علم .

ولم يقف سوء حظ النحاة عند هذا الحد ، من جحود الحكام ، بل امتد حتى شمل المؤرخين الذين كانوا يوردون في تأريخهم وتراجمهم للنحاة طرائف ونوادر تحط من مكانتهم وتزري بسلوكياتهم ، وتتندر بأحوالهم ، وتجمع بينهم وبين معلمي الصبية الذين عرف عنهم الحمق وخطل الرأي ، وسوء التدبير .
سوء حظ وائهم :

ومما رواه عن نكد الدنيا مع النحاة ، ما ورد في بغية الوعاة للسيوطي (١ / ٢) عن ابن السراج النحوي أنه كان يسير مع صديقه النجم القحفازي في طريق ملوث بالزيت وأواني الزيت الفارغة فعثر ابن السراج في مشيته فقال لصاحبه : تعسنا في "ظرف المكان" .

فقال له صاحبه : لأنك تمشي بلا "تميز" .

فقال ابن السراج : إن هذا "حال" نحس !!

ومما يروى عن سوء الحظ الذي لازم النحاة ، أن أبا عبيدة معمر بن المثنى - وهو أحد أعمدة اللغة الأوائل - جلس يوماً في مجلس يعلم فيه الناس ، فابتلاه الله تعالى بقوم جهلاء في مجلسه ذاك .

فقام إليه رجل فسأله : رحمك الله يا أبا عبيدة . ما (العنجد)؟

فقال أبو عبيدة مستغرباً : رحمك الله ! ما أعرف هذا .

فقال له الرجل : سبحان الله !! فأين ذهب عنك قول الأعشى :

يَوْمَ تُبْدَى لَنَا قُتَيْلَةٌ عَنْ جِيدٍ مَلِيحٍ يَزِينُهُ الْأَطْوَاقُ

فقال أبو عبيدة : رحمك الله . " عن " : حرف جر ، و " الجيد " : العنق . ثم قام

رجل آخر وقال : يا أبا عبيدة ، رحمك الله . ما " الأودع "؟

فقال أبو عبيدة : لا أعرفه .

فقال الرجل : سبحان الله . فأين أنت من قول العرب : " راحمٌ بعودٍ أو : دُعُ

فقال أبو عبيدة : ويحك !! هاتان كلمتان . " أو " : حرف تمييز ، و " دع " : فعل أمر

بمعنى اترك .

ثم استغفر أبو عبيدة ربه واستأنف درسه ، فقام رجل آخر وقال : أخبرني

يا أبا عبيدة عن رجل من المهاجرين اسمه (كوفأ)

فقال أبو عبيدة : لا أعلم من المهاجرين من سمي بهذا الاسم .

فقال الرجل : فأين أنت من قول الله ﷻ :

﴿....وَأَهْدَىٰ مَعْكَوْفًا...﴾^(١)

١ - سورة الفتح : من الآية ٢٥ .

قال الرواة : فأخذ أبو عبيدة نعليه . وقام مغضباً يجري في مسجد البصرة حيث كان في مجلسه - وهو يصيح بأعلى صوته من أين حُشِرَت البهائم عليّ في هذا اليوم ؟!

يرافعون عن أنفسهم :

غير أن الله تعالى قيض لهؤلاء النحاة من يدافعون عنهم ما يُروّج ضدهم من إشاعات وهمزولز ، فمن هؤلاء المحامين الكبار عن شرف علوم العربية : عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ) وهو رأس من رؤوس اللغة أحسن إليها تأليفاً وتديساً ودفاعاً .

فقد روى القفطى في إنباه الرواة (٢ / ١٠٤) في ترجمته موقفاً طريفاً حدث بينه وبين مفسر الأحلام التابعي الجليل ابن سيرين .

فقال : كان ابن سيرين يُبغِض النحويين ، وكان يقول : لقد بَغَضَ إلينا هؤلاء المسجد ، وكانت حلقة إلى جانب حلقة ابن أبي إسحاق .

وبلغ ابن أبي إسحاق أنه يَعِيب عليه تفسير الشعر ويقول : ما علمه بإرادة الشاعر ! فقال ابن أبي إسحاق : إن الفتوى في الشعر لا تُحلّ حراماً ، ولا تُحرّم حلالاً ؛ وإنما تُفتي فيما أُستتر من معاني الشعر ، وأشكّل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيها آراءنا ؛ فإن زلنا أو عثرنا فليس الزلل في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا ، ولا العثرة فيها كالعثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء ، وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطهور . فبلغ ذلك ابن سيرين

فأقصر عما كان عليه من الإفراط في الوضوء . وكان إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا قال: هات حتى أظن لك .

وكان ابن أبي إسحاق يعتمد الإعراب في عبارته حرفاً واحداً، فمرت به سينورة [قطعة]

فقال : احسنى ، فقال له صاحبه معاتباً ساخراً ألا قلت احسنى !.

مولتق فكهة:

ومن النحاة قوم أوتوا نصيباً من خفة الظل جاءهم طبعاً لا تكلفاً فهم في أيامهم ولياليهم. ومجالسهم وسمرهم ، ظرفاء حقيقيون لا يصطنعون المزاح وإنما تغلب عليهم طبائعهم المرححة المتفائلة . فمن هؤلاء سعد بن شداد الكوفي تلميذ أبي الأسود الدؤلي وكان له مكان معروف يعلم فيه النحو ، ويحضره جمع من طلاب العلم .

قالوا : حضر سعد هذا مجلساً لأحد الحكام الغلاظ الشداد وهو زياد بن أبيه فجاء قوم من بني راسب وقوم من بني طفاوة يختصمون في مولود ، كل قوم ينسبونه لهم .

فقال سعد : أيها الأمير.. يلقي هذا المولود في الماء ، فإن رسب فهو من بني راسب وإن طفا فهو من بني طفاوة .

فقام زياد ضاحكاً ممسكاً نعله وكأنه يهدده به وقال له : ألم أنك عن هذا

الهلز في مجلسي ؟ قال السيوطي في البغية (١ / ٥٧٩) عن سعد هذا :

"وكان عبيد الله بن زياد يستظرفه ويقرّبه ، فأبطأ عن صلته شهراً ، فقال عبيد الله يوماً : ما أحوجني إلى وُصفاء لهم حلاوة وقدود ذوي رشاقة ، يقومون على رأسي ، فقال سعد : حاجتك عندي أيها الأمير؛ وعمد إلى أصلح مَنْ قدر عليه من الغلمان الذين عنده في المكتب ، فألبسهم ثياب الوُصفاء ، وأتى بهم عبيد الله فاشتراهم وغالى بهم ، ومضى سعد واختفى عند بعض أصحابه ، فلما جاء الليل بكى الصبيان ، فقال لهم عبيد الله : ما تريدون ؟

قالوا : نريد بيتنا ، فقال : وأين بيتكم ؟ قالوا : في موضع كذا وكذا ، وأنا ابن فلان وهذا ابن فلان : ففطن عبيد الله أنها حيلة وسخرية ، فوضع عليه الرصد [أي خصص من يراقبه ويقبض عليه] ، فلما جئ به إليه قال له : ما حملك على ما فعلت؟

قال : أبطأت علي صلثك ! فضحك منه ، وترك له المال .
ومن هذه المواقف الفكاهة ما روي عن أبي حاتم السجستاني أنه دخل بغداد فستل عن قول الله تعالى :

﴿...قُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾^(١)

(قُوا أَنْفُسَكُمْ) : ما يقال منه للواحد ؟

فقال : قِ .

فقال السائل : فما يقال منه للثنين ؟

فقال أبو حاتم : قيا .

قال السائل : فالجمع ؟

قال : قُوا ، قال : فالجمع لي الثلاثة .

قال : قِ ، قيا ، قُوا .

قال أبو حاتم : وكان في ناحية المسجد رجل جالس معه قماش .

فقال لواحد بجانبه : احتفظ بثيابي حتى أجيء ، ومضى إلى صاحب الشرطة

وقال : إني ظفرت اليوم بقوم زنادقة يقرءون القرآن على أنغام صياح الدِّيك

فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة ، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب

الشرطة ، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر ، وقد اجتمع جمع من خلق الله

ينظرون ما يكون ، فعنفني وعذلني [لامي] .

وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ! وعمد إلى أصحابي فضربهم

عَشْرَةَ عَشْرَةَ .

وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا ، فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً ، ولم يُقِمْ

ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها . !!

ومن هذه المواقف أيضاً ما روي عن عبد الله بن بري الذي لم يكن في الديار

المصرية أعلم منه بالنحو وكان يقوم بتدريسه في جامع عمرو بن العاص في القرن

السادس الهجري ، غير أنه كان بخيلاً اشترى يوماً عنباً فجعله في كم ثوبه ليخفيه

عن الناس ، وفيما هو في طريقه استوقفه صاحب له فوقفا معاً يتحادثان وهو

يعبث في العنب من غير قصد حتى نقت العنب على قدمه ، فسأل ذلك النحوي
البخيل صاحبه : أنتس المطر؟

قال : لا .

قال فما هذا الذي ينقط على رجلي ؟

قال: هذا من العنب !! فخل ومضى .

ويتصل بهذه الغفلة أيضاً ما روي عن النحوي المعروف باسم (شميم الحلي)

واسمه علي بن الحسن .

روي عنه ياقوت ما يدل على خفة العقل .

فقال : أنشدني لنفسه أبياتاً في الخمر فاستحسنها فغضب .

وقال : ويلك . ما عندك غير الاستحسان !!

قال ياقوت : فقلت له : وما أصنع يا مولانا ؟

قال : هكذا : وقام فجعل يرقص ويصفق إلى أن تعب .

ثم جلس وقال : بُليت ببهائم لا يعرفون الدر من البعر !!

وروي عنه القفطي نادرة أشنع في الإنباه (٢ / ٢٤٤) عن أبي البركات سعيد

بن أبي جعفر الهاشمي الحلبي .

قال : جاء شميم إلى حلب ، فدخلنا عليه مستفيدين (أي لتعلم عليه) .

فرأيت يوماً وقد أنشدني لنفسه شعراً أكثرنا من الاستحسان له : فقام إلى

أحد أركان المنزل ، ونام على ظهره ورفع رجليه إلى الحائط ، ولم يزل يرتفع حتى

استوى واقفاً على رأسه ثم جاءنا وقال: هكذا يُشكر الله على النعمة وهو أن يقف الإنسان على رأسه لا على رجليه .. !!

ومن حماقات النحاة ما روي عن الربيعي النحوي (علي بن عيسى تلميذ السيرافي) من أنه كان مبتلى بقتل الكلاب، فسأل يوماً أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلى منطقة معينة، فظنوا أن له فيها حاجة فركبوا خيولاً وخرجوا وخرج ماشياً معه كساء وعصا إلي كلب هناك، فعدا نحوه، والكلب يثب عليه تارة، ويهرب منه أخرى حتى أعياه، فعاونه تلاميذه حتى أمسكوا الكلب وجاءوه به، فعض النحوي الكلب بأسنانه عضاً شديداً وقال: هذا عضني منذ أيام وأردت أن أخالف.

وقد ورد في هذا المعنى قول شاعر قديم:

شَاتَمَنِي كَلْبُ بَنِي مِسْمَعٍ فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ وَالْعِرْضَا
ولم أجبه، لاحتقاري له مَنْ ذَا يَعْضُ الْكَلْبُ إِنْ عَضَا !

ومن ظرفاء النحاة عثمان بن عيسى البُلَطي (بضم الباء وفتح اللام) ترجم له ياقوت ونقل السيوطي ما رواه عنه ياقوت فقال: كان عالماً، إماماً، نحويّاً لغويّاً إخباريّاً، مؤرخاً شاعراً عروضيّاً، وكان يخلط المذهبين، وكان خليعاً ماجناً شراباً للخمر، منهمكاً في اللذات، أقام بدمشق برهة، ثم انتقل إلى مصر لما فتحت فحظي بها؛ ورتب له الصلاح بن أيوب علي جامع راتباً يقرئ به النحو والقراءات.

وكان آخذ النحوعن أبي نزار وسعيد بن الدهان ، وكان يتطيلس ولا يدير الطيلسان علي عنقه بل يرسله، وكان يلبس في الصيف الثياب الكثيرة ، ويختفي في الشتاء ، فكان يقال له : أنت من حشرات الأرض . ويدخل الحمام وعلي رأسه مبطّنة ، لا يرفعها إلا إذا سكب الماء على رأسه ثم يلبسها حتى يملأ السطل .

وحضر عنده مغنٌ فغناه صوتاً أطربه ، فبكى هو وبكى المغني .

فقال له : أما أنا فبكيت من الطرب ، فما الذي أبكاك ؟

فقال المغني : تذكرت والدي ، فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى .

فقال له البطلي : فأنت والله إذا ابن أخي ، وخرج ، فأشهد على نفسه جماعة

من عدول مصر بأنه ابن أخيه ، ولا وارث له سواه، ولم يزل يعرف بابن أخي البطلي

ومن المواقف الطريفة للنحاة تلك المواقف الشهيرة لإمام أهل الكوفة الكسائي

رحمه الله فقد كان يحسن الدفاع عن أهل اللغة فمن ذلك ما روي عنه من حوار

بينه وبين أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رحمه الله فقد قالوا إن أبا يوسف كان

يقح في الكسائي ويقول : أي شيء يحسنه الكسائي ؟ إنما يحسن شيئاً من كلام

العرب ، وكأنه يستهين بعلمه ويرى الفقه خيراً منه ، فبلغ الكسائي ذلك . فالتقيا

عند الرشيد - وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إياه - فقال لأبي يوسف يا

يعقوب : بأي شيء تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق طالق طالق ؟

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق أو طالق أو طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق ثم طالق ثم طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق و طالق و طالق .

قال واحدة . قال (الكسائي) : يا أمير المؤمنين ، أخطأ يعقوب في اثنتين

و أصاب في اثنتين .

أما قوله : طالق طالق طالق فواحدة ؛ لأن الثانيتين تأكيد ؛ كما تقول : أنت

قائم قائم قائم ، وأنت كريم كريم كريم .

و أما قوله أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك ، وقعت في الأولى التي تتيقن

و أما قوله : طالق ثم طالق ثم طالق ، فثلاث ؛ لأنها نسق ، وكذلك طالق

وطالق و طالق .

وكتب دماز [أبو غسان صاحب أبي عبيدة] إلى المازني معبرا عن ضيقه

بباب الإضمار وهو باب من النحو ثقل ، عسر الهضم ، وكان دماز قد قرأ من النحو

إلى باب الواو والفاء ومن قول الخليل وأصحابه أن ما بعدها ينتصب بإضمار أن

فشق عليه فهم هذه الجزئية . فقال دماز شاكيا باب الفاء وباب الواو لأنها بابا

الإضمار:

وفكرت في النحو حتى مللت وأتعبت نفسي له والبدن

وأتعبت بكراً وأصحابه بطول المسائل في كل فن

فكنت بظاهره عالماً وكنت بباطنه ذا فطن

خلا أن باباً عليه العفاء للفاء يا ليتنه لم يكن

وللواو وباباً إلى جنبه من المقت أحسبه قد لعن
إذا قلت هاتوا لماذا يقا ل : لست بآتيك أو تأتين
أجيبوا لما قيل هذا كذا على النصب ؟ قالوا : لإضمار "أن"!!
فقد كدت يا بكر من طول ما أفكر في بابه أن أجن !!!

وروى محمد بن يزيد الشهير بالبرد واقعة طريفة عن نفسه فقال : قال لي
المازني : يا أبا العباس بلغني أنك تتصرف من مجلسنا فتصير إلى المخيس
[مستشفى الأمراض العقلية] وإلى مواضع المجانين والمعالجين فما ذاك؟
قال : فقلت :

إن لهم أعزك الله طرائف من الكلام وعجائب من الأقسام.

فقال : خبرني بأعجب ما رأيته من المجانين.

قال فقلت : دخلت يوماً إلى مستقرهم فرأيت مراتبهم على مقدار بليتهم وإذا
قوم قيام قد شدت أيديهم إلى الحيطان بالسلاسل ونقبت من البيوت التي هم بها
إلى غيرها مما يجاورها لأن علاج أمثالهم أن يقوموا الليل والنهار لا يقعدون ولا
يضطجعون ومنهم من

يحب على رأسه وتدهن أرواه ومنهم من ينهل ويعل بالدواء حسب ما
يحتاجون ، فدخلت يوماً مع ابن أبي خميص وكان المتقلد للنفقة عليهم ولتفقد
أحوالهم فنظروا وأنا معه فأمسكوا عما كانوا عليه لولاء موضعه فمررت على شيخ
منهم تلوح صلته وتبرق

للدهن جبهته وهو جالس على حصير نظيف ووجهه إلى القبلة كأنه يريد الصلاة.

فجاوزته إلى غيره فناداني : سبحان الله أين السلام من المجنون ترى أنا أم أنت . فاستحييت منه وقلت : السلام عليكم.

فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد عليك على أنا نصرف سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر لأنه كان .

يقال : إن لله إخاء على القوم دهشة اجلس أعزك الله عندنا. وأومى إلى موضع من حصيره ينفذه كأنه يوسع لي.

فعزمت على الدنو منه فناداني ابن أبي خميسة: إياك إياك! فأحجمت عن ذلك ووقفت ناحية أستحلب مخاطبته وأرصد الفائدة منه. ثم قال لي وقد رأى معي محبرة : يا هذا أرى معك آلة رجلين أرجو أن لا تكون أحدهما أتجالس أصحاب الحديث الأغثات أم الأدباء من أصحاب النحو والشعر.

قال : أتعرف أبا عثمان المازني .

قلت: نعم معرفة ثاقبة .

قال : أفتعرف الذي يقول فيه :

وفتى من مازن ساد أهل البصره أمه معروفة وأبوه نكره

قلت : لا أعرفه .

قال : أفتعرف غلاماً له قد نبغ في هذا العصر معه ذهن وله حفظ وقد برز في

النحو وجلس في مجلس صاحبه وشاركه فيه يعرف بالمبرد .

قلت : أنا والله عين الخبير به.

قال : فهل أنشدك شيئاً من عبثات أشعاره؟

قلت : لا أحسبه يحسن قول الشعر.

قال : سبحان الله أليس هو الذي يقول:

حبذا ماء العناقيد يريق الغانيات بهما ينبت لحمي ودمي أي نبات

أيها الطالب أشهى من لذيذ الشهوات كل بماء المزن تفاح خدود الناعمات

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس .

قال : يا سبحان الله أويستحيا أن ينشد مثل هذا حول الكعبة ما تسمع

الناس يقولون في نسبه .

قلت : يقولون هو من الأزد أزد شنوة ثم من شمالة.

قال : قاتله الله ما أبعد غوره أتعرف قوله:

سألنا عن شمالة كل حي فقال القائلون ومن شمالة

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهالة

فقال لي المبرد خل قومي فقومي معشر فيهم نذالة

قلت : أعرف هذه الأبيات لعبد الصمد بن المعدل يقوله لها فيه .

قال : كذب من ادعاها غيره هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت بهذا

الشعر له نسباً. قلت أنتم أعلم .

قال : يا هذا قد غلبت بخفة روحك على قلبي وتمكنت بفصاحتك من

استحساني وقد أخرت ما كان يجب أن أقدمه. الكنية أصلحك الله؟

قلت : أبو العباس .

قال : فالاسم .

قلت : محمد .

قال : فالأب .

قلت : يزيد .

قال : قبحك الله أحوجتني إلى الاعتذار إليك مما قدمت ذكره. ثم وثب باسطاً

يده لمصافحتي.

فرايت القيد في رجله قد شد إلى خشبة في الأرض فأمنت عند ذلك غائلته .

فقال لي : يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهياً

لك في كل وقت أن تصادف مثلي في مثل هذه الحال الجميلة أنت المبرد .

وجعل يصفق وقد انقلبت عينه وتغيرت حليته. فبادرت مسرعاً خوفاً أن

تبدرنني منه بادرة وقبلت قوله فلم أعاود الدخول إلى مخيس ولا غيره.

والنحوي قد يقبل أن يسبه أحد بشرط ألا يلحن ولا يخطئ فقد قالوا إن

الشاعر الهجاء الماجن عبد الصمد بن المعذل كان قد وجد [غضب] من شيء أنكره

المازني النحوي وكلام تكلم به فيه فقال يهجو وأفحش :

بنيت ثمانين بفيها لثغره شوهاً ورساء كطين الردغه

ممشوطة لمتها المثغره ملوية أصباغها المصمغه

مخضوية في قمص مصبغه مثلبة للصاحب منزغه

فيها يعاف الخفرات ميلغه ملسبةً بالناقرات ملدغه

أعارها الغضون منه الوزغه	والظريان كشحه وأزغفه
والديك أحذى الجيد منها النغغه	ألقت حليساً لي وألقت مردغه
وهامستني بحديث فغغغه	وحلف منها وإفك مغمغه
إنك إن ذقت حمدت المضغه	فقلت ما هاجك قالت دغدغه
فقلت من أنت فقلت لي دغه	وابنى أبو عثمان ذو علم اللغه
فأطو حديثي دونه أن يبلغه	هممت أعلو رأسها فأدمغه

فبلغ أبا عثمان فلم يبال بتلك الصفات الوضيعة التي ألصقها بأمه وقال
قولوا لهذا الجاهل بم نصبت "فأدمغه" لولزمت مجالسة أهل العلم كان أعود
عليك.!!!

ويروي لنا السيوطي في البغية نادرة عن أبي مكنون النحوي الذي وقف يدعو
ربه فسمعه أعرابي كان بجواره وهو يدعو قائلاً : اللهم ربنا وإلهنا ومولانا ، صل على
نبيينا ، اللهم ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد على ترائب
الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على أصحاب الفيل ، اللهم اسقنا
غيثاً مريعاً مجللاً ، وحياً سحاً سفوحاً طبقاً غدقاً ، ودقاً مثعنجراً .

ففزع الأعرابي وقام صارخاً : يا خليفة نوح ، الطوفان ورب الكعبة . دعني
أوي بعيالي إلى جبل يعصمني من الماء !!

وروى القفطي عن أبي علقمة النحوي أنه مريوما على عبيدين : حبشي
وصقلي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض ، فأدخل ركبتيه في بطنه وأصابه
في عينيه وعض أذنيه وضربه بعصا فشجه وأسال دمه ، فقال الصقلي لأبي علقمة

- الذي مربهما فشهد الضرب اشهد لي على خصمي بما رأيت ، فمضوا إلى الأمير فقال له الأمير : بم تشهد ؟

فقال : أصلح الله الأمير. بينا أنا أسير على كودني ، إذ مررت بهذين العبدین ، فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فخطأه على فدغد ، ثم ضغطه برصفتيه في أحشائه ، حتى ظننت أنه تدعج جوفه ، وحل يلج بشناتره حجمتيه يكاد يفتقؤهما ، وقبض على صنارتيه بمبرمه وكاد يحذهما ، ثم علاه بمنسأته ففججه بها ، وهذا أثر الجريان عليه بينا.

فقال الأمير : والله ما فهمت مما قلت شيئاً .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وأعلمناك إن علمت. وأديت إليك ما علمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية .

فجهد الأمير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الأمير رأسه وقال للصقلي المجني عليه : شجني خمساً وأعفني من شهادة هذا !!
روا صفات هزيمة نحوي :

ويحكي لنا الشاعر المصري المجهول شرف بن أسد (ت ٧٣٨هـ) حكاية طريفة عن نحوي مربإسكافي يبيع النعال فوقف ببابه يريد أن يشتري نعلأ فقال النحوي للإسكافي :

"أبيت اللعن ، واللعنُ يأباك ، رحم الله أمك وأباك ، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن عليك السلم والسلم والسلام ، ومثلك من يُعز ويُحترم ويُكرم ويُحتشم ، إنني قرأت القرآن و" التيسير " و" العنوان " و" المقامات

الحريرية" و "والدرة الألفية" و "كشاف الزمخشري" و "تاريخ الطبري" ، وشرحت اللغة مع العربية على سيبويه ، ونفطويه ، والحسن بن خالويه ، والقاسم بن كميل والنضر بن شميل ، وقد دعيتي الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك ، لعلك تتحفني من بعض حكمتك ، وحسن صنعتك ، بنعل يقيني الحر ، ويدفع عني الشر ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً ، لأتخذك بذلك رفيقاً : ففيه لغات مختلفة ، على لسان الجمهور مؤتلفة : ففي الناس من كناه بـ " المَدَّاس " ، وفي عامة الأمم من لقبه بـ " القَدَم " ، وأهل شهرنوزة سموه بـ " الساموزة " .

وإني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثم عليّ في ذلك ولا لوم ، والثالثة بي أولى ، وأسألك أيها المولى ، أن تتحفني بساموزة أنعم من الموزة ، أقوى من الصوان وأطول عمراً من الزمان ، خالية البواشي ، مطبقة الحواشي ، لا يتغير علي وشيها ، ولا يروعي مشيها ، لا تنقلب إن وَطِئْتُ بها جُروفاً ، ولا تنفلت إن طحْتُ بها مكاناً مخسوفاً ، ولا تلتوي من أجلي ، ولا يؤلمها ثقلي ، ولا تتمزق من رجلي ، ولا تتعوج ولا تلقوج ، ولا تنبج ، ولا تنفلج ، ولا تقب تحت الرجل ، ولا تلصق بخبز الفجل ظاهرها كالزعفران ، وباطنها كشقائق النعمان ، أخف من ريش الطير ، شديدة البأس على السير ، طويلة الكعاب ، عالية الأجناب ، لا يلحق بها التراب ، ولا يغرقها ماء السحاب ، تصر صرير الباب ، وتلمع كالسراب ، وأديمها من غير جراب جلدها من خالص جلود الماعز ، ما لبسها أحد إلا افتخر بها وعز ، مخرورة كخرز الخرنفوش ، وهي أخف من المنقوش ، مسمرة بالحديد بمنطقة ، ثابتة في الأرض المزلقة ، نعلها من جلد الأفيلة لا الحمير الفطير ، وتكون بالنر الحقيق .

فلما أمسك النحوي وانتهى من كلامه ، وثب الإسكافي على أقدامه ، وتمشى وتبخر ، وأطرق ساعة وتفكر ، وتشدد وتشمر ، وتخرج وتنمر ، ودخل حانوته وخرج وقد داخله الحنق والحرص .

فقال له النحوي : جئت بما طلبت .

فقال : لا بل بجواب ما قلت .

فقال : قل وأوجز ، وسجع ورجز .

فقال : أخبرك أيها النحوي ، أن الشرسا يحزوي ، شطببطبات المتقرل والمتقبعقب لما قرب من قرى قوق القرنقنقق ، طرق رزقنا ، شراسيف قصر القشتبع من جانب الشرشنكل والديوك تصهل ، كنهيق الرقايق الصولجانات ، والحرفرف الفرثاح ، يبيض القرقنطق والزعر برجوا حلبنبوا يا حيزا ، من الطير ، بحج بجمند كبشمردل ، خاط الركنبو ، شاع الجبربر ، بجفرالرتاح ، ابن يوشاخ ، على لوى شمندخ ، بلسانتن القراوق .

مازكلوخ ، إنك أكييت أرس برام ، المسلطنح بالشمردلند مخلوط ، والزريق بحبال الشمس مربوط علعل بشعلعل ، مات الكركندوش أدعوك في الوليمة ، يا تيس يا حماريا بهيمة ، أعيذك بالرحواح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأوفيك وأوفيك ، وأرقيك ، برقوات مرقات ، برقوات مرقات قرقوات البطون ، لتخلص من داء البرسام والجنون .

ونزل من دكانه ، مستغيثاً بجيرانه ، وقبض لحيّة النحوي بكفيه ، وخنقه بإصبعيه ، حتى خرّ مغشياً عليه ، وبربر في وجهه وزمجر ، ونأى بجانبه واستكبر وشخرونخر ، وتقدم وتأخر .

فقال النحوي مستغرباً مستغيثاً : الله أكبر الله أكبر ، ويحك أنت تجننت ؟

فقال له : بل أنت تخرفت !!.

وهكذا انتهت قصة النحوي الذي أراد أن يشتري نعلًا من إسكافي لا شأن له باللغة فانتهي ذلك به إلى ما لاحمد عقباه من المهانة والفضيحة ، وقد حكى لنا هذه الحكاية ابن شاكراكتبي في فوات الوفيات (١٠٢/٢) وابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٢٢٦/٦) والذي يتتبع نوادر النحاة في كتب التراث يجد من أمثالها الكثير والكثير ولكن عليه أن يحتاط لنفسه بكثير من الصبر والأناة حتى لا يصاب بما أصيب به النحاة من حب الغريب من اللفظ حتى لا تتأثر حياته الزوجية في عصرنا هذا الذي يتميز بالقلق ونفاد الصبر .

ملحوظة :

الكلمات الغريبة في عبارات الإسكافي لا أصل لها في اللغة فهي ليست ذات

معنى وإنما هي تعبير عن ضيقه بحذلقه النحوي !!.

القسم الثاني :

قضايا وشخصيات

الشاعر الجاهلي المغمور

أبو دواد الإيادي

شاع فى كتب الأمثال العربية قولهم "جار كجار أبى دواد" فمن أبو دواد ؟ وما الذى فعله ذلك الجار الذى خلد فعله ذكراه ؟ ولم ضاع شعر أبى دواد ؟ .
لقد كان أبو دواد الإيادى شاعرا مجيدا للوصف ، وكان ابنه شاعرا واسمه دواد، وابنته دوادة شاعرة أيضا .

ولكن ما بقى من تراث هذه الأسرة الشاعرة قليل فى بطون أمهات الكتب .
برغم جودته ورقته .

وفى السطور التالية نقضى ساعة فى ضيافة هذه الأسرة الشاعرة التى ذاع صيتها وضاع صوتها بين رياح التاريخ الأدبى الهوجاء :
اسمه وكنيته :

لم يتفق المؤرخون على اسم أبو دواد الإيادى . وهناك عدة روايات :
○ قال الأصفهاني ^(١) : إن اسمه جارية بن الحجاج . وكان أبوه الحجاج يلقب بحمران بن بحر بن عصام بن منبه بن حذاقة بن زهير بن إياد بن نزار بن معد . ونسب القول بهذا الى يعقوب بن السكيت .

١ - أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني ، ج ١٦ . دار إحياء التراث العربى . - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ص ٣٧٣ وما بعدها .

- وقال محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) في كتابه "كنى الشعراء" أن اسمه حارث بن حمران ابن بحر بن عصام ، وأشار عبد السلام هارون في تحقيقه لهذا الكتاب إلى ما أورده صاحب المؤتلف من أن اسمه جويرية بن الحجاج أو حنظله بن الشرقي كما في الشعر والشعراء (١).
- وقال الأمدى في "المؤتلف والمختلف" : اسمه جويرية بن الحجاج من حى من إباد (٢).
- وقال ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" : اختلفوا في اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج . وقال الأصمعي : هو حنظلة بن الشرقي . وقد علق المحقق أحمد محمد شاكر على هذه العبارة واصفا إياها بالشذوذ لأن حنظلة بن الشرقي هو أبو الطمحان القيني ووردت له ترجمة في الشعر والشعراء نفسه، كما أن الأصمعي الذي نسب إليه تسمية أبي دؤاد بحنظلة أورد لأبي دؤاد قصيدة في الأصمعيات وقال : اسمه جارية بن الحجاج (٣)
- وقال كارل بروكلمان ان اسمه : جورية بن الحجاج (٤).
- وقالت د. بنت الشاطي في شرحها لرسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري عن جمهرة الأنساب أنه جارية بن الحجاج كما أشارت إلى ما

١- محمد بن حبيب . كتاب كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه .- تحقيق عبد السلام هارون ، في نواثر المخطوطات، ج ٥، - ط ٢ .- القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣م؛ ص ٢٨٥ .
٢ . الأمدى . المؤتلف والمختلف . بيروت : دار الكتب العلمية .- ط ٢؛ ١٩٨٢، ص ١١٥ .
٣ . ابن قتيبة . الشعر والشعراء .- ج ١ .- القاهرة : دار المعارف؛ ١٩٨٢؛ ص ٢٣٧ .
٤ . كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربي .- ج ١ .- ترجمة د. عبد الحليم النجار .- ط ٥ .- القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٨٣؛ ص ١١٨ .

أورده ابن قتيبة من خلاف في اسمه (١).

○ وذكر ابن خلكان أن اسمه حارثة بن حجاج وقيل حنظلة بن شرقى (٢).

وحاصل ما تقدم أن اضطراب الرواة في ذكر اسمه يجعلنا أمام أحد

الاحتمالات التالية:

١- أن يكون اسمه حارثة أو جارية. وواضح أن الاختلاف بينهما مرجعه إلى

ظاهرة التصحيف التي كانت تسيطر على كتب التراث التي قلما ورد فيها

نقط الحروف فمبنى الكلمتين - بدون النقط - واحد هكذا (حاره) :

٢- وأن تسمية "جويرية" وهي تصغير جارية التي أوردتها الأمدى ونقلها عنه

بروكلمان تقوى احتمال أن يكون الاسم جارية لاحارثة. وقد تكون تصغير

الاسم صاحبة حقبة من حياته في أول عمره مثلا.

٣- ولا خلاف بين الرواة على أن اسم أبيه "الحجاج" وأن لقب الحجاج هذا

كان (حمران) مما جعل محمد ابن حبيب ينسبه إلى اللقب فيقول أن

اسمه : حارث بن حمران.

٤- ولا خلاف بين الرواة على أن اسمه بعد أبيه مستقيم فجده هو بحر بن

عصام.

١ . أبو العلاء المعري . رسالة الصاهل والشامج . - تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) . - ط ٢ . - القاهرة :

دار المعارف ١٩٨٤ ص ١٥٨ .

٢ . ابن خلكان . وفیات الأعيان . - ج ٥ تحقيق د: إحسان عباس، بيروت : دار صادر ١٩٧٧م ص ١٦٤ .

٥- وأما حنظلة بن شرقى فهو خطأ محض ، أو قول منسوب إلى الأصمعى دور دليل وقد نقله ابن خلكان فيما يبدو عن ابن قتيبة وإن لم ينص على ذلك صراحة .

وأما كنيته (أبو دواد) فقد أشار إليها ابن منظور^(١) فى لسان العرب فى مادة (دود) فقال : "قال بن الأعرابى : الدواى مأخوذ من الدواد وهو الخضف الذى يخرج من الإنسان . وبه كنى أو دواد الإيادى والخضف - كما قال فى اللسان أيضا - هو الضراط وأنشد :

إننا وجدنا خلفاً بئس الخلف
عبدا إذا ما ناء بالجمال خضف
أغلق عنا باباه ثم حلف
لا يُدخل البوابُ إلا من عَرَفَ

ولكننا نستبعد أن يكون هذا المعنى اللغوى البعيد عن الذوق العربى هو مصدر الكنية .

ونفيل إلى أن يكون أو دواد قد كنى بهذه الكنية لأن له ولداً اسمه دواد أشارت المصادر التاريخية الى وجوده والى أن لهذا الولد مع أبيه مواقف مشهودة سيأتى ذكرها ولعله كان أكبر - أو من أكبر - أولاده فكنى به .

١ . ابن منظور . لسان العرب . - ٢م - القاهرة : دار المعارف ؛ د .ت ؛ ص ١٤٥٠ (مادة دود) ؛ ص ١١٨٩ مادة (خضف) .

موطنه :

يبدو أن دواد بن أبي دواد كان من أكابر بني إياد الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية فقد وصفه المؤرخون بأنه كان أحد نُعَات الخيل الثلاثة المشهورين والآخران هما طغيل الغنوى والنابعة الجعدى .

قالوا : "وانما أحسن أبو دواد وصف الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن المنذر" وهناك من النصوص ما يدل على أن إيادا اختارت السكنى بأرض ما بين نهري دجلة والفرات . فقد روى الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) فى كتاب "الاختيارين" (١)

قصيدة للأخنس بن شهاب التغلبى مطلعها:

لابنة حيطان بن عوف منازل كما رُقش العنوان فى الرق كاتب
يذكر فيها بعض تنقلات قبائل العرب فى أراضى الجزيرة فيقول:
وبكر لها بر العراق ، وان تخف يحل دونها، من اليمامة حاجب
وصارت تميم بين قف ورملة لها فى حبال منتأى ومذاهب
وكلب لها خبث فرملة عالج إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب
وغسان حى، عزهم فى سواهم يجالد عنهم حسروكتائب
إلى أن يقول :

وغارت إياد فى السواد ودونها برازيق عجم تبتغى وتضارب

١ . الأخفش الأصغر (ت ٢٣٥هـ) . كتاب الاختيارين . - تحقيق د . فخر الدين قبلوة . - ط ٢ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨٤ : ص ١٤٠ .

فالمراد بالسواد هنا أرض العراق، والبرازيق واحدها برزيق وهو الموكب
بالفارسية.

كما روى الأخفش أيضا في كتابه هذا قصيدة للأسود بن يعفر النهشلي (١)
مطلعها:

نام الخلى وما أحس رقادى والههم محتضر لدى وسادى
جاء فيها :

ماذا أوئل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعث إباد؟
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرض تخيرها لبرد مقلها كعب بن ماجه وابن أم دواد

وسنداد أسفل الحيرة بينها وبين البصرة، كما جاء فى المصادر. وقد كانت
الحيرة هى عاصمة ملك المناذرة وهم من أصول عربية يمنية ترجع الى قبيلة لخم وقد
جاءوا إلى أرض العراق فى حوالى القرن الثالث الميلادى واتخذوا الحيرة مستقرا لهم
وهى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد ثلاثة أميال من المكان الذى
بنيت فيه الكوفة فيما بعد (٢).

وكانت قبيلة إباد - التى دان أكثر أفرادها بالنصرانية هم وتغلب وبكر - وقد
غادرت أرض البحرين بعد أن أجلتها عنها قبيلة عبد القيس، إلى أرض العراق بين

١ . السابق . ص ٥٥٨ .
٢ . د . يحيى الجبورى . الجاهلية . - بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٦٨ ؛ ص ٤٩ .

النهرين واستوطن الإياديون تكريت وسنداد وغيرهما من تلك البلاد الخصبة
واتخذوا الزراعة مهنة لهم .

ولم تكن الزراعة من المهن التي تتفق مع الطبيعة العربية التي تميل إلى
التجارة والرعى .

فقد كان العرب يرون فى الزراعة ذلا وهوانا لأنها كانت حرفة الحضر وأهل
الحضر المستقرين، أما أهل البادية فكانوا أهل مغامرة وفتوة . وقد عير الأعشى قبيلة
إياد بامتهان الزراعة .

فقال (١) :

لسنا كمن جعلت إياد دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا

قوما يعالج قُملاً أبناؤهم وسلاسلأ أجدا وبابا موصدا

وهذه الأبيات السابقة تدل على مساكن إياد بعامة ومساكن أبى دواد (ابن
أم دواد) وكعب بن مامة بصفة خاصة .

وذهب ابن خلكان فى ترجمته لأبى عبد الله محمد بن سنان الحرانى
التبائى الحاسب (ت ٣١٠هـ) وهو عالم فلكى قديم توفى بموضع يسمى الحضر بفتح
الحاء وسكون الضاد - وهى مدينة قديمة بالقرب من تكريت بين دجلة والفرات فى
البرية يلقب حاكمها بالساطرون - بفتح السين وكسر الطاء وضم الراء - وهو لفظ

سرياني معناه الملك، إلى أن أبادوا الإيادي ذكر في شعره حصار أردشير بن بابل أول ملوك الفرس لهذه المدينة وقتل الساطرون فقال أبو دواد (١) :

وأرى الموت قد تدلى من الـ حضر على رب أهله الساطرون
مرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون

مكانة أبي داود بين قومه :

روى الأصفهاني في الأغاني (٣٧٧/١٦) عن الأصمعي أن أبا دالود كان على خيل المنذر بن ماء السماء فأكثر وصفه للخيل . وقد كان المنذر بن ماء السماء (٥١٤ - ٥٥٤ م) من أشهر ملوك المناذرة ومحط رجال الشعراء وكان يتمتع بشخصية قوية فقد رفض الديانة المزدكية التي عرضها عليه "قباد" ملك الفرس الذين كان المناذرة يتبعونهم سياسيا مما أدى إلى عزله حتى أعاد كسرى أنو شروان الذي خلف قبادا وكان يبغض المزدكية فعاد المنذر حاكما للحيرة وعادت معه عاداته التي عرف بها مثل يومى النعيم والوُس وغيرهما.

ولاشك في أن تولية أبي دواد أمر الخيل بالنسبة لملك كالمنذر كانت دليلا على مكانة اجتماعية متميزة حظي بها هذا الشاعر الإيادي مما جعله يتفنن في نيل الحظوة بتجويد شعره وإتقان عمله، فأجاد في وصفه الخيل حتى اشتهر . وقد كان لأبي دواد ناقة تسمى الزباء وكان بنو إباد - فيما يروى صاحب الأغاني - يتبركون بها . فلما أصابتهم سنة قاحلة تفرقوا ثلاث فرق : فرقة سلكت في البحر فهلكت وفرقة قصدت اليمن الى حيث أصولها الأولى فسلمت . وفرقة قصدت أرض جيرانهم

١ . ابن خلكان . مرجع سابق ، ص ص ١٦٤ - ١٦٥ .

من قبيلة بكر بن وائل فنزلوا بالحارث بن همام وكان السبب فى ذلك أنهم أرسلوا الزبا ناقة أبى دواد التى كانوا يتبركون بها واتبعوا سيرها فحيثما اتجهت اتبعوها ومازالوا كذلك حتى بركت فى فناء الحارث بن همام وكان أكرم الناس جوارا فقال أبو دواد يمدحه ويذكر ناقةه الزباء:

فإلى ابن همام بن مرة أصعدت ظعن الخليط بهم فقل زيالها
أنعمت نعمة ماجد ذى منة نصبت عليه من العلا أظلالها
وجعلتنا دون الولى فأصبحت زباء منقطعا إليك عقاله

ويبدو أن أبا دواد لم يتبوأ تلك المكانة فى قومه إلا بعد أن ظهرت عليه مخايل الفروسية وأمارات الشجاعة فقد روى له أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والشاحج أبياتا تمج بالفخر والفروسية وحب ركوب الخيل يقول فيها^(١):

علقت هامتى بعض ما يم نع منى الأعنة الأقدار
وانجرادى بهن نحو عدوى وارتحالى البلاد والتسيار
تلكم لذتى الى يوم موتى إن موتا وإن عمرت قصار

١ . أنظر المرجع رقم (٦) ص ١٥٨ .

قصة جار أبي دواد :

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مكانة أبي دواد بين قومه أن نتغاضى عن البيت الشهير الذى يتردد كثيرا فى كتب التراث منسوباً إلى الشاعر قيس بن زهير العبسى وهو قوله:

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

ويروى أحيانا :

سأفعل ما بدا لى ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

وقد ورد ذكر ذلك الجار نفسه فى قول طرفة بن العبد يمدح عمرو بن هند :

إنى كفانى من هم هممت به جار كجار الحذاقى الذى انتصفا

والحذاقى هو أبو داود منسوباً إلى حذاق وهم قبيلة من إياد- فمن ذلك

الجار؟

الحقيقة أن الرواة اضطربوا فى تحديد شخصية ذلك الجار فمنهم من ذهب

إلى أنه كعب بن مامة الإيادى وهو ابن عم أبى دواد ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه

الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه المنذر بن ماء

السماء .

وقد روى الأصفهاني ثلاث قصص يبدو فيها عدم القدرة على تحديد ذلك

الجار الشهم من بين هؤلاء الثلاثة . أما ابن قتيبة فقد جعل ذلك الجار ملكا من

ملوك اليمن لجأ إليه أبو دواد، ثم جعله مرة ثانية الحارث بن همام بن مرة ، ثم نقل عن أبي عبيدة أنه كعب بن مامة ، ولم يحدد لنا كذلك إلى أى الروايات يميل .

أما أن هذا الجار المدوح هو الحارث بن همام فقد ساق ابن قتيبة فى تأييد ذلك قصة مؤداها أن قباد - ملك الفرس - أرسل جيشا بقيادة الحارث بن همام لتأديب قبيلة إياد فاستجار به قوم من إياد فيهم أبو دواد فأجارهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن قباد هذا أراد أن يفرض الديانة المزكية التى يدين بها على المناذرة فلم يفلح إزاء تشدد المنذر بن ماء السماء مما أدى إلى عزل المنزل ثم تولى كسرى أنوشروان فأعاد المنذر ملكا على الحيرة ، ولا يبعد أن يكون قباد قد جيش جيوشا أرسلها إلى الحيرة ولكن من المستبعد أن يكون الحارث بن همام إذا كان أميرا لهذه الجيش من الوهن والضعف بحيث يغيث أى مستغيث ، ويعفو عن بنى إياد - وهو مرسل إليهم كما روى ابن قتيبة - لمجرد أن أبا دواد استجاره .

وحتى إذا أجاره من القتل والتشريد فهل ستدوم بينهما العشرة حتى يصبح

مددو حاله وموصوفا بأنه خير جار ؟

وعلى فرض صحة تلك الرواية فماذا فعل أبو دواد بعد أن الت دولة قباد وعاد

المنذر بن ماء السماء ملكا على الحيرة وكان أبو دواد كما قدمنا قيما على خيله ؟ الذى نميل إليه أن تلك الرواية هشة لا تثبت لنقد ولا تقوى أمام تمحيص .

أما الأصفهاني فقد روى أن أبا دواد مدح الحارث بن همام فأعطاه عطايا

كثيرة ثم مات ابن لأبى دواد وهو فى جوار الحارث فوداه ، فمدحه أبو دواد فحلف

له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه فطربت العرب

المثل بجار أبي دواد ، وهذه أيضا قصة يبدو عليها الوهن لأن الحارث يبدو فيها شخصا أهوج سريع الانفعال ، ما إن سمع قصيدة المدح حتى أقسم ليدين كل ميت من البنين وليخلفن كل فائت من المال وكان حريا بالرواة أن ينقلوا إلينا شيئا من قصيدة تفعل هذا الفعل السحري في نفس من قيلت فيه، وهو مالا نجد له في كتب التراث أثرا.

فليس فيما بين أيدينا من مصادر أبي أبيات يمدح منها أبو دواد الحارث بن همام سوى تلك الأبيات الثلاثة التي ذكرناها سابقا في حديث ناقتة الزباء .

وأما الرواية الثانية التي ذهبت إلى أن جار أبي دواد هو كعب بن مامة الإيادي - ابن عمه- فقد أسندها ابن قتيبة إلى أبي عبيدة وأسندها الأصفهاني أيضا إلى أبي عبيدة فقال : جاور أبو دواد الإيادي كعب بن مامة الإيادي فكان إذا هلك له بغير أو شاه أخلفها .

وهذه الرواية ليست ببعيدة فقد روى الأصمعي في الأصمعيات قصيدة أبي دواد الشهيرة الت مطلعها:

منع النوم ماوى التهمام وجدير بسالهم من لا ينام
والتي منها بيته الشهير :

لا أعد الإقتار-عدما ولكن فقد من قد رزئته الإعدام
ومنها يعتب على ابن عمه كعب بن مانه فيقول:

وأتاني تقحيم كعب لى المن طوق أن النكتية الإقحام
فى نظام ما كنت فيه فلاير زتك شيء ، لكل حسناء نام

ولقد رابنى ابن عمى كعب أنه قد يروم مالا يرام

فإذا صح أن جار أبى دواد المقصود هو ابن عمه كعب بن مامة الإيادى ، فلا يبعد أن يكون هذا العقاب الذى ورد فى هذه القصيدة الأصمعية مما يكون بين الجيران والأصبة ممن يعرف بعضهم أقدار بعض، ولا يبعد أن تكون هذه القصة أعنى قصة مجاورة أبى دواد لكعب بن مامة وتعهد كعب بأن يخلف ما يتلف من ابن أبى دواد- مما ألف الرواة أن يصطنعوه إذا ما اشتهر علم من الأعلام بصفة من الصفات ، وكان كعب بن مامة ممن سار ذكرهم فى بلاد العرب واشتهروا بالجد والكرم فقد أثر رفيقة النمرى بالماء ومات عطشا ف ضرب بالمثل فى الكرم والتضحية (مجمع الأمثال ١/١٦٢) ومن ثم فلا يبعد أن يسند الرواة إليه كثيرا مما يقابلهم من قصص الرؤءة والشهامة .

وأما القصة الثالثة التى جعلت المنذر بن ماء السماء هو جار أبى دواد المعنى فى البيتين المنسوبين الى قيس بن زهير وطرفه فقد ساقها الأصفهاني فقال :

" كان أبو دواد الإيادى الشاعر جارا للمنذر بن ماء السماء .

وإن ابا دواد نازع رجلا بالحيرة من بهراء، يقال له رقبة بن عامر بن كعب بن عمرو، فقال له رقبة : صالحنى وحالفنى .

فقال أبو دواد : فمن أين تعيش إباد إذا ، فوالله لولا ما تصيب من بهراء لهلكت ، وانصرفا على تلك الحال .

ثم إن أبا دواد اخرج بنين له ثلاثة فى تجارة الى الشام ، فبلغ ذلك رقبة البهرانى ، فبعث الى قومه فأخبرهم بما قال له أبو دواد عند المنذر ، وأخبرهم أن

القوم ولد أبى دواد ، فخرجوا إلى الشام، فلقوهم فقتلوهم ، وبعثوا برءوسهم إلى رقبة فلما انته الرءوس صنع طعاما كثيرا، ثم أتى المنذر ، فقال له : لقد اصطنعت لك طعاما كثيرا، فأنا أحب أن تتغذى عندى ، فأتاه المنذر وأبو دواد معه ، فبينما الجفان ترفع وتوضع ، جاءتة جفنة عليها بعض رءوس بنى ابى دواد، فوثب وقال : ابيت اللعن ! إنى جارك ، وقد ترى ما صنع بى ، وكان رقبة ايضا جارا للمنذر. فوقع المنذر منهما فى سوءة ، وأمر برقبة فحبس ، وقال لأبى دواد : أما يرضيك توجيهى بكتيبتى الشهباء والدوسر إليهم ؟

قال : بلى .

قال : قد فعلت . فوجه إليهم بالكتيبتين .

فلما بلغ ذلك رقبة قال لامراته : ويحك ! ألحقى بقومك فأنذريهم ، فعمدت الى بعض إبل زوجها فركبته ، ثم خرجت حتى أتت قومها ، فلما قربت منهم تعرت من ثيابها ، وصاحت وقالت : أنا النذير العريان ، فأرسلتها مثلا ، فعرف القوم ما تريد ، فصعدوا إلى أعالي الشام ، وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدا ، فقال المنذر لأبى دواد : قد رأيت ما كان منهم، وأنا أدى كل ابن لك بمئتى بعير، فأمر له بست مئة بعير، فرضى بذلك ، فقال فيه قيس بن زهير العبسى :

سأفعل ما بدا لى ثم آوى إلى جارك جارا أبى دواد

وهذه القصة الثالثة كما هو واضح فيها كثير من الغلو، وإن كانت توافق كثيرا من الطبائع العربية الحادة، ولا تخالف الواقع التاريخي الذي عاش فيه أبو دواد مقربا من المنذر بن ماء السماء والجمع بين الروايات الثلاث ليس عسيرا .

فلنا أن نتخيل أن أبا دواد وقومه نزلوا بالحارث بن همام في أول مقدم قبيلتهم من البحرين مهزومين مطرودين على أيدي قبيلة عبد القيس، فأكرم وفادتهم وقضى حاجاتهم وأخلف بعض ما تلف من أموالهم .

وقد مدحه أبو دواد على حسن جواره فتناقل الرواة بعض هذا المدح الذي لم يعد له بين أيدينا وجود يذكر باستثناء تلك الأبيات الثلاثة التي اشرنا إليها عند حديثنا عن ناقة أبي دواد (الزباء) التي بركت في فناء الحارث بن همام ، ثم زالت تلك العلاقة لأية أسباب طرأت أو إذا صح ما روى من أن الحارث كلف محاربة بني إباد لحساب ملك الفرس "قباد" . فلما عاد الملك إلى المنذر عاد بنو إباد ليعيشوا في كنفه .

وأما أن يكون جار أبي دواد المقصود هو كعب بن مامة فهذا ما نستبعده لكونه ابن عمه . والعرب لا تصف الكريم ذا المروءة بأنه (جار) فلان إلا إذا كان الجوار هو العلاقة الوحيدة بينهما كما هو الحال بين أبي دواد والمنذر، أو أبي دواد والحارث . ولعل أبا دواد مدح الثلاثة فتناقل الرواة أخبار مديحة إياهم ثم سمعوا بقصة دفع أحدهم دية أولاده أو إخلاف ما تلف من ماله، فجعلوا كعبا مرة وجعلوا الحارث مرة ثانية وجعلوه المنذر مرة ثالثة .

وكل من الثلاثة من ممدوحى أبى دواد وليس الجوار بالأمر اليسير عند العرب
فقد كان من مفاخرهم حماية الجار وبخاصة إذا كان ذلك الجار غريبا لا بدقوم
أو استعاز بهم أو استنصرهم فقد كانوا يبذلون فى سبيل حمايته كل ما يستطيعون
من قوة .

وقد كان أبو دواد نفسه ممن يرعون حرمة الجار فهو يفخر بذلك فيقول عن
قومه (١) :

أرى جارنا آمنا وسطنا يروح بعقد وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب

والعناج عروة فى أسفل الدلو من باطن تشد إلى أعلى الكرب، فإذا انقطع
الحبل أمسك العناج الدلو حتى لا يقع فى البئر، والكرب هو الحبل الذى يربط به
الدلو وقد يثنى ويثلىث تقوية له، فهو يعنى بهذا شدة عنايتهم بالعهد الذى يربطهم
بجيرانهم .

وفى موقف آخر نرى أبا دواد يعاتب بعض قومه من بنى كعب وعمرو فيذكر
أنهم لم يحفظوا له ما ينبغى من حقوق الجوار فيقول (٢) :

كنت جارا لكم فأشتمت النا س بى اليوم آل كعب وعمرو
شركم حاضر ودركم در فردوس من الأرانب بكسر

١ . انظر ابن قتيبة (المرجع رقم ٤) ، ص ٢٤٠ .

٢ . انظر المرجع رقم (٦) ، ص ٥٢٢ .

فلا غرو إذا كان أبو داود يرعى للجوار هذه المنزلة، أن يكون هو نفسه خير مداح لمن يحسن جواره ويرعى حرمة سواء أكان ذلك الجار هو سيدة ومليكة المنذر أو ابن عمه كعبا أو الحارث بن همام.

شاعرية أبي داود :

تدل النصوص التي وصلت إلينا من شعر أبي داود ، ومن أقوال نقاد الشعر ورواته عنه على أنه كان شاعرا مجيدا مطبوعا . إلا أن الرواة لم يتوسعوا في رواية شعره لأن لغته ليست بنجدية كما نقل ابن قتيبة عن الأصمعي .

ويروى ابن قتيبة أيضا أن الحطيئة حين سئل من اشعر الناس ؟ قال : الذي يقول:

لا أعد الاقتار عدما ولكن	فقد من قد رزئته الإعدام
من رجال من الأقارب فادوا	من حذاق ، هم الروس الكرام
فيهم للملايين أناة	وعُرام إذا يراد العرام
فعلى إثرهم تساقط نفسى	حسرات ، وذكرهم لى سقام

وهذه القصيدة أجود شعره، ويستجاد منها قوله فى صفة إبلة:

إبلى الإبلى لا يحوزها الرا	عون، مج الندى عليها المدام
سمنت فاستحش أكرعها، الـ	ننى ننى ولا السنم سنام .
فإذا أقبلت نقول : إكام	مشرفات ، بين الإكام إكام .
وإذا أعرضت تقول : قصور	من سنماهيح فوقها أطام

وإذا ما فـجئـتـها بطن غيـث قلت : نـخل قـدحـان مـنـها صـرام
فهي كالبيض في الأداحي، مايو هـب مـنـها لـمـسـتـم عصام

وقد شهد لأبي دواد في مقدرته الفذة على وصف الخيل كل من الأصمعي وأبي عبيدة وهما من أعلام اللغويين المتذوقين فقد قال الأصمعي فيما يروى صاحب الأغاني : "ثلاثة كانوا يصفون الخيل، لا يقاريهم أحد : طفيل ، وأبو دواد ، والجعدى فأما أبو دواد فإنه كان على خيل المنذر (بن ماء السماء) . وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل الى أن كبر، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من اشعار الشعراء فأخذ عنهم " .

وقال أبو عبيدة : " أبو دواد أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام وبعده طفيل الفتوى والنابعة الجعدى " .

ونقل صاحب الأغاني عن ابن الأعرابي قوله : "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبو دواد" .

وقد شهد لأبي دواد بالقدرة الفنية علم لغوى آخر هو أبو الأسود الدؤلى فقد روى الأصفهاني أن الإمام عليا كرم الله وجهه كان من عادته أن يفطر الناس في رمضان، وكان من عادته إذا فرغ الناس من العشاء، أن يتكلم معهم قليلا أو كثيرا وحدث ذات ليلة أن اختصم الناس حتى ارتفعت أصواتهم في اشعر الناس .

قال الإمام على لأبي الأسود الدؤلى : قل يا أبا الأسود .

فقال أبو الأسود الدؤلى - وكان يتعصب لأبي ال دواد - : اشعر الناس الذى

يقول:

ولقد اغتدى يدافع ركنى أهونى ذو ميعة إضريح
مخلط مزيل مكرمفر منفح مطرح سبوح خروج
سلهب شرجب كأن رماحا حملته وفى السراة دموع

فهو يصف حصانه فى هذه الأبيات ذات الكلمات الغليظة بأنه حصان
متمرس يحسن الجرى ويتفنن فيه، ويحسن مسابقة الخيل، وينتقل فى جرية من
حال إلى أحسن حال منها .

وقد نقل الأصفهاني أيضا شهادة الحطيئة لأبى دواد بأنه أشعر الناس تلك
التي ذكرها ابن قتيبة، ومن مجموع هذه الشهادات يظهر لنا أن أبا دواد كان يتمتع
بسمعة فنية طيبة حتى بعد عصره بعهد طويل .

أسرة أبى دواد :

يبدو أن أبا دواد كان مزواجا وكان ذا أسرة كبيرة، فقد سبق أن ذكرنا أن
ثلاثة من أبنائه قتلهم رقبة البهرائي ووداهم المنذر بن ماء السماء كما سبق أن
أشرنا إلى أنه كنيته من المرجح أن يكون قد كنى بها بعد أن كبر ابنه دواد الذي
أصبح بدوره شاعرا، وقد روى له صاحب المؤتلف والمختلف أبياتا قال إنه رثى بها
أخاه هي قوله^(١) :

فبات فينا وأمسى تحت هادية يا بعد يومك من ممسى واصباح
لا يدفع السقم إلا أن يسقيه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

١ . انظر المرجع رقم (٣) ص ١١٦ .

لا يصحب الغى إلا حيث فارقه إلى الرشاد ولا يصغى إلى اللاجى
إلا أن الأصفهاني فى جعل هذه الأبيات فى رثاء أبيه دواد وروى منها
بيتين فقط هما:

فبات فينا وأمسى تحت هائرة ما بعد يومك من ممسى واصباح
لا يدفع السقم إلا أن نفديه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح
وواضح أن فيهما تصحيفا أو تحريفا .

ومما جعلنا نقول أن أبا دواد كان مزوجا تلك الروايات التى ساقها من
أرخوله عن خلافاته مع زوجاته .

فقد روى أن زوجة أم دواد ماتت وتزوج غيرها وكان دواد قد اصبح شابا فتيا
فأولعت به زوجة أبيه التى كانت مخطبة عند أبي دواد ، فأرادت أن تكيد لدواد
فأمرت أباه أن يطرده من منزله فخرج به وقد اردفه خلفه الى أرض جرداء ليس
فيها شيء ، فألقى سوطه متعمدا وقال : أى دواد • أنزل فناولنى سوطى، فنزل،
فدفع أبو دواد بعيرة بعيدا عنه ثم قال يخاطبه :

أدواد إن الأمر أصبح ما ترى فانظر دواد لأى أرض تعمد؟
فقال له دواد : على رسلك .

فتمهل فى سيره فقال له دواد :

وبأى ظنك أن أقيم ببلدة جرداء ليس بغيرها متلدد؟

فرجع إليه وقال له : أنت والله أبنى حقا . ثم رده الى منزله . وطلق امرأته .

وروا أنه كان متزوجا من امرأة يقال لها أم صبير فكانت تلومه على إنفاقه المال في المكرمات وبذله للأقربين والمحتاجين فلم يكن يسمع لومها فساءت بينه وبينها العلاقات حتى هجرته وفي هذه الزوجة يقول من قصيدة له :

في ثلاثين نـعـذـعـتـها حـقـوق أصـبـحـت أم حـبـتـر تـشـكـونـي
زعمت لي بأنني أفسد المـا ل وأزويـه عن قـضـاء دـيـونـي
أملت أن أكون عبداً لمالـي وتـهـنـا بـنـافـع المـال دـونـي
ويقول فيها من قصيدة أخرى:

حاولت حين صرمتني والمرء يعدز لا محاله
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعـالـه
والمرء يكسب ماله والشح يورثه الكلاله
والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة
والسكت خير للفتى فالحين من بعض المقالة

وقد روى الأصفهاني ما يدل على أن أسرة أبي دواد ربما عقدت فيما بينها جلسات لمطارحة الشعر فمن ذلك ما رواه فقال:

بينما أبو دواد وزوجته وابنه وابنته على ربة، وإياد إذ ذاك بالسواد ، إذ خرج ثور من أجمة ، فقال أبو دواد :

ويدت له أذن تـوج س حرة وأحـم وأرد
وقوائـم عـوج لـها من خلفها زمع زوائد

كمقاعد الرقباء للضرب رباء أيديهم نواهد

ثم قال : أنفذى يا أم دواد ، فقالت :

وبدت له أذن توجـ س حرة وأحم مولق

وقوائـم عوج له من خلفها زمع معلق

كمقاعد الرقباء للضرب رباء أيديهم بألق

ثم قال : أنفذ يا دواد ، فقال :

وبدت له أذن توجـ س حرة وأحم مرهف

وقوائـم عوج لها من خلفها زمع ملفف

كمقاعد الرقباء للضرب رباء أيديهم تلقف

ثم قال : أنفأى يا دودة .

قالت : وما أقول مع من أخطأ .

قالوا : ومن أين أخطأناه ؟

قالت : جعلتم له قرنا واحدا ، وله قرنان .

قالوا : فقولى .

قالت :

وبدت له أذن توجـ س حرة وأحمتان

وقوائـم عوج لها من خلفها زمع ثمان

كمقاعد الرقباء للمضرب رباء أيديهم دوان

اللغة - توجس : تسمع إلى الصوت الخفى ، وحرّة : صادقة السمع مرهفة .
والأحم : القرن الأسود .
والوارد : الطويل .
الزمع : الشعر الذى فى مؤخرة رجلي الشاه أو الظبى ، واحدته زمعة .
الرقباء : الذين يمسكون عيونهم وينظرون سمات القداح . والضرباء : الذين
يضربون القداح .
يريد بالانفاذ هنا : محاكاة شعره مع تغيير الكلمة الأخيرة منه، تمرينا على
القول ، والتمرس بالقوافى .
فهل تكون هذه السطور دعوة للقراء والباحثين لبذل مزيد من الجهد لتجلية
تراثنا العظيم المجهول ؟

جانب مجهول من شخصية معروفة

ابن خلكان شاعراً

حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام فيضعه حيث طارت شهرته ، ويغفل وضعه في مجالات أخرى برع فيها وأبدع ، يكون هذا مقبولاً على مضض ، فمثلاً يقدم التاريخ إلينا ابن سينا على أنه طبيب بارع ، وأحياناً على أنه فيلسوف ونادراً ما يقدمه إلينا على أنه شاعر مجيد أيضاً .

ولكن حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام ، ويكون هذا العلم مؤرخاً صناعته تدوين التاريخ ، نجد أنفسنا أمام موقف غريب يثير الضحك الحزين أو الحزن الضاحك إن جاز التعبير .

فمن المعروف أن كتاب " وفيات الأعيان " - بفتح الواو والفاء - لابن خلكان من أشهر كتب التراجم في تراثنا العربي ، ذلك أنه تميز من دونها بميزات عديدة منها أنه ترجم لمساحات زمنية واسعة قد تصل إلى ستة قرون من الزمان ومنها أنه كان يهتم بذكر تواريخ الميلاد والوفاة ، ومنها أنه كان يتحرى الصدق في الروايات التي ينقلها عن سبقوه ، ومنها أنه كان يذكر البارعين المشاهير في مجالات مختلفة ، فلا يترجم لفئة دون فئة كما فعل بعض سابقيه ممن اهتموا بالترجمة للشعراء فقط أو للمفسرين فقط أو لرجال الحديث فقط .

وقد نال ابن خلكان عناية تليق بمكانته كمؤرخ متميز بين المؤرخين حققها بكتابه ذاك ، وبمنهجه العلمي السديد الذي ألزمه فيه ، وقد حظي كتابه باهتمام لاحقيه من المؤرخين فنهلوا من معينه ، واعترفوا له بالفضل والسبق والإجادة ، وإن كان لم يسلم – كغيره من العلماء – من الطعن والغمز سواء في منهجه العلمي أو على مستوى سلوكه الشخصي ، ولعل هذا راجع إلى الحسد الذي أشار الإمام الغزالي في كتابه "أصناف المغرورين" إلى أنه يكون بين العلماء .

ولعل الجانب المجهول من حياة ابن خلكان هو كونه شاعراً بل لقد كان شاعراً رقيقاً وظريف المعاني ، جيد السبك ، مستريح القافية ، تبدولغته الشعرية في غاية الروعة والرقّة ، وليت التاريخ – الذي كان صناعته – قد حفظ لنا هذا الجانب المشرق من جوانب شخصية ابن خلكان .

وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأربلي ويكنى بأبي العباس ، قال عنه الزركلي في الإعلام (٢٢٠/١) هو المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر كتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً .

ولد في أربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي ، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة ، وتولى نيابة قضائها وسافر إلى دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، ثم عزل بعد عشر سنين ، فعاد إلى مصر وأقام بها سبع سنين ثم أعيد قاضياً للشام ، ثم عزل بعد مدة وتفرغ للتدريس في كثير من مدارس دمشق حتى توفي بها سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وكان مولده سنة ثمان وستمائة .

ومن النماذج القليلة التي أوردها صاحب " الوافي بالوفيات " في ترجمته لابن خلكان ، والتي أثبتتها في مقدمة المجلد الأول محقق كتاب " وفيات الأعيان " نستطيع أن نتبين شاعرية ابن خلكان التي لا يعرفها الكثيرون ، ونستطيع استنتاج أن هذا المؤرخ الفذ ، لو أتيح لنتاجه الشعري أن ينتشر لفاق كثيراً من كبار الشعراء الذين نعرفهم وقد يكون من السائغ أن نسأل عن سبب خمول ذكر ابن خلكان شاعراً ، ولكن المؤكد أننا لا نملك إجابة قاطعة على هذا السؤال وإن كانت هناك احتمالات يمكن أن نقدمها :

الاحتمال الأول :

أن الرجل كان عالماً كبيراً بدأ حياته بسماع صحيح البخاري بمدينة أربل من ابن مكرم الصوفي ، وتلمذ لعدد كبير من مشاهير العلماء الذين أدركهم كالمؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وغيرهما ، كما أنه اشتغل بالتدريس والتأليف وقد شاعت في تراثنا القديم فكرة تذهب إلى التعارض بين العلم والشعر استشهد عليها القدماء بقول القائل (وينسب أحياناً للإمام الشافعي)

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومرجع هذه الفكرة إلى تلك المفاهيم الخاطئة التي سادت العقلية العربية وربطت بين الجن وقرض الشعر. الأمر الذي استوجب أن ينفي القرآن الكريم الشاعرية عن محمد ﷺ لأن الوحي منزل من عند الله ﷻ ، وما يوحى به الشياطين لأوليائهم هو الكذب والعبث ، فكان من مظاهر التقوى أن تنزه العلماء عن قول الشعر وهذا خطأ جسيم .

الاحتمال الثاني :

أن الرجل عمل بالقضاء سنين عدداً ، ولنصب القاضي أو قاضي القضاة هيبته ورهبته التي تمنع شاغله من أن يكون كآحاد الناس ، وتتطلب منه قدراً من الوقار الذي يلائم منصبه الديني الخطير .

الاحتمال الثالث :

أن الرجل وقد عرف عنه أنه عاش ميسور الحال كريم الموضع، عظيم المكانة في قلوب القيادة الحاكمة ، وفي قلوب الجماهير ، لم يكن راغباً في تحقيق شهرة عن طريق الشعر ، فكان يستمع إلى الشعراء بمدحونه ، وقد يكافئهم ، وإذن فمن العسير عليه أن يقف مادحاً بين يدي ملك أو وزير أو أمير .

ويؤيد أحد هذه الاحتمالات ، أو يؤيدها جميعاً ، أن النماذج التي بين أيدينا من شعر الرجل كلها من الشعر الوجداني العاطفي الرائع لا تشتم منها رائحة مدح ولا تلمس فيها أثراً للسياسة .

ويستطيع قارئ شعر ابن خلكان أن يلحظ ملمحين بارزين من ملامح شعره

هما :

أولاً : التضمين .

ثانياً : سهولة العبارة مع جودة المعنى .

أما التضمين فهو إيراد اقتباس بنصه ووضعه في القصيدة بحيث يبدو كما لو كان جزءاً منها وهو ليس له ، وقد سبقه في هذا كثيرون ، ولكن التضمين نادراً ما يكون دقيقاً رقيقاً على النحو الذي نجده عند شاعرنا .

فمن ذلك قوله يصف ثلة من الغيد يلهون ويسبحن في غدير مياه حيث يقول :

وسربِ ظبساءٍ في غديرٍ تخالهم
يقول عذولي والغرام مصاحبي
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى
بدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ
أمالك عن هذي الصبابة مذهبُ؟
فقلت له " ذرهم يخوضوا ويلعبوا "

(المطلول : المسفوك بلا ثمن)

فهو هنا يضمن شعره جزءاً من آية قرآنية كريمة :

﴿ فَذَرَهُمْ مَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ (١)

والصورة الشعرية مع ذلك متماسكة جيدة التركيب ، فقد شغفه حب أولئك

الغيد ، وهن لاهيات عنه عابثات بمشاعره فتخيل هو وتخيل عذوله أن الماء الذي

يسبحن فيه هو من دمه الذي سفكه عشقه إياهن .

ومن ذلك تضمينه للقول المأثور في قوله يصف غلاماً :

انظر إلى عارضه فوقه لحاظه ترسل منها الحتوفُ

تشاهد الجنة في وجهه لكنها تحت ظلال السيوفُ

ومنه في نفس المعنى وهو يضمن من القرآن الكريم :

لما بدا العارض في خده بشّرت قلبي بالنعيم المقيمُ

وقلت هذا عارضٌ ممطر فجاءني فيه العذاب الأليم
ويقول مضمناً شطريبت لأبي تمام :
كم قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغضّ دوحة آس
لعذاره الساري العجول بخده "ما في وقوفك ساعةً من باس"
فالشطرن الثاني من البيت الثاني ، هو الشطر الأول من مطلع قصيدة مشهورة
وقف أبو تمام يمدح فيها الخليفة العباسي فقال :
ما في وقوفك ساعةً من باسٍ تقضي حقوق الأربع الأدراس
ويروي الرواة أنه لما وصل إلى قوله في وصف مناقب الخليفة :
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء اياس
قال له بعض الجالسین من المنافقين : كل من شبهت الخليفة بهم أقل منه
شأناً ، فأطرق أبو تمام ثم ارتجل مباشرة :
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فأله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
على أن لابن خلكان أشعاراً فريدة في حسنّها ، معانيها مبتكرة ، والتمكن
فيها من الموهبة واضح ، فمن ذلك قوله يصف معاناته بعد فراق الأحباب :
وما سر قلبي منذ شطت بك النوى نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متصرفُ
ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته سوى ذلك الماء الذي كنت أعرفُ

فالببيت الثاني من هذين البيتين غاية في دقة وصف مشاعر المحب المهجور :
حين تسود في وجهه الدنيا ويتساوى عنده الحزن والفرح ويصبح في حالة كانعدام
الوزن أو هي أسوأ ، فيتغير لون الأشياء ويتفق طعمها ، بل ربما تفقد حواسه القدرة
على التمييز.

ومن ذلك قوله :

كأنني يوم بان الحي من أضـم
ورقاء ظلت لفقد الإلف ساجعةً
يا جبرة الحي هل من عودة فعسى
إذا ظفرت من الدنيا بقربكم
والقلب من سطوات البين مذعور
تبكي عليه اشتياقاً وهو مأسور
يفيق من نشوات الشوق مخمور
فكل ذنب جناه الدهر مغفور

إن ابن خلكان عاشق متيم ، ومحـب مدله موله ، ولكن شعره العاطفي
يختلف عن شعر غيره من المحبين الشعراء ، فهو يتغزل في محبوبه فيبتكر المعاني
ابتكاراً ، ويصطنع الصور الفنية فيحكم صوغها ، ثم هو بعد ذلك لا يتهتك ولا
يستعطف ، ولا يتذلل ، بل يثبت محبوبه أشواقه وهيامه مرتفع القامة أو قل أنه لا
يتذلل لمن يتدلل بل يتعلل بالذكرى ، ويرتوي بسيرة المحبوب الذي هاجر ، كل ذلك
في ثوب قشيب من الصور وقصيدته التالية خير مثال مستدل به على أنه كان حرياً

بشعر هذا الشاعر أن يكون له صدىً بعيد المدى لولا أن طغت عليه شهرته كقاض ومؤرخ ، وفي هذه القصيدة يقول :

أي ليل على المحب أطالـه
يزجر العيس طاوياً يقطع المَهْمَه
أيها السائق المجد ترفق
وأنخها هنيهة وأرحها
لا تطل سيرها العنيف فقد برح
سائق الظعن يوم زمّ جماله
عسفاً سهوله ورماله
بالمطاييا فقد سئمت الرحالة
قد براها السرى وفرط الكلالة
بالصـب في سـراها الإطالـه

إن الشاعر في هذه الأبيات يصف حالة الإبل التي نقلت متاع المحبوب وأهله وهاجرت بهم إلى بلاد لا يعلمها ، وهو هنا يناشد سائق الإبل أن يتفرق بهذه الإبل الجائعة الكليلة المرهقة التي لا تستريح ، بل تجد في سيرها كان لها غاية تريد أن تبلغها سريعاً فهي تصل الليل بالنهار حتى سئمت الارتحال والسير . هل يصف الشاعر هنا حالته هو نفسه ؟ ويتخذ من الحالة النفسية للإبل معادلاً موضوعياً لآلامه النفسية لابد أن الأمر كذلك ، فقد أسفر الشاعر في البيت الأخير عن التوحد

القام بينه وهو الصب المغرم وبين الإبل ، فالإبل تسير وتتألم وهو أيضاً يتألم كلما طال بها السير واشتد بها العذاب .

ثم ينتقل الشاعر إلى خطاب سائق الإبل لعله يرق لحاله فيعود بالمحبيب فيصف لنا نفسه بأنهم تركوه حليف الوجد والهـم يطوف بديار المحبوب الخالية يندب أيامه وذكرياته ويسأل هذه الأطلال التي استحالت خراباً عن محبوبه ، وهو يدرك أن الأطلال المحيلة لن تجيب له سؤالاً ، ولكنه يقنع نفسه بمجرد الوقوف عندها والتأمل فيها ويذرف الدموع غزارة حسرة وألماً على حاله:

وتـركـتم ورائـكم حـلف وجـد
يسأل الربيع عن ظباء المصلى
ومحـال مـن المحـيل جـواب
هـذه سـنة المحـبين يـبـكـون
يا ديار الأحيـاب لا زالت الأذ
وتمشي النسـيم وهـو عـليل
أين عيش مـضى لـنا فيـك ما أسـ
حيث وجـه الشـباب طـلق نـضـير
نادبـاً في محـلكم أطلالـه
ما على الربيع لو أجاب سـؤالـه
غـير أن الوقـوف فيـه علـالـة
على كل منـزل لا محالـة

مُـعُ في تـرب سـاحتـيك مـذالـة
في مـغـانـيـك سـاحـباً أـذيـالـه
سـرع عـنا ذـهابـه وزوالـه
والـتـصـابـي غـصـونـه مـيالـة

إن الشاعر يتحسر على ذكرياته في هذه الأماكن حتى إنه ليتمنى أن يعيش
صورة ماضيه ولو في منامه حيث يستمتع للحظات بصور فاتنة ما أكثر ما استمتع
بها في عالم الحقيقة :

ولـنا فيـك طـيب أوقـات أنـس
وبأرجاء جـوـك الرـحـب سـرب
مـن فتـاة بـديعة الحـسن تـرنـو
ورخـيم الـدلال حـلـو المعـاني
لـيتـنـا في المـنـام نـلقـى مـثـالـه
كـلُّ عـين تـراه تـهـوى جـمالـه
مـن جـفـون لـحـاظـها مـغـتـالـة
تـتـنـى أعـطـافـه مـخـتـالـة

أولم نقل إن شعر هذا الشاعر كان خليقاً بأن يهيئ له مكاناً مرموقاً بين
الشعراء المجيدين ؟ وكما رأينا فإن معظم النماذج التي وصلتنا من شعره وجدانية لا
تتزلف حاكماً ولا تنافق أميراً ولا وزيراً ولا كبيراً ، بل إنه يصف - فقط - معاناته
العاطفية الخاصة ولا يتبقى إلا أن نشير إلى الاضطراب الذي يرتبط بضبط اسم ابن

خلكان ، فقد روى صاحب “روضات الجنات ” أن اسمه ينطق بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة ، أو بضم الخاء وفتح اللام المشددة ، أو بكسر اللام والحاء جميعاً وجاء في التاج أنه بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة ، وهو ما نستريح إليه لاتفاق روايتين حوله ، كما أنه يقترب من الأسماء الفارسية وقد سبق أن أشرنا إلى أنه من ذرية البرامكة .

بن عبدل

اسم الشهرة الذي عرف به هذا الشاعر هو الحكم بن عبدل الأسدي ثم الغاضري الكوفي. أما تمام اسمه ونسبه فهو الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة ابن عقال بن بلال بن سعد بن حبال بن نصر بن غاضرة ابن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة الأسدي ثم الغاضري الكوفي وهو شاعر مشهور القول، مجيد هجاء. نفاه ابن الزبير من العراق لما نفى عنها عمال بني أمية وقدم دمشق. وكان له من عبد الملك بن مروان موضع. وقال ابن مأكولا: هو الشاعر الأعرج، كوفي مشهور. قال غيره قال: كان يأتي ابن بشر فيقول له: أخمس مائة أحب إليك العام، أم ألف في قابل؟ فيقول: ألف في قابل. وإذا أتاه من قابل، قال له: ألف أحب إليك العام أم ألفان من قابل؟ فيقول: ألفان من قابل، قال: فلم يزل كذلك حتى مات ابن بشر ولم يعطه شيئا. وقال صاحب الأغاني: كان أعرج أحذب لا تفارقه العصا. فترك الوقوف بباب الملوك. وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله، فلا يحبس له رسول ولا تؤخر له حاجة. فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكم في الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آية... فهذي لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرصاة منها ويرهب

وشاعت هذه الأبيات بالكوفة، وضحك منها الناس. فكان الحكم يقول ليحيى: يا بن الزانية، ما أردت من عصاي حين صيرتها ضحكة؟ واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل أولاً. وكان له صديق أعمى يدعى أبو عليّة، وكان ابن عبدل قد أقعد. فخرجا ليلة من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما والحكم يحمل وأبو عليّة يقاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة وأخذهما فحبسهما، فلما استقرا في الحبس، نظر الحكم إلى عصاه موضوعة بجانب عصا أبي عليّة فضحك وقال:

حبسي وحبس أبي عليّة من أعاجيب الزمان
أعمى يقاد ومقعدٌ لا الرّجل منه ولا اليدان
هذا بلا بصر هناك وبني يخبُّ الحاملان
يا من رأى ضبّ الفلاة قرين حوتٍ في مكان
طرفي وطرف أبي عليّة - دهرنا - متوافقان
من يفتخر بجواده فجوادنا عكّازتان
طرفان لا علفاهما يشرى ولا يتصاولان

وقال أيضاً من أبيات:

ففي حالتينا عبرةً وتفكُّر وأعجب منه حبس أعمى ومقعد
كلانا إذا العكّاز فارق كفه يخرُّ صريعاً أو على الوجه يسجد
فعكّازه تهدي إلى السُّبل أكمهاً وأخرى مقام الرّجل قامت مع اليد

وكان بالكوفة امرأة موسرة، وكان لها على الناس ديون بالسَّواد. فاستعانت بابن عبدل في دينها، وقالت: إني لست بزوج. وجعلت تعرّض بأنّها تزوجه نفسها. فقام ابن عبدل في دينها حتى اقتضاه. فلما طالبها بالوفاء، كتبت إليه:

سيخطئك الذي حاولت مني فقطّع حبل وصلك من حبالِي
كما أخطاك معروف ابن بشر وكنت تعدّ ذلك رأس مال
وضرب الحجاج البعث على المحتملين ومن أنبت من الصّبيان. وكانت
المرأة تجيء إلى ابنها فتضمنه وتقول: يا ابني جزعاً عليه، فسمّي ذلك الجيش جيش
با ابني. وأحضر ابن عبدل وجرد، فوجد أحذب أعرج، فأعفي من ذلك فقال:
لعمري لئن جردتني فوجدتني كثير العيوب سيء المتجرّد
فأعفيتني لما رأيت زمانتي ووفّقت مني للقضاء المسدّد
ولست بذئ شيخين يلتزمانه ولكن يتيم ساقط الرّجل واليد
وخرج ليلةً وهو سكران، محمولاً في محفّة، فلقيه صاحب العسس، فقال له
من أنت؟ فقال له: يا بغيض، أنت أعرف بي من أن تسأل عني، اذهب إلى شغلِكَ
فإن اللصوص لا يخرجون في الليل في محفّة، فضحك الرجل وانصرف. وكانت له
جارية سوداء، فولدت له ابناً أسود، وكان أعرم الصبيان فقال فيه:

يا ربّ خال لك مسودّ القفا لا يشتكي من رجله مسّ الحفا
كأنّ عينيه إذا تشوّفا عينا غرابٍ فوق نيقٍ أشرفا
واختصم البارقي وامرأة يوماً إلى الشعبي، فقضى على البارقي وأنشأ يقول:

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها
فتنته بقوام ... ويخطي حاجبها
وبنان كالمداري ... ويحسن مقلتيها
كيف لو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ... ساجداً بين يديها
بنت عيسى بن جراد ... ظلم الخصم لديها
فقضى جوراً علينا ... ثم لم يقض عليها
قال للجلواز قدمها ... وأحضر شاهديها

وروى صاحب أخبار القضاة - (ج ١ / ص ٢٤٧) قال : جاء الشعبي
يوماً إلى قصر عبد الملك بن مروان، ففرع الباب، فقال الآذن: من هذا ؟ فقال:
الشعبي ... فقال الآذن :

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها
فقال الآذن: فتنته بقوام قال الشعبي: ويخطي حاجبها قال الآذن: كيف لو
أبصر منها قال الشعبي: خصرها أو معصمها قال الآذن: لصبا حتى تراه. قال
الشعبي: ساجداً بين يديها.
قال الآذن: تلکم بنت جراد. قال الشعبي: ظلم الخصم لديها. قال الآذن: قال
للجلواز قدمها.

قال الشعبي: وأحضر شاهديها. قال الأذن: فقضى جوراً علينا. قال الشعبي: ثم لم يقض عليها. ثم ضحك الشعبي: حتى استلقى، ثم قال: والله ما كان من هذا شيء قط. !!

وولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج وفي أحد الأيام خرج الشاعر ابن عبدل - وكان أعرج - فلقى سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألق العصا ودع التحامل والتمس عملاً فهذي دولة العرجان
فأميرنا وأمير شرطتنا معاً يا قومنا لكليهما رجلان !!
فإذا يكون أميرنا ووزيره وأنا، فإن الرابع الشيطان !!
فبلغت أبياته ذلك الأمير الأعرج فبعث له مائتي درهم وسأله أن يكف عنه.
وقيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتك في أمر من امر عشيرتي ... وأعلى الأمور المفضعات جسيمها
فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعل ... فقد تلجت نفسي وولت همومها
فقال الأمير: أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك قال: غرم لزمنا، قال: كم هو
قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف علي
التخمة إن أمتها قال: أكره أن أعود الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سراً
وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع، وإلا فالضرر واقع عليك إن عودتهم
نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين

يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: أعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلاف مهين، فأخذها وانصرف.

وقيل لما وقع الطاعون بالكوفة ومات منهم بنوزر بن حبيش العامري صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا ظرفاء وبنوعم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بنسي زرو بعد ابن جندل ... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض
مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي
وارتحل الحكم بن عبدل ذات مرة مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه
الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلة أن صارت إليه تسع مرات
أو عشرة ، فلما أصبح الصباح قالت له: جعلت فداك من أي الناس أنت ؟ قال
امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم.!!
وقال صاحب الأغاني : لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بني
مروان أخرج ابن عبدل معهم إلى الشام وكان فيمن يدخل إلى عبد الملك ويسمر عنده
فقال لعبد الملك ليلة يا ليت شعري وليت ربما نفعت * هل أبصرن بني العوام قد
شملوا

بالذل والأسر والتشريد إنهم *** على البرية حتف حيث ما نزلوا
أم هل أراك بأكناف العراق وقد *** ذلت لعزك أعداء وقد نكلوا

فقال عبد الملك بن مروان [ويروون أنه هو قائل هذا الشعر] :

إن يمكن الله من قيس ومن جرش ومن جذام ويقتل صاحب الحرم
نضرب جماجم أقوام على حنق ضربا ينكل عنا غابر الأمم
ودخل ابن عبدل يوما على عبد الملك بن بشر بن مروان فقال أصلح الله
الأمير رؤيا رأيته في المنام أقصها عليك قال هاتها فأنشأ يقول :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد *** في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك جدت لي بوليدة *** مغنوجة حسن علي قيامها
وببدره حملت إلي وبغلة *** شهباء ناجية يصل لجامها
فسألت ربك أن يثيبك جنة *** يلقاك منها بردها وسلامها
فقال كلما رأيت عندنا إلا البغلة الشهباء الناجية فإن التي عندنا دهماء
فارهة

فقال ابن عبدل : امرأتي طالق إن كانت رأيته إلا دهماء ولكني نسيت !!
فأمر أن يحمل إليه كل ما ذكر في شعره !!

وقالوا خطب محمد بن حسان الأسدي ابنة لطلبة بن قيس بن عاصم المنقري
وقد كان ابن عبدل الأسدي أتاها وهو وال على خراسان فلم يعطه شيئا فقال يهجو:
أباع زيادٌ سود الله وجهه عقيلة قوم سادةٍ بالدراهم
لعمرك ما زوجتها من كفاءة ولكنما زوجتها للدراهم
وما كان حسان ابن سعد ولا ابنه أبوالبخر من أكفاء قيس بن عاصم
ولكنه رد الزمان على استه وضيع أمر المحصنات الكرائم

له ريقة بخراء تصرع من دنا وتنتن خيشوم الضجيع الملازم
خذي دية منه تكن لك عدة وروحي إلى باب الأمير فخاصمي

قالوا: فلما بلغ أهلها شعره أنفوا من ذلك، فاجتمعوا على محمد بن حسان حتى فارقها. قال: وكان محمد بن حسان عاملاً على بعض كور السواد، فسأله ابن عبدل حاجةً فردده عنها، فقال فيه هذا الشعر وغيره وهجاه هجاءً كثيراً. وكانت المرأة التي تزوجها معاذة بنت مقاتل بن طلحة، فلما سمعت ما قال ابن عبدل فيها نشرت على زوجها وهربت إلى أهلها، فتوسطوا ما بينهما وافتديت منه بمال وفارقها.

وحدث النضر بن شميل قال: دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو فقال أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشدته قول ابن عبدل:

إنني امرؤ لم أزل - وذاك من الله - أديبا أعلم الأدبا
أقيم بالدار ما اطمأنت بي الدا ر، وإن كنت نازحا طربا
لا اجتوي خلة الصديق ولا أتبع نفسي شيئا إذا ذهبا
أطلب ما يطلب الكريم من الرز ق بنفسي وأجمل الطلبا
إنني رأيت الفتى الكريم إذا رغبته في صنعة رغبا
والعبد لا يطلب العلاء ولا يعطيك شيئا إلا إذا رهبا
مثل الحمار الموقع السوء لا يحسن مشيا إلا إذا ضربا
ولم أجد عروة الخلائق إلا الدين لما اختبرت والحسبا
قد يرزق الخفض المقيم وما شد بعنس رجلا ولا قتبا
ويحرم الرزق ذو المطية والرح ل ومن لا يزال مغتربا

قال أحسنت يا نضر. ومن شعر ابن عبدل الذي يستشهدون به على حسن خلقه وعفته قوله :

واني لأستغني فما أبطر الغنى وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحياناً فتشدد عسرتي وأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي
وقالوا: لما وقع الطاعون بالكوفة أفنى بني غاضرة ومات فيه بنو زربن حبيش
الناصري صاحب علي بن أبي طالب، وكانوا ظرفاء، وبنو عم لهم، فقال الحكم بن
عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بني زروبعد ابن جندل وعمرو أرجي لذة العيش في خفض
مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ألا إن من يبقى على إثر من يمضي
فقد كان حولي من جبادٍ وسالم كهولٌ مساعيرٌ وكل فتى بض
يرى الشح عاراً والسماحة رفعةً أغر كعود البانة الناعم الغض
وقال أبو الفرج: ونسخت من كتاب أبي محلم قال: سأل الحكم بن عبدل أخو
بني نصر بن قعين محمد بن حسان بن سعد حاجةً لرجلٍ سألته مسألته إياها؛ فردّه
ولم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنت أراه ذا ورعٍ وقصد
يقول أمانتي ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد
فلولا كسبه لوجدت فسلاً ... لنائم الكسب شأنك شأن عبد
ركبت إليه في رجلٍ أتاني ... كريمٍ يبتغي المعروف عندي

فقلت له وبعض القول نصح ... ومنه ما أسرله وأبدي
توقّ دراهم البكري إني ... أخاف عليك عاقبة التعدي
أقرب كل آصرة ليدنوا ... فما يزداد مني غير بعد
فأقسم غير مستثنٍ يميناً ... أبا بخرٍ لنتخمن ردي
وحدث محمد بن سهل الأسدي راوية الكميت : أن الحكم بن عبدل الأسدي
أتى محمد بن حسان بن سعد التميمي وكان على خراج الكوفة، فكلّمه في رجل من
العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خواجه؛ فقال: أمانتي الله إن كنت أقدر أن
أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً؛ فانصرف ابن عبدل وهو يقول:

دع الثلاثين لا تعرض لصاحبها ... لا بارك الله في تلك الثلاثينا
لما علا صوته في الدار مبتكراً ... كأشتفان يرى قوماً يدوسونا
أحسن فإنك قد أعطيت مملكة ... إمارة صرت فيها اليوم مفتونا
لا يعطك الله خيراً مثلها أبداً ... أقسمت بالله إلا قلت آمينا

قال: فلم يضع له شيئاً مما على الرجل؛ فقال فيه:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنيت أراه ذا ورعٍ وقصد
يقول أمانتي ربي خداعاً ... أمانت الله حسان بن سعد
فما صادفت في قحطان مثلي ... ولا صادفت مثلك في معد
أقل براعةً وأشدّ بخلأً ... وألأم عند مسئلة وحمد
نحوت محمداً ودخان فيه ... كريح الجعر فوق عطين جلد
فأقسم غير مستثنٍ يميناً ... أبا بخرٍ لنتخمن ردي

فلو كنت المهذب من تميم ... لخفت ملامتي ورجوت حمدي
نكحت علي نكهة أخدري ... شتيم أعصل الأنيا ب ورد
فما يدنو إلى فمه ذبابٌ ... ولو طليت مشافره بقند
فإن أهديت لي من فيك حتفا ... فإنني كالذي أهديت مهدي

قال محمد بن سهل: وما زال ابن عبدل يزيد في قصيدته هذه الدالية حتى
مات وهي طويلة جداً. قال: واشتهرت حتى إن كان المكاربي ليسوق بغله أو حماره
فيقول: عد

أمات الله حسان بن سعد

فإذا سمع ذلك أبوه قال: بل أمات الله ابني محمداً، فهو عرضني لهذا البلاء في
ثلاثين درهماً.

وقالوا : دعا أبو المهاجر ، الحكم بن عبدل ليشرب عنده وله جارية تغني فغنت
فقال ابن عبدل:

يا أبا المهاجر قد أردت كرامتي ... فأهنتني وضررتني لو تعلم
عند التي لو مس جلدي جلدها ... يوماً بقيت مخلداً لا أهرم
أو كنت في أحمى جهنم بقعةً ... فرأيتها بردت علي جهنم
قال: فجعل أبو المهاجر يضحك ويقول له: ويحك! والله لو كان إليها سبيلٌ
لوهبتها لك، ولكن لها مني ولدٌ.

وكان عمر بن يزيد الأسدي مبخلاً، ووجده أبوه مع أمة له فكان يعير بذلك وجاءه الحكم بن عبدل الأسدي ومعه جماعة من قومه يسألونه حاجةً، فدخلوا إليه وهو يأكل تمرًا فلم يدعهم إليه، وذكروا له حاجتهم فلم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

جئنا وبين يديه التمر في طبقٍ ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا

علا على جسمه ثوبان من دنسٍ ... لؤم وجبنٌ ولولا أيره سادا

وقالوا : كان الحكم بن عبدل صديقاً لبشر بن مروان، فرأى منه جفاءً لشغلٍ عرض له، فغاب عنه شهراً، ثم التقيا فقال: يا ابن عبدل، مالك تركتنا وقد كنت لنا زواراً؟ فقال ابن عبدل:

كنت أثنى عليك خيراً فلما ... أضمر القلب من نوالك ياسا

كنت ذا منصبٍ قنيت حياي ... لم أقل غير أن هجرتك باسا

لم أطلق ما أردت بي يابن مروا ... ن ستلقى إذا أردت أناسا

يقبلون الخسيس منك ويثنوا ... ن ثناءً مدخمساً دخماسا

فقال له: لا نسومك الخسيس ولا نريد منك ثناءً مدخمساً، ووصله وحمله

وكساه.

وقالوا : تزوج ابن عبدل امرأةً من همدان فقالوا له: على كم تزوجت؟ فقال:

تزوجت همدانيةً ذات بهجةٍ ... على نمط عاديةٍ ووسائد

لعمري لقد غاليت بالمهر إنه ... كذاك يغالي بالنساء المواجد

قال: فلما دخل بها كرهها فقال:

أعاذلتي من لومٍ دعاني ... أقللا اللوم إن لم تعذراني

فإني قد دلت على عجز ... مبرقعة مـخـصبة البنان
تغضن جلدها واخضر إلا ... إذا ما ضرجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثني ... أظلتني بيوم أرونان
تحدثني عن الأزمان حتى ... سمعت نداء حرباً لأذان
فقلت قد نكحت اثنين شتى ... فلما صاحباني طلقاني
وأربعة نكحتهم فماتوا ... فليت عريف حي قد نعاني
وقالت ما تلادك قلت مالي ... حمار ظالع ومزادتان
وبوري وأربعة زيوف ... وثوبا مفلس متخرقان
وقطعة جلة لا تمر فيها ... ودناً عومة متقابلان
فقلت قد رضيت فسم ألفاً ... ليسمع ما تقول الشاهدان
وما لك عندنا ألف عتيد ... ولا تسع تعد ولا ثمان
ولا سبع ولا ست ولكن ... لكم عندي الطويل من الهوان
وقد كان الحكم بن عبد الأسد منقطعاً إلى بشر بن مروان، وكان يأنس به
ويحبه ويستطيبه، وأخرجه معه إلى البصرة لما وليها، فلما مات بشر جزع عليه
الحكم وقال يرثيه:

أصبحت جم بلابل الصدر ... متعجباً لتصرف الدهر
مازلت أطلب في البلاد فتى ... ليكون لي ذخراً من الذخر
ويكون يسعدني وأسعده ... في كل نائبة من الأمر

حتى إذا ظفرت يداي به ... جاء القضاء بحينه يجري
إنني لفي هم يباكرني ... منه وهم طارق يسري
فلأصبرن وما رأيت دوى ... للهم غير عزيمة الصبر
والله ما استعظمت فرقتة ... حتى أحاط بفضله خبري

وخرج يزيد بن عمر بن هبيرة يوماً يسير بالكوفة فانتهى إلى مسجد بني
غاضرة، وأقيمت الصلاة، فنزل يصلي، واجتمع الناس لمكانه في الطريق وأشرف
النساء من السطوح، فلما قضى صلاته قال: لمن هذا المسجد؟ قالوا لبني غاضرة.
فتمثل قول الشاعر:

ما إن تركن من الغواضر معصراً ... إلا فصمن بساقها خلخالاً
فقلت له امرأة من المشرفات:

ولقد عطفن على فزارة عطفة ... كرا المنيح وجلن ثم مجالا
فقال يزيد: من هذه؟ فقالوا: بنت الحكم بن عبدل؛ فقال: هل تلد الحية إلا
حية! وقام خجالاً.

وعن ابن عياش قال: رأيت ابن عبدل الأسدي وقد دخل على ابن هبيرة، فقال
له: أنشدني شيئاً فقال: أنشدك مقولة أيها الأمير؟ قال: هات؛ فأنشده هذه الأبيات
وهي قديمة وقد تمثل بها ابن الأشعث حين خرج، ويروي أنها لأعشى همدان -
نجم ولا نعطي وتعطي جيوشهم ... وقد ملئوا من مالنا ذا الأكارع
وقد كلفونا عدةً وروائعاً ... فقد وأبي رعنكم بالروائع
ونحن جلبنا الخيل من ألف فرسخ ... إليكم بمجرم من الموت ناقع

قال: فغضب ابن هبيرة من تعريضه به، وقال به: والله لولا أني قد أمنتك واستنشدتك لضربت عنقك.

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخیلاً على الطعام، فدخل عليه الحكم بن عبدل الشاعر وهو يأكل بطيخاً، فسلم فلم يرد عليه السلام ولم يدعه إلى الطعام؛ فقال ابن عبدل يهجوهُ.

في عمر يزيد خلنا دنس ... بخل وجبن ولولا أيره سادا
جنناه يأكل بطيخاً على طبق ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا
وكان لعبد الملك بن بشر بن مروان كاتبٌ يقال له محمد بن عمير وكان كلما مدحه ابن عبدل بشيء وأمر له بجائزة دافعه بها وعارضه فيها، فدخل يوماً إلى عبد الملك وكاتبه هذا يساره، فوقف وأنشأ يقول:

ليست الأمير أطاعني فشفيتهُ ... من كلٍّ مَنْ يُكْفِي القصيدَ ويلحنُ
مكورٌ يحثو الكلام كأنما ... باتت مناخرُهُ بدُهْنٍ تُعْرَنُ
وبني لهم سجنًا فكنتُ أميرهم ... رَمْنًا فأضربُ مَنْ أشاءُ وأسجُرُ
قل لابنِ أكلة العفّاصِ محمدٍ ... إن كنتَ من حبِّ التقربِ تجبُنُ
أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمك فلفلٌ ... جَمٌّ وفلفلنا هناك الدننِ
فبحقَّ أمك وهي منك حقيقةٌ ... بالبرِّ واللطفِ الذي لا يُخزنُ
لا تُدنِ فاك من الأمير ونحوه ... حتّى يُداوي ما بأنفِكَ أهرنُ
إن كان للظربانِ جُحرٌ مننٌ ... فلجُحرِ أنفِكَ يا محمدُ أنتنُ

فَسَلِ الْأَمِيرَ غَيْرُ مُوَفَّقٍ ... وَبَنُو أَبِيهِ لِلْفَصَاحَةِ مَعْدِنُ
وَسَلِ ابْنَ دَكْوَانَ تَحِدُهُ عَالِمًا ... بِسَلِيْقَةِ الْعُرْبِ الَّتِي لَا تَحْرُنُ
إِذْ أَنْتَ تَحْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ عَفْصَةً ... فَتَجِيدُ مَا عَمِلْتَ يَدَاكَ وَتَحْسِنُ
أَشْبَهْتَ أُمَّكَ غَيْرَ بَابٍ وَاحِدٍ ... أَنْ قَدْ خُتِنْتَ وَأَنْهَا لَا تُخْتَنُ
فَلَمَّا أَصَبْتَ دِرَاهِمًا فَدَفَنْتَهَا ... وَفُتِنْتَ فِيهَا، وَابْنُ آدَمَ يُفْتَنُ
فَبِمَا أَرَاكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مُدْرِهِمْ ... إِذْ ذَاكَ تُقْصِفُ فِي الْقِيَانِ وَتُرْفِنُ
إِذْ رَأْسُ مَالِكٍ لُعْبَةً بَصْرِيَّةً ... بَيِّضَاءُ مُعْرِبَةً عَلَيْهَا السَّوْسَنُ
أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ ... وَلَحَصْدُ أَنْفِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ
أَنْتَ امْرُؤٌ فِي أَرْضِ أُمَّكَ فُلْفُلٌ ... جَمٌّ وَفُلْفُلَانَا هُنَاكَ الدَّنْدِينُ
فَبِحَقِّ أُمَّكَ وَهِيَ مِنْكَ حَقِيقَةٌ ... بِالْبِرِّ وَاللَّطْفِ الَّذِي لَا يُخْرَنُ
لَا تُدْنِ فَاكَ مِنَ الْأَمِيرِ وَنَحَّه ... حَتَّى يُدَاوِيَ مَا بَأْسُفِكَ أَهْرَنُ
إِنْ كَانَ لِلظَّرْبَانِ جُحْرٌ مُنْتَيْنٌ ... فَلَجُحْرُ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ

وعن محمد بن سهل راوية الكميت قال: خطب ابن عبدل امرأة من همدان

يقال لها: أم رياح فلم تتزوجه، فقال: أما والله لأفضحك ولأعيرتك فقال:

فلا خير في الفتيان بعد ابن عبدل ... ولا في الزواني بعد أم رياح

فأبيري بحمد الله ماضٍ مجربٌ ... وأم رياحٍ عرصَةٌ لنكاحي

وولد للحكم بن عبدل ابنٌ فسماه بشراً، ودخل على بشر بن مروان فأنشده:

سميت بشراً ببشر الندى ... فلا تفضحني بتصادقها
إذا ما قرّيش البطا ... ح عند تجمع آفاقها
تسامت قرومهم للندى ... تباري الرياح بأوراقها
فمالك أنفع أموالها ... وخلقك أكرم أخلاقها
فأمر له بألفي درهم، وقال: استعن بهذه على أمرك.

وقالوا : اقترض ابن عبدل مالا من التجار وحلف لهم بالطلاق ثلاثاً أن
يقضيهما المال عند طلوع الهلال، فلما بقي من الشهر يومان قال:

قد بات همي قرناً أكابده ... كأنما مضجعي على حجر
من رهبة أن يرى هلال غدٍ ... فإن رأوه فحق لي حذري
من فقد بيضاء عادة كملت ... كأنها صورة من الصور
أصبحت من أهلي الغداة ومن ... مالي على مثل ليلة الصدر
فبلغ خبره عبد الملك بن بشر فأعطاهم مالهم عليه وأضعفه له؛ فقال فيه:

لما أتاه الذي أصبت به ... وأنشدوه إياه في شعري
جاد بضعفي ما حل من غرمي ... عفواً فزالست حرارة الصدر
لأشكرن الذي مننت به ... ما دمت حياً وطال لي عمري

وقال محمد بن سهل: اجتمع الشعراء إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل، فقالوا
للحجاج: إنما شعر ابن عبدل كله هجاء وشعرٌ سخيّف؛ فقال له: قد سمعت قولهم
فاستمع مني؛ قال هات فأنشده قوله:

واني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي

وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي ... فأدرك ميسور الغنى ومعى عرضي
حتى انتهى إلى قوله:

ولست بذى وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي
فقال له الحجاج: أحسنت! وفضله في الجائزة عليهم بألفي درهم.
وقال ابن عبدل أيضاً:

نَجَوْتُ محمداً ودخانُ فيه ... كريحِ الجعر فوقَ عطِينِ حِلْدِ
ركبتُ إليه في رَجُلٍ أتاني ... كريمٍ يطلبُ المعروفَ عِنْدِي
فقلتُ له ولم أعجلُ عليه، ... وذلكَ بعدَ تقريظي وحمدي
فأعرضَ مُكمَحاً عَنِّي كأنِّي ... أَكَلْتُ صَخْرَةً في رَأْسِ صَمَدِ
أقربُ كلِّ أصِرَةٍ ليدنو ... فما يردادُ مِنِّي غيرَ بُعْدِ
فأقسمُ غيرَ مستثنٍ يميناً ... أبا بحرٍ لَتَتَخِمَنَّ رَدِّي
فلو كنتَ المذهبَ من تميم ... لخفتَ ملامتي ورجوتَ حمدي
نَجَوْتُ محمداً فوجدتُ ربحاً ... كريحِ الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ
وقد ألدعتني ثعبانٌ تَتَنٍ ... سيبلغُ إنْ سلمنا أهلَ تَجْدِ
وأدنى خطمه فوددتُ أنِّي ... قَرَنْتُ دونوهُ مِنِّي ببُعْدِ
كما افتدَّتِ المعانةُ من جِواه ... بخِلْعَتِها ولم تَرَجِعْ بِرَنْدِ
وفارَقَها جِواه فاستراحتْ ... وكانتَ عنده كَأَسيرِ قِدِّ
وقد أدنيتُ فاه إليَّ حتَّى ... قتلتُ بذاك نفسي غيرَ عَمْدِ

وما يدنو إلى فيه دُبابٌ ... ولو طليت مشافِرُهُ بقَنَدٍ
يَدُقْنَ حلاوةً وَيَخْفَنَ موتاً ... زعافاً إنْ هَمَمْنَ له بِوَرْدٍ
فلما فاحَ فُوهُ عليّ فَوْحاً ... بمثل غَثِيثَةِ الدِّبْرِ المَغْدُ
فقلت له: تنحَّ بفيك عني ... فما هذا بريحٍ قَتَارَ رَنَدٍ
وما هذا بريحٍ طِلاً ولكنْ ... يفوحُ خِرَاكَ منه غيرَ سَرَدٍ
فحدّثني فإنَّ الصَّدوقَ أدنى ... لبابِ الحقِّ من كَذِبٍ وَجَحْدٍ
أباتَ يَجولُ في عَفَجِ طحور ... فأعلم أمْ أتاكَ به مُغَدِّي
نكِهتَ عليّ نكهةً أَخْذري ... شتيمٍ أعْصَلَ الأنيابَ وَرَدٍ
فإنْ أهديتَ لي من فيكَ حَتفي ... فإنِّي كالذي أهديتَ أهدي
لكم شُرُداً يَسْرِنَ مَغْنِيَاتٍ ... تكونُ فنونُها من كلِّ فَنَدٍ
أما تخزي حَزِيتَ لها إذا ما ... رَوَّاهَا النَّاسُ من شَيْبٍ ومُرَدٍ
لأرجو إنْ نجوتَ ولم يُصَبِّني ... جَوَى إنِّي إذنَ لَسعيدٌ جَدُّ
وقلتُ له: متى استطرُفتَ هذا ... فقال أصابني من جَوَفٍ مَهْدِي
فقلت له: أما دأويتَ هذا ... فتعذّر فيه آمالاً بِجَهْدٍ
فقال: أَمَا علمتَ له رِقَاءً ... فتسديهِ لنا فيما ستُسْدي
فقلت له: ولا آله عيّا ... له فيما أسرُّه وأبدي
عليك بقيئةً وَيجعِرُ كَلْبٍ ... ومثلي ذاك من نونٍ كَنَعْدٍ
وحلّيتَ وَكُرَّاتٍ وَثُومٍ ... وعُودِي حَرَمَلٍ وِدماغٍ فَهْدٍ

وَحَنْجَرَةَ ابْنِ آوَى وَابْنِ عِرسٍ ... وَوزنِ شَعْبِيرةٍ مِنْ بَرٍّ فَقَدِ
وَكَفَّ دُرْخُرجَ وَلِسانِ صَقَرٍ ... وَمَثقالينِ مِنْ صَوَّانِ رَقَدِ
يُذِقُ وَيُعْجَنُ الْمَنخُولَ مِنْهُ ... بِبِئُولِ أَحِبِّ وَبِجَعْرِ قِرَدِ
وَتَدْفِنُهُ زَمَاناً فِي شَعِيرٍ ... وَتَرْقِبُهُ فَلَا يَبْدُو لَبَرَدِ
فَدَخَّنَ فَاكَ ما عَثَّقتَ مِنْهُ ... وَلَا يَعْجَنُ بِأَظْفارِ وَنَدِ
فَإِنْ حَضَرَ الشِّتَاءُ وَأَنْتَ حَيٌّ، ... أَرَاكَ اللَّهُ غَيَّكَ أَمَرَ رَشِدِ
فَدَخَرِجْها بِبَنادِقٍ وَازْدِرِها ... مَتَى رُمْتَ التَّكْلِمَ أَيُّ رَدِ
فَتَقْذِفْ بِالْمِصَلِّ عَلَى مِصَلٍّ ... بِبِلَعُومٍ وَشِذْقٍ مُسْمَعِدِ
وَوَيْلَكَ ما لِبَطْنِكَ مَذْقَعَدُنَا ... كَأَنَّ دَوِيَّةَ إِرْزَامِ رَعَدِ
فَإِنَّ لِحِجَّةِ النَّاسِورِ عِنْدِي ... دَوَاءً إِنْ صَبِرْتَ لَهُ سِجْدِي
يُمِيتُ الدَّوْدَ عَنْكَ وَتَشْتَهِيهِ ... إِنْ أَنْتَ سَنَنْتَهُ سَنَ الْمُقَدِّي
بِهِ، وَطَلَيْتَهُ بِأَصُولِ دِفْلَى ... وَشَيْءٍ مِنْ جَنَى لَصَفِّ وَرْتِدِ
أَظُنِّي مَيِّتاً مِنْ نَتْنٍ فِيهِ ... أَهَانَ اللَّهُ مِنْ نَاجَاهُ بَعْدِي

وقيل لعلويه كلب المطبخ: أي شيء معنى قولهم: هذا نبيد يمنع جانبته؟ قال:

يريدون أن الدبان لا يدنونه، وكان الرقاشي حاضراً فأنشد قول ابن عبدل:

عَشَّشَ الْعَنْكَبُوتُ فِي قَعْرِ دَنِّي	إِنَّ ذَا مِنْ رَزِيَّتِي لَعَظِيمِ
لَيْتَنِي قَدْ غَمَرْتُ دَنِّي حَتَّى	أُبْصِرَ الْعَنْكَبُوتَ فِيهِ يَعْومُ
غَرَّقُهَا لَا يُغِيثُهُ الدَّهْرُ إِلَّا	زَبَدٌ فَوْقَ رَأْسِهِ مَرْكُومِ
مُخْرَجاً كَفَّهُ يَنَادِي ذَبَاباً	أَنْ أَغْثَنِي فَإِنِّي مَغْمُومِ

قال: دَعْنِي فَلَنْ أُطِيقَ دُنُوءًا من شَرَابٍ يَشْمُهُ المَزْكُومُ
قال الجاحظ في كتاب الحيوان بعد أن ذكر تلك القصة : والدَّبَّانُ يضْرِبُ به
المِثْلُ في القَدَرِ وفي استطابة النَّتْنِ، فإذا عَجَزَ الدُّبَابُ عن شَمِّ شيءٍ فهو الذي لا يكون
أَنْتَنُ منه.

ولذلك حينَ رَمَى ابنُ عبدِلِ مُحَمَّدَ بنِ حَسَّانِ بنِ سَعْدٍ بالبخر، قال:
وما يَدْنُو إلى فِيهِ ذَبَابٌ ولو طُلِيَتْ مَشَاغِرُهُ بِقَنْدٍ
يَرَيْنَ حَلَاوَةً وَيَخْفَنَ مَوْتًا وَشَيْكًا إِنْ هَمَمْنَ لَهُ بِوَرْدٍ
وقال ابن عبدل في الفأرة والسنَّور:
يا أبا طَلْحَةَ الجَوَادَ أَغْثَنِي بسجالي من سيبك المَقْسُومِ
أحي نفسي فدتك نفسي فإني مفلسٌ قد علمتَ ذاك عديمِ
أوتطوعُ لنا بسلفٍ دَقِيقِ أَجْرُهُ إِنْ فَعَلْتَ ذاك عَظِيمِ
قد علمتُم فلا تعامس عني ما قضى الله في طعام اليتيمِ
[أراد: لا تعامسُوا، فاكتفى بالضمّة من الواو، وأنشد:

فلو أنَّ الأَطْبِيَاءَ كان حُولِي وكان مع الأَطْبِيَاءِ الأَسَاةُ]
ليس لي غيرُ جِرةٍ وأَصِيصِ وكتابٍ منمنمٍ كالوشومِ
وكسَاءٍ أبيعُه برغيفٍ قد رقعنا خروقه بأديمِ
واكافٍ أعارنيهِ تَشْيِيطُ هولحافٌ لكلِّ ضيفٍ كريمِ
ونبيدٍ مما يبيع صُهِيبُ يذر الشيخَ رَمَحَهُ ما يقومُ

ربّ حلا فقد ذكرتُ أصيصي	ولحافي حتى يغورَ النجومُ
كل بيت عليه نصفُ رغيف	ذاك قسمٌ عليهم معلومُ
فر منه موليا فأر بيّتي	ولقد كان ساكناً ما يريمُ
قلتُ: هذا صومُ النصاري فحلوا	لا تليحُوا شيوخكم في السّمومُ
ضحكَ الفأرُ ثم قلن جميعاً	أهو الحقُّ كلَّ يومٍ تصوّمُ
قلتُ: إن البراء قد قامَ في ال	ناسِ بإذنٍ وأنتَ فينا ذميمُ
حملوا زادهم على خنفسات	وقرّاد مخيس مزموّمُ
وإذا ضفدعٌ عليه إكاف	علموه بعد النّفار الرسيمُ
خطموا أنفه بقطعة حبل	يا لقومي لأنفه المخطومُ
تصبّوا منجنيقهم حولَ بيّتي	يا لقومي لبيّتي المهدومُ
وإذا في الغباء سمٌّ بُرّيص	قائمٌ فوق بيتنا بقدموم
قلتُ: بيتُ الجرينِ مجمعُ صدق	كان قدماً لجمعكم معلوم
قلن: لولا سنورتاهُ احتفرنّا	مسكناً تحتَ نهرِ المركوم
إن تلاقِ سنورتاهُ فضاءُ	تذرانا وجمّعنا كالهزيمُ
عششَ العنكبوت في قعر دنى	إن ذا من رزيتي لعظيم
ليتني قد غمرت تدنى حتى	أبصرَ العنكبوتَ فيه يعومُ
غرقاً لا يغيثه الدهرُ إلا	زبدٌ فوق رأسه مركوم

وكان الحكمُ بن عبدل أعرج، وكان بعد هجائه لمحمد بن حسان بن سعد بالقصيدة الدالية الشهيرة السابقة لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ عليها حاجته إلاّ قضاها كيف كانت، فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أميرُ الكوفة، وكان أعرج، وكان صاحبُ شُرطته أعرج فقال ابن عبّـل:

أَلِقِ الْعَصَا وَدَعْ التَّعَارَجَ وَالتَّمِيسُ عملاً فهذي دَوْلَةُ الْعُرْجَانِ
فَأَمِيرِنَا وَأَمِيرُ شُرْطَتِنَا مَعَا يا قومنا لكليهما رِجْلَانِ
فَإِذَا يَكُونُ أَمِيرِنَا وَوَزِيرُهُ وَأَنَا فَإِنَّ الرَّابِعَ الشَّيْطَانُ
وَقَالَ آخِرُ وَوَصَفَ ضَعْفَهُ وَكَبَّرَ سَنَّهُ:

آتِي النَّدَى فَلَا يُقَرَّبُ مَجْلِسِي وَأَقْوَدُ لِلشَّرَفِ الرَّفِيعِ حَمَارِيَا
وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ لٍ فِي بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ:

وَلَوْ شَاءَ بَشْرُكَانَ مِنْ دُونِ بَابِهِ طِمَاطِمُ سَوْدٍ أَوْ صَقَالِبَةُ حَمَرِ
وَلَكِنْ بَشْرًا أَسْهَلَ الْبَابِ لِلَّتِي يَكُونُ لِبَشْرِ عِنْدَهَا الْحَمْدُ وَالْأَجْرُ
بَعِيدَ مَرَادِ الْعَيْنِ مَا رَدَّ طَرَفَهُ حَذَارُ الْغَوَاشِي بَابِ دَارِ وَلَا سِتْرُ

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ لٍ:

نِعَمْ جَارُ الْخَنْزِيرَةِ الْمُرْضِعِ الْغَرُ ثَى إِذَا مَا غَدَا، أَبُوكَلْثُومِ
طَاوِيَا قَدْ أَصَابَ عِنْدَ صَدِيقِ مِنْ غِذَاءٍ مُلَبَّقٍ مَأْدُومِ
ثُمَّ أَنْحَى بِجَعَرِهِ حَاجِبَ الشَّمِّ سِ فَالْقَى كَالِإِلْعَافِ الْمَهْدُومِ

وقال ابن عبدِ الأَسدي

بيناهم بالظهر قد جلسوا	يوماً بحيث ينزع الذبح
فإذا ابن بشر في مواكبه	تهوى به خطارة سرح
فكأنما نظروا إلى قمر	إوحيث علق قوسه قزح

الشاعر الجاهلي خفيف الظل :

علباء بن أرقم

كان علباء بن أرقم اليشكري الشاعر الجاهلي معاصراً للملك النعمان بن المنذر، وكان النعمان قد أحْمى كبشاً، أي أذاع في الناس أن هذا الكبش يرتع ما شاء أينما شاء في حمى النعمان، وحدث مرة أن ألقت الأقدار هذا الكبش في طريق علباء فذبحه وأكله، وعرف النعمان ذلك فغضب وتوعد علباء، فلما بلغ ذلك علباء اغتم كثيراً ثم اهتدت نفسه إلى حيلة طريفة، وهي مدح الملك النعمان بقصيدة فيها اعتذار خفيف الدم، فصنع قصيدته هذه وبدأها بوصف لحياته الزوجية المضطربة الحافلة بالشجار، فلم يكن علباء من السعداء في حياتهم الزوجية وكعادة الشعراء الجاهليين، يقص علينا في قصيدة أخرى كيف أن زوجته "تماضر" هجرت منزله، وسارت غضبى إلى بيت أبيها في منطقة تسمى "فلجا" بينما يقيم هو وأهله في منطقة "اللوى"، وزعمت أنه لا خير فيه، وأن أبناءها منه سوف يعوضونها بعد وفاته حياة خيراً من حياتها معه :

حلت تماضر غربة فاحتلَّتْ فلجاً وأهلك باللوى فالحلَّتْ

وكأنما في العين حب قرنفل أو سنبلأ كحلت بها فانهلت

إن عينه لتهطل بالدموع حتى لكأن فيها حب قرنفل أو سنبلأ، وقد أفاض الشراح في تأويل نصب حب قرنفل، وقالوا إن السنبل نبات طيب الرائحة غير أن السياق يقتضي أن يكون حب القرنفل والسنبل مما يؤذي العين لأن الشاعر يريد في

هذا البيت أن يصف لنا غزارة دمعته المذروف على فراق زوجته ، فلا بد أن يكون النبات الذي اختاره مما يساعد على ذرف الدموع كما هو الحال مع بعض التوابل .
زعمت تماضر أنني إما أمُتْ يسدد أبينوها الأصاغر حَلَّتِي
إن زوجته تزعم أن أبناءها سيسدون الفراغ الذي سيتركه إذا مات ، وهو يأتي بكلمة "أَبِينُوهَا" تصغيراً لأبنائها كنوع من الاستهزاء والسخرية.
ثم يعاتب زوجته عتاباً رقيقاً ويذكرها -بعد أن يدعولها بالثراء والغنى- بأنه كان وفياً لقومه إذا أيسر وإذا أعسر ، وبأنه كان يقي قومه العضلات الشداد مهما تعظم وبأنه فارس محارب :

تربت يدك، وهل رأيت لقومه مثلي على يسري وحين تعلتي
يوماً إذا ما النائبات طرُقنَا أكفي بمعضلة وإن هي جلتِ
ومناخ نازلة كفيتُ وفارس نهلت قناتي من مطاة وعَلَّتِ
ثم يذكرها بأنه كان يسرع إلى التضحية بالنوق العشار إذا لاحظ أن الضر أو الجوع قد مس الفقراء ، وهو يذكرها بهذه الصفات في لغة غليظة يلتزمها الشعراء الجاهليون حين يتحدثون عن النوق والنحر :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت نصب القدور فَمَلَّتِ
دَرَّتْ بأرزاق العيال مغالِقٌ بيدي من قمع العشار الجلة
[ملت : أي شوت الخبز أو اللحم في الملة أي الرماد الحار ، العيال الفقراء ، المغالِق : قداح الميسر ، القمع : جمع قمعة وهي أعلى سنام الإبل ، الناقة العشراء : أي التي مر على حملها عشرة أشهر ، الجلة : العظام الكبار .]

ثم يتحدث الشاعر عن تدخله للصلح بين عشيرته ، وكيف أنه بهذا التدخل قد كفى
عشيرته الدواهي الكبار والصغار :

ولقد رأيتُ ثأَيَ العشيرة بينها وكفيت جانبها اللثيًّا والتي
وصفحت عن ذي جهلها ورفدته نصحي ولم تُصب العشيرة زلتي
وكفيتُ مولاي الأحمَّ جريرتي وحبستُ سائمتي على ذي الخلّة

إنه يتجاوز عن حقه إذا أخطأ أحد في حقه ، بل إنه يبذل له النصح حتى لا
يتكرر منه الخطأ ، ثم إنه يحاول تجنيب قومه آثار خطئه ، فإذا أخطأ لم يصب
عشيرته من خطئه ما يؤذيهم . ويتحمل وحده نتائج جريرته إذا بدرت منه جريرة.
ويعود فيذكر في آخر شطرة أنه قد نذر إبله وأنعامه ليطعمها البائس الفقير ومن به
حاجة إليها. إن علباء في هذه القصيدة يتفاخر بأمجاده، وكأنه يستدر عطف زوجته
الناشزكي تعود إليه، ولكننا نحس من قصيدته الثانية شيئاً آخر، إنه يعتذر إلى
النعمان بن المنذر عن خطئه في حق كبشه المحمي، وهو يقدم لهذا الاعتذار بصورة
لبيت مضطرب : زوجة مشاكسة، لا تنام ولا تريد لزوجها أن ينام، زوجة غضوب لا
تريح ولا تستريح، تعذب زوجها بتوزع عواطفها بين الرضا حيناً والغضب حيناً آخر
فيوم ترضى يرى منها زوجها وجهاً حسناً وسيماً قسيماً كوجه ظبية ذات جيد
مبسوط تمده في مرح ورضا لتنال به بغيتها من الشجر، وهي يوم تغضب تدعي أمام
جيرانها أنه ظالم وأن أباه ظالم وتريد أن تقتسم معه ماله لتضمه إلى مالها، فإذا أبى
ذلك عليها ظلاً يتعاركان طوال الليل، يستمع الجيران إليهما وهما يتبادلان الشد
والجذب والأيمان المغلظة:

ألا تكلمنا عِرسِي تصد بوجهها وتزعم في جاراتها أَنَّ من ظَلَمَ:
أبونا، ولم أَظلم بشيء عملته سوى ما تَرَيْنَ في القَذالِ من القَدَمِ
فيوماً تُوافينا بوجه مُقسَم كأن ظبية تعطو إلى وارف السَلَمِ
ويوماً تريد مالنا مع مالها فإن لم نُئِلْها لم تُنِمْنَا ولم تَنَمِ
نبيتُ كأننا في خُصومِ عَرامةٍ وتسمعُ جاراتي التَّأليَّ والقَسَمِ

ويسخط علباء على زوجه، ويبلغ به السخط مدى بعيداً، فيحذرهما تحذيراً واضحاً ويهددها تهديداً سافراً بترك المنزل، ويقول لها فيغلظ في القول ويؤكد له لنن لم تنتهي أيتها الزوج المشاغبة لأجزيك جزاء تندمي عليه، ولأخذن إبلي وأرتحل عنك وستخسرين بذلك رجلاً شجاعاً كريماً في عسره ويسره:

فقلتُ لها إن لا تَنَاهِيْ فَإِنِّي أخوانُكَ حَتَّى تَقْرعي السنَّ من نَدَمِ
لَتَجْتَنِبَنَّكَ العيسُ خُنْساً عَكوْمُها وذو مِرَّةٍ في العسر واليسر والعَدَمِ

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته رأى ابتسامة هادئة تتسلل إلى وجه الملك النعمان، ولعل الملك طرب لهذا الوصف الساخر لحياة الشاعر الزوجية ومشاغباته اليومية مع زوجته، أفيكون من اللائق بالملك إذاً أن يعذب هذا الإنسان بسبب كبش اصطاده؟ أفلا يكفيه ما هوفيه من عذاب يومي في منزله؟ إن الشاعر قد تسلل في رشاقة وظرف إلى نفسية الملك السمع الذي يفد إليه الشعراء من كل فج عميق... إن الشاعر يوجه خطاباً إلى جموع الحاضرين في مجلس الملك ويسألهم مستنكراً: هل رأيتم قبل ذلك ملكاً كريماً جليلاً من قبيلة "معد" العظيمة يعذب

واحداً من مواطنيه الفقراء؟ وفيم؟ في كبش يسير عابثاً لا حارس معه، ولا قطيع ينتمي إليه؟

وَأَيُّ مَلِكٍ مِنْ مَعَدٍّ - عَلِمْتُمْ - يُعَذِّبُ عَبْدًا - ذِي جَلَالٍ وَذِي كَرَمٍ
أَمِنْ أَجْلِ كَبْشٍ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ قَرْيَةٍ وَلَا عِنْدَ أَنْوَادٍ رِثَاعٍ وَلَا غَنَمٍ؟

إن هذا الكبش استفز علباء، فهو يسير مختلاً متباهياً مغروراً كأنه لا يرى أحداً يناافسه، فهو يقطع الأرض طولاً وعرضاً ينال من النباتات ما يستهويه، وإن علباء ليأخذه العجب من هذا الكبش المغرور المتخايل، فيقسم أنه تحير في أمره أ يكون هذا الكبش مخموراً فهو يمشي هذه المشية الاستفزازية؟ إن علباء يشعر بالجوع الشديد، ويبدو أن مظهر الكبش الممتلئ الوحيد الذي لا يقربه أحد من الناس خشية غضب الملك، وأن مظهره أغرى به علباء فتاقت نفسه إلى ذبح هذا الكبش الشارد ويطعم لحمه من معه من الرفاق وكلهم جائعون:

يُمَشِّي كَأَنَّ لَا حَيَّ بِالْجَزَعِ غَيْرُهُ وَيَعْلُو جَرَائِمَ الْمَخَارِمِ وَالْأَكْمِ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ أَمِنْ حَمَرٍ يَأْتِي الطَّلَالَ أَمْ اتَّخَمَ
بَصُرْتُ بِهِ يَوْمًا وَقَدْ كَادَ صَحْبَتِي مِنْ الْجُوعِ أَلَّا يَبْلُغُوا الرَّجْمَ مِ الْوَحْمِ

ثم إن علباء بن أرقم يصف لنا في ثلاثة أبيات غلاظ شداد كيف كان ذبح ذلك الكبش وما الأدوات التي استخدمها في إنضاجه، فيذكر لنا الحطب الكثير والسكين الحادة القاطعة، والخشبتين اللتين تستقدح بهما النار، والقدر التي أنضج فيها لحم الكبش ورائحتها التي تجتلب الكلاب:

بذي حطب جَرُلٍ وسهلٍ لِفائِدٍ ومبراةٍ غَرَّاءٍ يُقالُ لها هُدَمٌ
ورُنْدَيِ عَفَّارٍ في السلاح بقادح إذا شئتُ أوري قبل أن يبلغ السَّامُ
وقِدْرُ يُهاهي بالكِلاب قَتارُها إذا خف أيسارُ المساميح واللَّحَمُ

ثم إنه يشير إلى أن أصحابه حذروه من صنيعه ذاك، على الرغم مما بهم من جوع وتشاءوا من فعلته، وذكروه بأحمر عاد، وهو رجل يقال له قدار بن سالف وإرم هي المدينة التي كان يسكنها ثمود -وأحياناً يطلق على ثمود "عاد الأخيرة" تفريقاً بينها وبين عاد الأولى قوم هود- وكان لقوم ثمود (أو عاد الأخيرة) ناقة قد حرم الله عليهم الاعتداء عليها وحذرهم نبي الله صالح عليه السلام من المساس بها فعقرها قدار بن سالف فأهلك الله قوم ثمود بسببها، والرواة يقولون أحمر عاد ويقصدون أحمر ثمود وهو قدار هذا، ويعود الفضل إلى المبرد في توضيح هذا اللبس والإشارة إلى إطلاق اسم عاد الثانية على ثمود في قصة الناقة المشهورة.

وقد ورد هذا البيت الذي أشار فيه علباء إلى ذلك :

وقال صِحَابِي إِنَّكَ الْيَوْمَ كائِنْ علينا كما عَفَى قُدَّارٌ عَلَى إِرْمٍ

وفي رواية الأصمعي ورد هذا البيت قبل البيت الثالث في الأبيات الثلاثة السابقة ولكننا نميل إلى ترتيب الأبيات الأربعة على هذا النحو الذي أوردناه مراعاة للسياق، ولا نشك في أن ما حدث هو محض خطأ من الرواة والنساخ.

ونحن نستنتج من هذا البيت أن علباء كان قبل أن يعقر الكباش عالماً بأنه محمي للملك النعمان، وعلى ذلك يكون مرتكباً لجنايته تلك مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب القانون. ولعله كان من الشهرة في المرح والدعابة بحيث يثق في

سماحة الملك مع أمثاله من الشعراء، ولعله كان يعرف طبيعة الملك ولا يشك في أن فيها متسعاً للعفو، وقد قدمنا أنه اختار أنموذجاً من خلافاته الزوجية الشائقة ليكون مفتتحاً لقصيدته الاعتذارية أمام الملك، فهو إذاً صاحب شخصية مميزة، لم يعتذر للملك اعتذاراً مهيناً كما فعل النابغة الذبياني ولم يبدأ قصيدته بوصف الأطلال كما كان يفعل معاصروه من الجاهليين.

لكنه يقول إنه كان جائعاً، وكان رفاقه جوعاً، ومربهم هذا الكبش يتهادى ويتخايل فاستفزه فأنحروه وأشبعوا جوعهم، وحين عرفوا أن الكبش محمي للملك ثار فيهم علباء زاجراً، وهل يغضب الملك من أجل كبش أكله جائع من رعاياه؟ إن التخويف بالملك مبالغة فضة مجافية للخلق الكريم لأن فيها تعريضاً لا يليق بالملوك، فليس الملك بخيلاً مغلول اليد، وليس المجني عليه عمّاً ولا خالاً للملك: ألم نقل إن علباء رجل يحب الهزل؟!

أخوَفُ بالنعمان حتى كأنما قتلتُ له خالاً كريماً أو ابن عمٍّ؟!!
وإن يَدَ النعمان ليست بِكَرَّةٍ ولكن سماء تمطر الوبيل والدَّيْمُ

ولعل الملك أغرق في الضحك حين بلغ الشاعر هذا المبلغ من قصيدته، ولعل الملك تذكر حينئذ أحواله وأبناء عمومته، وتذكر كرم يده وسخاءها، وبره بالشعراء وحنوه عليهم.

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته، ورأى ابتسام الملك أو ضحكه يريد أن يتمادى في غيه، فهو يعود إلى وصف حالته النفسية حين رأى هذا الكبش السمين الشارد، وهو يعاني من الجوع، ورفاقه يعانون الجوع، ويمعن الكبش في

استفزاز هؤلاء القوم الجوعى، وكأنه يهزأ بهم ويسخر منهم فيثير التراب برجليه ليعلو وجوههم الناحلة المغبرة، وليتسرب إلى حلوقهم الجافة الساخطة في حين يرتع ذلك الكبش ويأكل ويشرب مما يحلوه من نبت وماء إن الشاعر هنا يقول إنه كان مسلوب الإرادة إزاء هذا الاستفزاز، حتى لكأنه في حالة دفاع شرعي عن النفس كما يقول أصحاب القانون أيضاً:

لبست ثياب المقتل إن أب سالماً ولم أفنّه، أو أن أجراً إلى الرّجَم

وفي هذا البيت الأخير صورة نفسية رائعة لهذا الكبش وللشاعر، فالكبش ساء لاه عابت يثير التراب برجليه على الشاعر وكأنه يتحداه، والشاعر جائع ظامئ مغبر تكاد روحه تبلغ الحلقوم، أو تكاد تخرج فعلاً منه من ألم السفر وألم الجوع وألم العبت الذي يعبته هذا الكبش:

يثير على السرب فحماً برجله وقد بلغ الذلق الشوارب أو نجَم

أما الذلق فهو الحد، وأما الشوارب فمجارى النفس، ثم ينهي الشاعر قصيدته بوصف إلية الكبش الضخمة، وكيف ذبحه ويصف لنا عملية الذبح وخروج الدم من الحلق وتقطيعه للكبش وطهيه، ثم يقول إنه فاز هو ورفاقه باللحم وفازت الذئاب والطيور الجارحة بما تبقى من عظامه ورأسه:

له إلية كأنها شطّ ناقةٍ أبح إذا ما مُسَّ أبهره نجم

وقطعته باللوم حتى أطاعني وألقى على ظهر الحقيبة أو وجَم

ورحنا على العباء المعلق شلوه وأكرعه، والرأس للذئب والرخم

مواريث آبائي وكانت تريكة لال قدار صاحب الفطر في الحطم

ونحن لا نجد معنى لهذا البيت الأخير الذي يصف فيه هذه الفعلة بأنها من فعال آبائه التي يفخر بحفاظه عليها، إذ إن المجال ليس بمجال فخر في مواجهة الملك، بل مجال اعتذار وأسف.

وأغلب الظن أن في القصيدة أبياتاً ضائعة، أولعل هذا البيت الأخير دخيل عليها، أولعل في ترتيب أبيات القصيدة اضطراباً على النحو الذي أشرنا إليه عند قوله :

وقال صِحَابِي إِنَّكَ الْيَوْمَ كَائِنٌ عَلَيْنَا كَمَا عَفَى قُدَارٌ عَلَى إِرْمٍ

على أن هذا الرأي لا يغض من قيمة القصيدة بوصفها تحفة فنية شائقة ولوحة شعرية خفيفة الظل، متجددة العطاء.

هذا الشاعر الرائع الجميل.. ابن الحمارة !!

نحن اليوم ضيوف على مجلس شاعر عجيب الشأن، فهو شاعر مجيد فى شعره غاية الإجابة، وهو موسيقي ملحن يهتم بفنه كل الاهتمام، وهو رجل دولة بلغ مرتبة الوزارة، ومع ذلك كله تغافل عنه المؤرخون واضطربوا فى شأنه فلم يذكروا لنا عنه إلا تنقفاً يسيرة، إلا أنهم اتفقوا على شئ واحد هو هذا الاسم الغريب العجيب الذى يذكرونه به (ابن الحمارة)!!

ترجم له ابن سعيد المغربى فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) [١٢٠/٢ - ط دار المعارف - الترجمة رقم ٤٣٦] فذكر أنه كان تلميذاً لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجه وأن اسمه (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى، ويروى له رثاء فى أستاذة ابن باجة الفيلسوف لما مات، فقد وقف ابن الحمارة على قبره راثياً بقوله:

يا صاحب القبر القريب ودونه هم تبيت له الكواكب تسهر
قم- إن أطلقت- وهات عن صور الردى خيراً، فقد عانيت كيف تصور
واخبر عن الملكوت كيف رأيت إن الغريب عن الغرايب بخبر

وفى تحقيقه لكتاب ابن سعيد المغربى نقل الدكتور شوقى ضيف فى ترجمة ابن الحمارة أن الضبى ترجم له فى البغية (ص ١٧٥) وقال عنه: شاعر مجيد خبيث الهجاء ذكره الفتح فى كتاب "المطمح" واستدرك الدكتور ضيف على هذا النقل أن كتاب المطمح المطبوع لم ترد فيه ترجمة لابن الحمارة.

وقد ترجم لابن الحمارة كذلك المقرئ في "نفح الطيب" نقلاً عن ابن سعيد إلا أنه دعاه أبا الحسين علياً بن الحمارة- كما يقول د. ضيف، وذكره ابن دحية في "المطرب" ودعاه الوزير أبا عامر بن الحمارة، وذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ودعاه أبا بكر بن الحمارة (٢٤٢/٢).

وخلاصة هذه النقول والتراجم أننا أمام شاعر لا خلاف على إجادته الشعر ولكن الخلاف في اسمه وكنيته فبعضهم أخفى اسمه واكتفى بكنيته وجعلها (أبا عامر) وبعضهم صرح باسم له هو (على) وجعل كنيته (أبا الحسين)، وأحدهم لقبه بالوزير، ولكن أحداً لم يذكر لنا سنة مولده ولا سنة وفاته. إلا أن ابن سعيد في المغرب نسبه إلى غرناطة فقال (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي) وذكر أنه كان يعمد للشُّعراء (بفتح الشين المشددة وسكون العين: بمعنى الروضة ذات الشجر الكثير) فيقطع العود من الشجرة بيده فيسويه ويصنع منه عوداً للغناء، وكان ينظم الشعر، ويلحنه، ويغنيه، فنحن إذا أقمنا شاعراً وملحن موسيقى هاوٍ يحب فنه ويخلص له، هذه أول ناحية نلمسها في شخصيته، والناحية الثانية أنه إنسان ودود يحب الناس ويحبونه، ونستنتج ذلك من نوعين من شعره: أولهما شعره في رثاء أستاذه الفيلسوف ابن باجة وقد ذكرناه سابقاً، وثانيهما شعره في رثاء زوجته حين ماتت فرثاها قائلاً:

ولما أن حلت الترب قلنا	لقد ضلت مواقعها النجوم
ألا يا زهرة ذبلت سريعاً	أضن المزن؟ أم ركد النسيم؟

فالرثاء دليل الوفاء، والوفاء مقرون بالتواد والتحاب بين الناس، والنوع الثانى من شعره الذى نستنتج منه أنه كان ودوداً محباً محبوباً بين الناس شعره فى الإخوانيات وما يرتبط بها من مناسبات، فمن ذلك ما روى من أن امرأة مشهورة بجمالها أهدت إليه مسكاً فقال:

أتانا فتيت المسك يعبق عرفه	ويثنى على ذاك الندى والتكرم
فأشعرنى رباح حبيب أعيره	على رقبة لحظ المشوق المتيم
فوالله لولا أن تقول لى المنى	وراءك لا تقدم على غير مقدم
لحدثت نفسى عند ذلك أننى	أشم الذى ما بين عينيك والفم
وأهدت إليه أخرى تفاحة فقال:	

بعثت إلى كخدها تفاحة	وكطعم ريققتها رحيقاً سلسلاً
فصرفت وجهى عنهما ولقد أرى	مترشفاً عذب الجنى ومقبلاً
كى لا يغار على الحبيب حبيه	فيقول بات بغيرنا متعللاً

شعره ورقته:

وإذا كان شعراء الأندلس معروفين برقة أشعارهم، وخفة أرواحهم وتأثرهم ببيئتهم الخضراء الوارفة الظلال، الطيبة الثمار، فإن ابن الحمارة بلغ من هذه الرقة ذروتها، وتسلم من تلك الخفة أعلى مراتبها، وشعره الغزلى أكبر شاهد على أن حسه الفنى كان دقيقاً رقيقاً، وقرأ إن شئت قوله يصف حاله وغربته ويخاطب ليله الطويل:

ألا يا ليل هل لك من صباح
ألا يا ليل طللت على حتى
فهل باتت فطيمة فيك تشكو
أردد زفرة المضيئ كأي
يقلبنى الأسى جنباً لجنب
كأنى فوق أطراف الرماح
وهل لأسير نجمك من سراح
كأنك قد خلقت بلا صباح
كما أشكو اغترابى وانتزاحى
جريح أن من ألم الجراح
كأنى فوق أطراف الرماح
ثم يتجه بالخطاب إلى حبيبته التى أسماها فطيمة وهو هنا يكتنحها بأمر عمرو
فيشكو لها لهفته إلى رؤيتها، ورغبته فى لقاءها، وكيف تجشم المشاق ليزورها فجاء
بلاداً ينكره أهلها وينكرهم، فأقام بينهم غريباً، عاشقاً، محزوناً، محروماً، فهو يعاتب
حبيبته لأنها لم تسمح بلقائه ولو أرادت لفعلت فهو يقول:

دعانى الحب نحوك أم عمرو
ولو أسطيع من طرب وشوق
أحببتنا رويدكم علينا
هو القدر المتاح جرى علينا
غريب حل داركم فأضحت
تناكرت الوجوه بها عليه
فطرت إليك خفاق الجناح
ركبت إليك أجنحة الرياح
فقد جمع الهوى كل الجماع
ومن يسطيع للقدر المتاح
له يهمل موحشة النواحي
وكانت ذات عرف وانشرح
ويشتد ابن الحمارة فى عتاب حبيبته أم عمرو، فيقول إن بيدها أن تلقاه
فيبثها شوقه ولهفته وحبّه ولواعج غرامه، وهى إن فعلت ذلك فما زادت على أن

صدقّت ما كانت تزعمه من محبتها إياه، وعشقها له، وها هو ذا يشك في كلامها
فهو مريض بحبه وهى صحيحة معافاة لا تعاني سقم الحب، وهول العشق:

ولو شئتم لما حسن انفرادى بأشواقى ولا وجب اطراحى
وقلتم إنكم تجدون جدى وهيهات المراض من الصحاح
أعساتكم لأنكم بخلتم وأنتم قادرون على السماح
ويبدو أن ابن الحمارة قد عبر البحر من الأندلس إلى المغرب وأقام فيه زمناً
ففى شعره قصيدة يذكر فيها (المسيلة) وهى من بلاد المغرب الأوسط، وهو فى هذه
القصيدة يخاطب محبوبه يكنيها بأُم طلحة تقيم فى مدينة المسيلة على ما يبدو،
فيقول:

لم يدر طيف خيالك المتأوب أنى على جمر الأسى أتقلب
وافى يعارضه رقيبى لم يدع نومى يجىء ولا سهادى ذهب
وانظر إلى روعة التصوير فى قوله يصف يقظة قوم أم طلحة وحراسها الذين
يسهرون على حراستها من هذا العاشق المتربص، فيخيل إليه أن نيل النجوم أقرب
إليه وأسهل عليه من أن يظفر بساعة ينام فيها هؤلاء الرقباء الحراس المزعجون:

يا أم طلحة والديار قريبة والنجم من غفلات قومك أقرب
هل تذكرين إذ الأعادى نزع والملتقى كئيب ودارك مشغب
يا سرحة حرمت على وإنها لألذ من ماء الحياة وأعذب
ما بعد ظلك لى مقيل فاعلمى كلا ولا لى بعد مائك مشرب

يا صاحبي وإليك شكوى صاحب عجزت محالته وضاق المذهب
امرر على هدف "المسيلة" إنه هدف إلى مع العشى محبيب
ويبدو أنه يئس من لقاء حبيبته أم طلحة وغادر المسيلة عائداً إلى غرناطة
ففى إحدى قصائده يظهر تأثيره وتحسره على أيام أم طلحة فيقول:

ألا ليت شعري هل تعود كعهدنا ليال طويناهن طى المراحل
إذا ذكرتها النفس كادت من الأسى تسرب فى أولى الدموع الهوامل
وإنى وتركى أم طلحة بعدما تسلسل منى حبها فى المفاصل
لظمان قفر أبصر الماء حسرة وقد زيد عن أطرافه بالمناسل
ولولا رجائي عطفة الدهر لم أبل متى نزلت بالنفس إحدى النوازل
عن النوم سل عيناً به طال عهدا وكان قليلاً فى ليال قلائل
أبيت بمستأنى الخيال ودونه طروق سهاد واعتياد بلابل
إذا ظن وكراً مقلتي طائر الكرى رأى هديها فارتاع خوف الحبائل
والأبيات الثلاثة الأخيرة بلغت الغاية فى الإجادة وحسن تصوير الأرق، وما
يجلبه الأرق والسهاد من ألم ومرض وحزن واكتئاب، لا ندرى أكان أكثره من الغربة
أم من فراق الأحباب؟.

أبو العلاء المعري ضد تعليم المرأة

اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، وكنيته أبو العلاء، ولقبه المعري نسبة إلى قرية " معرة النعمان " التي ولد بها من بلاد الشام وتنوخ قبيلة عربية أصيلة نسبها بيعرب بن قحطان ويشهد المؤرخون لها بأنها "كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا"، وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة، أعز بطون تنوخ، وبيت أبي العلاء من بني سليمان ابن داود بن المطهر سليل الساطع، ويقول فيهم " ابن العديم " مؤرخ حلب " وأكثرها قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وأدبائها من بني سليمان " وقد ولد أبو العلاء في بيت علم وقضاء وجاه، وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣هـ) الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية.

وكان نحيف الجسم، وأصيب بالجدرى صغيرا فعفى في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. وطلب العلم وبرع فيه حتى اشتهر ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ وظل فيها قرابة سنة ونصف سنة ثم عاد إلى معرة النعمان، وكرم منزله، وشرع في التصنيف، وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه " رهين المحبسين " للزومه منزله وذهاب بصره، ويذهب بعض الكتاب إلى أنه رهين ثلاثة محابس لا محبسين اثنين، ويستدلون لذلك بقوله في اللزوميات:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبئت

لفقدي ناطري، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث (١)

وقد ظل أبو العلاء معتكفا في منزله هذا من بعد عودته من بغداد في نحو سنة ٤٠٠ هـ حتى وفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، وثمان وخمسين وألف بعد ميلاد المسيح.

ويذكر المؤرخون لأبي العلاء أنه قضى هذه الحقبة في التدريس لطلابه الذين كانوا يقصدونه من كل صوب وصوب، وفي تأليف الكتب، ومؤلفاته كثيرة ومشهورة ومن أشهرها رسالة الغفران، وديوان سقط الزند، وديوان اللزوميات، وغيرها كثير. وكان يتصف إلى جانب علمه وثقافته بصفات خلقية رفيعة أطنب المؤرخون في تفصيلها، كما كان يرى رأى بعض الحكماء (= الفلاسفة) في عدم إيلاء الحيوان ومن هنا جاء تحريمه أكل اللحم على نفسه ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

أبو العلاء وتعليم المرأة:

يتلخص رأى أبي العلاء في المرأة في أنها شر، ولكنه شر لابد منه فهو على مستوى النظرية قدم لنا في اللزوميات الآراء المتعددة التي تؤكد هذا، وعلى مستوى التطبيق عاش بلا زوجة ولا ولد. غير أن آراءه المتعددة لا تخلو من تناقض:

فهو ينصح الإنسان بأن يزوج ابنته ولا يزوج ابنه:

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

وذلك لأن الزواج عصمة للمرأة من الفتنة، وفي ذلك وقاية للمجتمع من الفساد الذي يترتب على خروج النساء، وعدم إحصانهن. أما الرجال فهم قادرون

على الصبر على عدم الزواج، والرهبان أصدق مثال على ذلك لولا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

ويعجبني عيش الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وهو يدعو إلى التفرد واعتزال النسل لأن الإنجاب يعرض الذرية لآلام الحياة
وفي عدم الإنجاب وقاية من ذلك:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقوله:

الحكم لله، فالبث مفرداً أبداً ولا تكن بصنوف الناس مختلطاً
ولست أدري سوى أنى أرى رجلاً يرب نسلأرب الدهر قد غلطا
وهو يرى أن طبيعة المرأة فاسدة، ويؤكد أن النساء ناقصات عقل، ويستدل
على ذلك بقاعدة نحوية وهى جمع غير العاقل بالألف والتاء وهما علامة جمع
التأنيث فنحن نقول في جمع مجلة وكراسة وسماء: مجلات وكراسات وسماوات،
كما نقول في جمع بنت: بنات، فهو يستنتج من ذلك أن انعدام العقل في الجمادات
هو الذي جعلنا نختار لها من بين صيغ الجمع التي تعرفها لغة العرب، صيغة جمع
المؤنث، وهو استنتاج عجيب ولا دليل عليه. يظهر في قوله:

إننا، معاشر هذا الحلق، في سفه حتى كأننا على الأخلاق نختلف
إن الرجال إذا لم يحمها رشد مثل النساء عراها الخلف والخلف (٢)

ألا ترى جمع مالا عقل يسنده جمع المؤنث فيه التاء والألف

وقد صرح أكثر من مرة بأنه يوافق على وأد البنات، أولعله يقصد أن الموت
خير للفتاة من الحياة. فمن ذلك قوله:

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس

وهو ينصح الزوجات اللاتي لهن بنات، أن يتشددن في تربية بناتهن ولا
يتركنهن يخرجن لشهود حفلات الزواج وهن متزينات بالحجول (الخلاخيل)
والأقراط:

نصحتك يا أم البنات فحاذري وساوس ولج الأساود، فناس
ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى لتشهد عرساً، واشغلنها بعرناس (٣)

فعلى الأم أن تشغل ابنتها بمغزل تتلهى به، وألا تستمع لمن يوسوس لها
بخروجها.

وأبو العلاء إذ يرفض المرأة، ويرى الموت خيراً لها من الحياة، فإنما يرفضها في جميع
حالاتها بدرجات مختلفة، فهي تعبث بألباب الرجال ومن صفاتها ألا تنصف أحداً
حتى من عشاقها:

نعوذ بالله من غوان يكن باللب معصافات
ومن صفات النساء قدما أن لسن في الود منصفات

ولذلك نجده ينصح الرجل ألا يأمن للمرأة وألا يسايرها في غوايتها لأن تبعات ذلك كثيرة.

لا تتبعن الغانيات مماشيا إن الغواني جمة تبعاتها

وهو يرى أن أمر المرأة كله شر، فليست فتنة النساء في دخول الحمامات (وهي أماكن عامة كانت تنتشر في ذلك الوقت للنظافة) فحسب، بل إن مجرد تفريط الرجل وسماحه للمرأة بالخروج متعطرة متزينة هو شر كبير حتى لو كان خروجها إلى المسجد، فمن ذا الذي يأمن الإمام الذي ستصلي خلفه؟ يقول أبو العلاء مرتجراً:

شر على المرأة من حمامها	إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها	يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها	تأتم والخبيرة في ائتمامها
بأحدل ما عف عن كمامها	أعاذها الخالق من إمامها

وفي اللزوميات قصيدة مطولة خاصة بالنساء عرض فيها أبو العلاء آراءه بالتفصيل والوضوح مطلعها:

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنمات

فهو يصف النساء في هذه القصيدة بأنهن يتظلمن وهن ظالمات، فلا ينبغي على الرجل أن يرد عليهن السلام إذا أشرن إليه بالسلام لأنهن طرق إلى الغي والفتنة، لا يكتفين بالوسامة الطبيعية، بل يلتمسن الوسامة بالخضاب (= الحناء)

ولا ترجع بإيماء سلاماً	على غيد أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معلمات
وسام ما اقتنعن بحسن أصل	فجئنك بالخضاب موسمات

وماذا سيستفيد الإنسان من صحبة النساء ؟ إذا ولدن له أولاداً فقد يعاني من عقوقهم وأذا هم وما يجرونه إليه من مصائب، وإذا ولدن له إنثاً قسيمات الوجوه جميلات، فما أشد بؤسه بهذه الوجوه الحسان التي تريد حلياً وتريد زواجاً وهن لا يدفعن عن الرجل في الحرب ولا يرددن عنه غارة، ومع ذلك فإنه لا يسلم من لومهن وتأنيبهن:

صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاتك بالسلمات
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مسقمات
فمن تكل يهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصممات
وان تعط الإناث فأى بؤس	تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً	ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم ضرب	ولا في غارة متغشمات

فأفضل شيء للنساء دفنهن، لأنهن إذا كبرن وتزوجن ثم فقدن أزواجهن فسيصرن عبئاً على آبائهن مرة أخرى، كما أنهن قد يلدن في المستقبل من يعادى جده أو أخواله، وقد يجلبن العار إذا مسهن ظلم أو هضمت حقوقهن:

ودفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المرمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعادياً ويكن عاراً إذا أمسين في المتهضمات

وهو ينهى عن تعليم المرأة صراحة، ويدعو إلى تعليمهن حرفة الغزل لأن في ذلك أماناً لهن:

ولا تحمد حسانتك إن توافت بأيسد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع (٤) مقلّمات

لأن النساء إذا تعلمن فسيستعملن ما تعلمنه في الشر:

سهام إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسلمات
ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهديه متعلمات
وان جيئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجمات (٥)
ليأخذن التلاوة من عجوز من اللأى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثّات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وإذا كان لابد من تعليمهن فيجب أن يختار الرجل لتعليم بناته معلماً
عجوراً أكل عليه الدهر وشرب، يعلمهن آيات القرآن، بحيث يكون قد بلغ من الكبر
مبلغاً يجعله مرتعش اليدين، أشيب الشعر:

ولا يُدْنينَ من رجل عجوز

يلقنهن آيا محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه

ولته من المتثغمات

ويتحدث أبو العلاء عن ظواهر اجتماعية بعينها، كالشعوزة، فينصح كل أب أن يحتاط في معاملة بناته، وأن يسعى في تربيتهن سعى المشفق عليهن، ومن أساليب التربية التي يدعو إليها الآباء، ألا يتركوا بناتهن يخرجن لزيارة اترابهن ممن تزوجن وأصبحن عرائس فيخرجن متخذات زينتهن لباساً كريش الطاووس وعطوراً يجعلنها في وجوهن.

وإن طاوعن أمرك فانه غيداً

يزرن عرائساً متممات

أخذن كريش طاووس لباساً

ومسكا بالضحى متلغمات (٦)

ومن أساليب تربية الرجل لبناته ألا يتركهن يذهبن إلى عجائز النساء المشعوزات اللاتي يزعمن أنهن قادرات بسحرهن على جلب الأزواج وتليين قلوب العشاق وعطفها حتى يعودوا إلى معشوقاتهم:

وأبعدهن عن ربات مكر

سواحر يفتدين معزمات

يقلن: نهيج الغياب حتى

يجيئوا بالركاب مزلمات

ونعطف هاجر الخلان كيما

يزول عن السجايا المسئمات

فلا يدخلن دارك باختيار

فقد ألفيتهن مذلمات

كما أن أبا العلاء يذم زواج المصلحة، فلا ينبغي أن تتزوج فتاة مراهقة من شيخ عجوز، لاسيما إذا كان فقيراً، لأن الفقر مع تقدم السن بلاء مبین، وإذا أراد ذلك العجوز أن يتزوج فعليه أن يبحث عن امرأة عانس تقلبت مر الدهر وانتظرت الزواج عاماً بعد عام فهي شمطاء واهنة تتسلى بغزل الصوف مع مرور السنين:

ولا يتأهلن رجل مقل بمعصرة من المتنعمات (٧)

فان الفقر عيب إن أضيفت إليه السن جاء بمعظمت

ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محمات

من اللائي إذا لم يجد عام تفوقن الحوادث معدمات

من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنيسن السنين مجرمات

ثم إن الرجل إذا تزوج فلا ينبغي له أن يعدد زوجاته بل لابد أن يكتفي بواحدة.

وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات

وهو ينهى عن ظلم الزوجة لأن النساء كالزجاج، ولعله اقتبس هذا المعنى من القول المأثور (رفقاً بالقوارير) أو القول الآخر (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج، إذا جئت تقومه كسرته):

وإن أرغمت صاحبة بضر فأجدر أن ترزع بمعرمات (٨)

زجاج إن رفقت به، وإلا رأيت ضروبه متقصمات

ونجده في غير هذه القصيدة يلح في تعليم المرأة، لأن المرأة لا ينبغي أن تطلب من العلم إلا ما يحفظ عليها دينها، ويكفي في ذلك أن تحفظ سورة الإخلاص وسورة الفاتحة، وتستغني بها في صلاتها عن السور الطوال:

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءة.

وقد بلغ من تشدد أبي العلاء على المرأة بعد أن نهاها عن الصلاة في جماعة أن نهى عن حج المرأة، وهو بهذا يخالف قواعد الدين ولا نستطيع أن نلتمس له في ذلك عذراً.

وخلاصة ما سبق:

أن أبا العلاء ساء ظنه بالمرأة إلى درجة من النادر أن بلغها شاعر غيره.

- أنه يرى تعليم المرأة في ظروف مشددة من رجل عجوز.
- ولا ينبغي أن تزيد في تعليمها عما تتطلبه أمور العبادة.
- وألا تخرج المرأة متزينة متبرجة متعطرة.
- وأن يبتعد الرجال بأنفسهم وبأسرهم عن الفتنة.
- وأن الزواج شر، فإن كان ولا بد فواحدة تكفي.
- وعلى الرجال أن يسارعوا بتزويج بناتهم، وألا يسارعوا في تزويج أولادهم.

من عجائب التصحيف

حكاية عيسى !!!

التصحيف هو تغيير بعض أحرف الكلمة فيتغير معناها ، ويكون التصحيف بتغيير ضبط الحروف (حركاتها) أو تغيير ترتيبها بتقديم أو تأخير ، وقد روى صاحب كتاب " تصحيح التصحيف وتحرير التحريف " في كتابه كثيرا من نوادر التصحيف في تراثنا ، فمن التصحيف اللطيف ما روي عن الشاعر المتفنن صفي الدين الحلبي ، الذي كان ولوعا باستعمال التجنيس والتورية وسائر فنون البديع في شعره ، والأبيات التالية تتحد فيها كلمة الروي (عيسى) ولكنها تأتي بمعان مختلفة إذا ما كتبت خالية من التنقيط ، وهذه المعاني المختلفة أساسها تلك الاحتمالات المتعددة التي يمكن أن تنطق بها تلك الكلمة حال خلوها من النقط :

سألتُ الحَبَّ: ما اسمُك، وهو ظبي من العرب الكرام، فقال: عيسى،

(الاسم العلم أي : أن اسمه " عيسى ")

فقلتُ له: انتسب من أيِّ قوم تكون من الأنام؟ فقال: عيسى،

(عَبْسِيّ من بني عَبْس)

فقلتُ: وما صَنيعُك في البوادي لتحصيل الحِطام؟ فقال: عيسى،

(يعني عَشَاباً)

فقلتُ: ومَنْ أنيسك في البوادي إذا جنّ الظلامُ؟ فقال: عيسى،

(عَنْسَى : يعني ناقته)

فقلتُ: وعمّ تسألُ كلَّ غادرٍ يمر على الدوام؟ فقال: عيسى،

(عن شيء)

فقلتُ: وأي عيش في البوادي يلدّ لذي الغرام؟ فقال: عيسى،

(عيشي)

فقلتُ: ولم عصيتُ نصيحَ حبٍّ دعاك إلى المقام؟ فقال: عيسى،

(غشني)

فقلتُ: لقد سلبتَ القلبَ مِنِّي بلحظك والقوام، فقال: عيسى،

(عبثتَ بي)

فقلتُ: عساكَ تسمَحُ لي بوصلٍ أيا بدر الثمام، فقال: عيسى،

(عنيتني: من العناء أي أرهقتني)

فقلتُ: وما الذي يدعوكَ حتى تجافى بالكلام، فقال: عيسى،

(عنيتني أي ظلمتني من الغبن يقصد أنه لم يعتمد مجافاة الكلام)

فقلتُ له: صدقتَ وكلّ شيءٍ تقولُ على النُّظام، فقال: عيسى،

(عنيتَ بي)

فقلتُ: بمن أعيش وأنت سُؤلي وتبخل بالمرام، فقال: عيسى،

(عش لي)

وقال الشاعر عز الدين أبو الحسن الموصلي الحنبلي أبياتا يحاكي بها أبيات

صفي الدين الحلبي السابقة، وحاول أن يزيد عليها فقال:

أتى عيسى وناداني: ترى مَنْ تُحب من الأنام؟ فقلت: عيسى،

(عَنَيْتَنِي)

فقال: نعم رأيتُ إليك قلبي يحنّ من الهيام فقلت: عيسى،

(عَيْنُ بَنِيَّ)

فقال: وما حَلالي قط شيءٌ سوى هذا المقام فقلت: عيسى،

(غَيَّبَتَنِي)

فقال: ونيتي واللهِ وصلُّ به يُمحي الملامُ فقلت: عيسى،

(عَيْنُ نَيْتِي)

فقال: عليك لي عتبٌ إذا ما تطارَحُنا الغرامُ فقلت: عيسى،

(عَتَبَتَنِي)

فقال: بشرطٍ أنْ أشدو بلَحْنٍ على شُربِ المدامِ فقلت: عيسى،

(غَنَ شَيْءٌ)

فقال: أما شدوتُ بطيبٍ نغم يحنّ له الحمامُ؟ فقلت: عيسى،

(غَنَيْتَنِي)

فقال: وقد أتتُ ليلى: سلامٌ، وأسرع في القيام فقلت: عيسى،

(عَنْ بَيْنِي)

فقال: وما حَدَاك على فراقِي بلا رَدِّ السلامِ؟ فقلت: عيسى،

(عَيَّبَتَنِي)

فقال: انظرو قد حنقتُ عليه وتعبس في الكلام فقلت: عيسى،

(عَبَسِي)

فقال: حملتَ عبءَ العشقِ منها وصبرك في انهزامٍ ، قلت: عيسى،
(عبءٌ سيئٌ)

فقال: وما ترى فعل اللواتي رَعَيْنَ لك الزمام؟ فقلت: عيسى،
(غَيَّبَتْنِي)

قال صاحب الكتاب : فقال لي بعض الناس: ألا إنك جعلت عوض فقلت: فقال
وعوض فقال: فقلت. قال: فغيرتها الى الصورة التي قالها، وقلت:

أتى عيسى فقلت له: الى من تميل من الأنام؟ فقال: عيسى،
عَنَيْتَنِي

فقلت: نعم رأيت إليك قلبي يحن من الهيام، فقال عيسى،
عَيْنُ بَنِي

فقلت: وما حَلالي قط شيء سوى هذا المقام فقال: عيسى،
غَيَّبَتْنِي

فقلت: ونِيَّتِي يا بدر وصلَّ به يشفى الأوامُ فقال: عيسى،
عَيْنُ نِيَّتِي

فقلت: عليك لي عتب إذا ما تطارحنا الغرام فقال: عيسى،
عَتَبَتْنِي

فقلت: بشرط أن أشدو بلحن على شرب المدام فقال: عيسى،
غَنَّ شَيْءٌ

فقلت: أما شدوتَ بطيب نغم يحن له الحمام فقال: عيسى،

غنيتني

فقلت: اجلس فقد جاءتك ليلى تحيي بالسلام فقال: عيسى،

عنَّ بيّني

فقلت: وما حداك على فراق وإسراع القيام فقال: عيسى،

عيّبتني

فقلت: أقم، فقامت وهي غضبي تعبس في الكلام، فقال: عيسى،

عيسيّ

فقلت له: حملت العبء منها وصبري في انهزام، فقال: عيسى،

عبء سيئ

فقلت: فما فعل اللواتي رعينَ لك الزمام، فقال: عيسى،

غيبّني

قال صاحب التصحيف : وقد بقيتُ على ذلك زيادة ليس فيها زبدة، ولا

يقدح البديع فيها زنده، فأحببتُ نظمها، وأردتُ رقمها، فقلت، وإن كان في ذلك

قلق، ولم ينشق دجاء عن فلق، فإن المتقدّمين الفاضلين أخذوا ما روقَ وراقَ، وفلذا ما

راع ونزل وما هو في درج الفصاحة براق ولا براق، فليعذر صاحبُ الدوق مَنْ شبَّ

عمره في هذا المقام عن الطوق، وذلك:

غدا عيسى يفرُّ من الغواني فقلتُ له: علامَ؟ فقال: عيسى،

عبتنَ بي

فقلت: اغفر وعُدْ، فالعود أولى، فما في ذاك ذام فقال: عيسى،

عَبْرَ ثُنَيَّ

فقلت: احملْ أذى مَنْ بَتَّ تهوى ولا تخشَ الملام فقال: عيسى،

عَيْبُ بُنَيَّ

فقلت: وما يَسْوءُكَ بَتُّ سَرَّ تنالُ منه المرام فقال: عيسى،

عَيْبُ بَنَيَّ

فقلت: فراستي حكمت بهذا عليك فما ألام فقال: عيسى،

عَيْبُ بُنَيَّ

فقلت: رأيتك مع فتاةٍ حَكَتْ بِذَرِ التمام فقال: عيسى،

غَيْبَتْنِي

فقلت: فما لقدك وهو غُصْنٌ يميلُ من المدام فقال: عيسى،

عَنْ ثُنَيَّ

فقلت: فما ترى من بعد هذا فقل جاء المنام فقال: عيسى،

غَشْنِي

فقلت: وما ركابك إن قطعنا الفلا تحت الظلام فقال: عيسى،

عَيْسَى

فقلت: أريد أن ألقاك خِلْواً تفرّ من الآثام فقال: عيسى،

غَتَيْتَنِي

قال مؤلف كتاب التصحيف المذكور: وقلت أنا في تصحيف يحيى:

ومليح قلت: ما الاسمُ حبيبي؟ قال: يحيى،

(العلم المشهور)

قلت: خاطبني بتصحيحٍ تعشُّ لي قال: يحيى،

(يحيا من الحياة)

قلت: حيَّاك إلهي، قال لي: بل أنت يحيى،

(تُحيّا من التحية)

قلت: في قدِّيك ورْدٌ وهو غَضٌّ قال: يحيى،

(يُجْنى من الجنى)

فتوَّقُ الجفْنَ مني فهو سيفٌ، قلت: يحيى،

(يجْنى بالجيم من الجناية)

قلت: أصبحتَ مَلِكَ الحُسْنِ فرداً، قال: يحيى،

(بختي من البخت)

والى عندي حَراجُ الحُسْنِ في الآفاق يحيى،

يجبى من الجباية

وإذا العُصن تثنَّى فلقدِّي بات يحيى،

يُحتي من الانحناء

وإذا قام بقدرِ فنسيم الريح يحيى،

جثى من جثا على ركبتيه

أنا لو شئتُ لحُسني كان فوقَ البدر يحيى،

تُخَي من التخت الذي يجلس فوقه
فهو في الصورة من فوق وفي معناه يحيى،
تُحَي نقيض فوقَي
فقلت: هل أُحَبِّي وصالاً منك حلواً قال يحيى،
تُحَبِّي من الحباء
قلت: لو بُحْتُ بسري خفَّ ما بي قال يحيى،
بُحْ بي من البُوح
وإذا ما ناحت الورق على الأغصان يحيى،
نُحْ بي من النُّوح
قلت: ما يقطع خصمي عند عدلي؟ قال: يحيى،
بُحُّني من البُحْث
قلت: لكن اشتهى لو قطعوه، قال: يحيى،
بُجَبِّي من الجَبِّ وهو القطع
قلت: مالي من شفيح يعتني بي، قال: يحيى،
بُحَبِّي من الحُبِّ
قلت: ما تنجو سريعاً من وصالي، قال يحيى،
نُجِّنِي من النَّجَاجِ
قلت: نَحَيْت غرامي، قال: من قلبك يحيى،
نُحَنِّي من التنحية

قلت: نحتُ الصخر دأبي وقد أعيا فيك يحيى،

نحتي من النحت

وكذاك الدهرُ ما زال على الأحرار يحيى،

يُخني أي يهلك

قلت: خذني لك عبداً، قال: من يألف يحيى،

بِحَيٍّ من الجنِّ

قلت: جفن قد حنَّ الدمع بخدي، قال: يحيى،

يُحثي من الحُثوة

قلت: قد سال دماً من جفن عيني، قال: يحيى،

ثَجَّ بي من الثَّجِّ

قلت: في جفني قرحٌ من بكائي، قال: يحيى،

نَجَّ بي من نَجَّت القرحة

قلت: دُخري دمع عيني، قال: للشدة يحيى،

يُخبا من الخبيئة

قلت: ما لي قط ذنبٌ، كيف تجفؤ؟ قال: يحيى،

تَجئ من التَّجئي

ثم لأنَّ القلبُ منه إذ رأى في اللفظ يحيى،

نُحِّي جمع نُخبة

قلت: قُمْ وانشطْ ولا تكسلْ وسافر، قال يحيى،

نَحْنِي مِنَ النَخْوَةِ

قلت: ما تركب إن سرنا جميعاً؟ قال: يحيى،

نُجْبِي جَمْعَ نَجِيبٍ

قلت: فاخترُ لي مركوباً غليظاً، قال: يحيى،

بُخْتِي بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ

قلت: ما الزاد الذي تعتدّه لي؟ قال: يحيى،

يَخْنِي يَعْنِي مَسْلُوقاً

قلت: وما الماء الذي تلقاه ورّداً؟ قال: يحيى،

بِجُبِّي يَعْنِي الْجُبَّ

قلت: إن كلّ بعيري بم يُرْجى؟ قال: يحيى،

بَخْتِي مِنَ الْحَثِّ

فهو لولم يقضِ قَصْدِي كُنْتُ أَقْضِي فِيهِ يَحْيَى،

نَحْبِي مِنْ قَضَى نَحْبِهِ

الألغاز الشعرية النحوية

الألغاز النحوية باب من أبواب تراثنا القديم طريف ممتع، غني به أئمة اللغة الكبار من النحاة والبلاغيين، حتى كثر التصنيف فيه وأفردت له مؤلفات خاصة جمع فيها مصنّفوها أفانين شتى من هذا اللون الشائق من ألوان البحث اللغوي وتباروا في النسج على منواله، وحلما فيه من إشكالات لفظية أو معنوية. والمتصفح لهذا التراث يجد بغيته منه تحت عناوين شتى منها "الألغاز" و"الأحاجي" و"المعمّيات" و"الملاحن" ومع ما بين هذه العناوين من فروق دقيقة تناولها الدارسون يبقى أنها تجتمع جميعاً في أنها تمثل تحدياً لعقلية السامع، واستفزازاً لقدراته العقلية. وامتحان مهاراته اللغوية.

وقد حاول بعض السلف أن يحددوا القيمة البلاغية للألغاز فقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر أن اللغز "إنما وضع واستعمل لأنه مما يشدّد القريحة، ويحدّد الخاطر لأنه يشتمل على معانٍ دقيقة يُحتاج في استخراجها إلى توقّد الذهن، والسلوك في معارج خفية من الفكر...". أي أن الوظيفة الحقيقية للألغاز تستهدف تنمية القدرات العقلية والملكة اللغوية، فضلاً عن وظيفتها الترفيهية الممتلئة في الإمتاع.

ولعل هذا المنظور نشأ مع نشأة الألغاز التي قصد منها في بداية ظهورها تحدي عقلية المستمع وحفز تفكيره لمحاولة حل اللغز وبيان ما فيه من غرابة، وكانوا يتسامرون بهذه الألغاز كقول بعضهم عن النار :

وأكلة بغير فم وبطن لها الأشجار والحيوان قوت
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت وإن أسقيتها ماءً تموت

ووجه الغرابة في هذا اللغز، يظهر من المفارقة بين الأكل والشرب، فهذه الأكلة
المسؤول عنها، إذا شربت تموت. وهذا أمر مخالف لطبيعة كل المخلوقات الآكلة...

وهناك نوع آخر من الألغاز يعتمد على البناء اللغوي للكلمة التي هلى حل
اللغز، كما في قول الشاعر:

حروفه محدودة خمسة إذا مضى حرفاً تبقى ثمان!

أي أن الشئ المجهول المسؤول عنه يتألف من خمسة حروف، إذا ساع منها
حرف بقي ثمانية حروف، فوجه الغرابة في اللغز أن المتبقي يجب أن يكون أربعة
أحرف. ولكن المفارقة تأتي من استعمال كلمة (ثمان) فإنك إذا سبقتها بحرف
واحد وهو العين صارت (عثمان) وهو حل اللغز المطلوب.

وهناك نوع آخر من الألغاز يصعب الاهتداء إلى حله بطريق الحدس والحرز
وحسن التقدير، فهذا شاعر يتحدث عن ضرسه الذي يأكل به ويعتمد عليه في
طعامه، فهذا الضرس يخدمه طوال عمره من غير أن يراه، فإذا ضاعه وألقى به فلن
يلتقيا بعد ذلك. يقول هذا الشاعر ملغزاً في ضرسه.

وصاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفعي ويسعى سعى مجتهد
ما إن رأيت له شخصاً، ومذ وقعت، عيني عليه، افترقنا فرقة الأبد

ومثل هذا النوع من الألغاز، لا يدرك حله عن طريق البناء اللغوي، وإنما يُدرك حله عن طريق البحث العقلي عن وجه المفارقة والغرابة.

اللغز والتعقيد اللغوي:

وقد بلغت عناية القدماء بالألغاز أن عدوها صناعة لغوية رأوا فيها مجالا لقدح زناد العقول، وتدريب الأفهام على إدراك تراكيب اللغة المعقدة، وكشف العلاقات بين تلك التراكيب. والمثال التالي من هذا النوع، فالشاعر في هذا البيت يصف حاله وهو في معركة ومعه صديقه خالد وعمرو، فلما تكاثر عليه الأعداء وبلغت السيوف أنيابه، أمر صديقه عمراً أن يلحق بخالد، فهو يقول:

أقول: لـ خالداً يا عمرو، لما عَلتْ نايي السيوفُ المرفهاتُ

واللام المكسورة (ل) ليست حرف جر، بل هي فعل أمر من الفعل (وَلَّى - يَلِي) مبني على حذف حرف العلة، مثله مثل كل أفعال الأمر التي تجيء على حرف واحد مثل "ق" من الوقاية، ومثل "ف" من الوفاء، وما شابههما. و"خالداً" مفعول به أي: الحق يا عمرو خالداً.

والمغزون القدامى يعتمدون على المغالطة الصوتية فينطقون البيت نطقاً سليماً، ولكنهم من باب الإلغاز والتعمية يكتبونه كما ينطقونه فتظهر كتابته هكذا:

أقول لخالداً يا عمرو، لما علتنا بالسيوف المرفهاتُ

والباء المسكورة الملحقة بكلمة "السيوف" ليست حرف جر، بل هي جزء من كلمة "ناي" [أي: مفرد أنيابي] ومعنى البيت "لما اشتدت الحرب حتى علت

سيوف الأعداء نابي قلت لعمرو: تول خالدا والحق به" وقد ظهرت الغرابة في وجود كلمتين إحداهما منصوبة بعد حرف الجر، والأخرى مرفوعة بعد حرف الجر. في حين أن اللام والباء هنا ليسا حرفي جر، وإنما هو التلاعب والتعقيد اللغوي المقصود.

ومن هذا النوع المعتمد على التعقيد اللغوي ما يكون فيه الخداع قائماً على الأداء الصوتي فقط دون الكتابين كما في قول الشاعر:

لقد طاف عبد الله بالبيت وحج من الناس الكرام الأفاضل

فالمفارقة هنا تظهر من مجئ كلمة (عبد الله) منصوبة بالفتحة مع أنها فاعل حكمه الرفع بالضممة ، ومن مجئ كلمة (البيت) منصوبة بالفتحة مع وقوعها بعد حرف الجر (الباء)، وكذلك مجئ كلمة (الناس) مرفوعة مع وقوعها بعد حرف الجر (من)، وحل هذا اللغز أن في المواطن الثلاثة مدأ صوتياً قصيراً وأصل البيت هو:

لقد طاف عبدا الله بي البيت سبعة وحج منى الناس الكرام الأفاضل

أي أن للشاعر صديقين من عباد الله طافا به البيت سبعة أشواط وقت أن كان الناس الكرام الأفاضل يحجون إلى "منى".

فكلمة (عبدا) مثنى أضيف إلى لفظ الجلالة فالتقى ساكنان فصار المد قصيراً فراراً من التقاء الساكنين لو امتد الصوت بالمد الناشئ عن ألف الاثنين. وكذلك كلمة (بي) التقى المد الناشئ عن ياء المتكلم [المبنية في محل جر بالياء] بألف

الوصل أول كلمة (البيت) فامتنع المد الطويل، وهو الحال أيضا في الألف المقصورة التي تنتهي بها كلمة (منى) حين التقت بألف الوصل في أول كلمة (الناس) فصار المد قصيراً. وهذا البيت في حال إلقاءه يثير انتباه من يستمع إليه وقد يستغرق وقتاً طويلاً في تفسير ما يسمع.

مم يتكون اللغز؟ :

يتكون اللغز عادة من عدد من العناصر تتألف فيما بينها بهدف تحقيق المفارقة التي تحير فهم السامع أو القارئ، وتستثير اهتمامه، ومن خلال استعراض الكتب القديمة التي جمعت ألواناً من الألغاز وحلولها، يمكن استنباط المكونات الأساسية للغزوهي:

١- المكوّن البلاغي:

وذلك حين يعتمد اللغز على فن من فنون البلاغة مثل الكناية أو الاستعارة أو الاشتراك اللفظي، أو الجناس، أو التورية، ومن هذا اللون ما رواه العسكري من أن الرشيد سأل أهل مجلسه عن قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحَرِّمًا ودعا فلم أر مثله مَخْذُولًا

فقال: أي إحرام هذا؟ فقال الكسائي: أحرم بالحج، فقال الأصمعي: والله ما أحرم ولا قصد الشاعر هذا، ولو قلت أحرم: أي دخل في الشهر الحرام كما يقال أشهر:

أي دخل في الشهر لكان أشبه [أي أقرب إلى الصواب]. فقال الكسائي: فما

أراد الشاعر بالإحرام؟ قال الأصمعي: كل من لم يفعل شيئاً يستحق به العقوبة فهو مُحَرَّم. كما قال عدي بن زيد:

قتلوا كسرى بلبيل محرمًا فتولى لم يمتنع بكفّـن

فهذا اللغز إذاً يعتمد على مكون بلاغي أساسه الاشتراك اللفظي لأن لفظ (محرم) له ثلاث معانٍ كما رأينا: من لم يذنب ذنباً يعاقب عليه، ومن دخل في أحد الأشهر الحرم، ومن أحرم بالحج.

٢- المكوّن اللغوي:

وإذا كان المكون البلاغي يعتمد على فنون البلاغة، وهي متعددة، من جناس وتورية واستعارة، ولها جمالها الأخاذ، وبريقها الساحر، وبنائها المستفزل للعقول، فإن هناك لونا آخر من الألغاز يعتمد على مكون لغوي قوامه ما في اللغة ذاتها من ثراء يتمثل في ظواهر متعددة كالاستقاق والنحت والإضمار والحذف وغير ذلك. فمن ذلك ما رواه الحريري في مقاماته ونصر اللغز:

- أين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل؟ وجوابه أنها السين التي تدخل على الفعل المضارع المسبوق بأن الناصبة فتعزل (أن) عن عملها لا تنصب الفعل بل تتحول إلى (أنّ) مخففة كما في قوله تعالى: { عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ } [المزمل: ٢٠] أي أنه علم أنه سيكون منكم مرضى، فصارت (أن) هناك مخففة من الثقيلة وعزلتها السين عن عملها الأصلي وهو النصب.

٣- المكوّن الكتابي:

وهذا المكوّن يعتمد على ما يسمى (التصحييف) أي تغيير شكل الكلمة كتابياً، بطرق مختلفة كوصل ما لا يوصل، أو فصل ما لا يفصل، أو إهمال وضع النقاط في موضعها، أو وضعها في غير مواضعها. وقد سبق أن مثلنا لهذا اللون من الألغاز بقول الشاعر:

أقول لخالد يا عمرو لما علتنا بالسيف المرففات

ومن هذا اللون الذي يعتمد على الخداع الكتابي أو التصحييف قول الشاعر:

وغلام رأيتـه صار كلباً ثم بعد ذاك صار غزالا

وجوابه أن المقصود هنا (صاد) من الصيد، وليس (صار) بمعنى تحول.

ومنه لغز في (الفيل) وكلمة (فيل) تتكون من ثلاثة أحرف وإن كان للفيل أربعة أرجل. هذه الكلمة (فيل) إذا صحت صارت (ليف) فتكون من ثلاثة أحرف وثلاثها كلمة (لي) وقد صاغ الشاعر هذا اللغز فقال:

ما اسم شئ تركيبه من ثلاثٍ وهو في أربع تعالى إليه

"قبل" تصحيفه ولكن إذا ما عكسوه يصير "لي" ثلاثاه

٤- المكوّن الصوتي:

وعلى العكس من المكوّن الكتابي، فهناك المكوّن الصوتي الذي يعتمد الإلغاز فيه على الخداع الصوتي عن طريق استخدام المد الطويل والقصير والإخفاء والإدغام

التنوين وغير ذلك من مظاهر الأداء الصوتي.. وقد مثلنا له في البداية بقول الشاعر الذي يعتمد على الخُداع الصوتي عن طريق المد القصير:

لقد طاف عبد الله بالبيت سبعةً وحج من الناس الكرام الأفاضل

ومن هذا اللون الصوتي الذي يعتمد على الإدغام مثل قول الشاعر:

عافت الماء في الشتاء فقلنا برّديه تصادفيه سخينا !!

فكيف تعاف الماء في الشتاء لبرودته ثم يطلب منها أن تبرده لكي تجد ساخناً؟.. والخُداع الصوتي هنا جاء من إدغام كلمتين هما (بل) و(رديه) - بكسر الراء والـدال -: أي (اشربي منه) فصارتا: بل رديه، وعند النطق بهما مدغمتين تصبحان كالكلمة الواحدة: برّديه. والمعنى: لا تخافي الماء ولا تعافيه. بل اقتربي واشربي فستجدينه ساخناً.

تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

وفي رأينا أن من الممكن استخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية لتحقيق

الأهداف التالية:

- ١- تنمية قدرة التلميذ على الربط بين عدد من القواعد النحوية.
- ٢- تنمية ملكة التذكر عن التلميذ.
- ٣- تحقيق الترابط بين القاعدة النحوية وتطبيقها.
- ٤- تنسيط مهارة الاستماع لدى التلميذ أثناء تدقيقه لإدراك ما في الألغاز من

خداع صوتي في إلقائها.

- ٥- تحسين قدرة التلميذ على استعمال المخارج الصحيحة للحروف.
- ٦- تمكين التلميذ من إدراك مواضع الفصل والوصل.
- ٧- تنمية قدرة التلميذ على الإبداع ابتكار أَلغاز مماثلة.
- ٨- توسيع الأفق للتلميذ بتمكينه من الربط بين البلاغة والقواعد النحوية.
- ٩- زيادة المحصول اللغوي للتلميذ من خلال الأَلغاز التي تعتمد على الاشتراك اللفظي وحلولها.
- ١٠- تمكين التلميذ من استخدام الإيجاز في التعبير عملية تطبيقية.

أساليب تعليم النحو بالأَلغاز:

ومن الممكن استخدام عدة مداخل، أو أساليب لاستخدام الأَلغاز في تعليم القواعد النحوية. فمن الأساليب التقليدية يمكن الاعتماد على طريقة البطاقات أو الألعاب اللغوية أو التمثيليات القصيرة، وكلها طرائق مألوفة في تعليم القواعد ويبقى أن يتم بناء محتواها بحيث يتضمن اللغز المطلوب حله مؤدَّى بطريقة مشوقة، ثم يأتي الحل أيضاً بطريقة مشوقة.

كذلك يمكن الاعتماد على المدخل المسرحي من خلال تأليف مسرحيات مدرسية تتحقق لها أعلى درجة ممكنة من الإثارة والتشويق من خلال الحوار واستخدام الوسائط التعليمية على المسرح بحيث يتضمن محتوى المسرحية أَلغازاً

مـثيرة للتفكير.

وأما أساليب تعليم النحو الحديثة فيتسع فيها المجال لتعليم القواعد النحوية من خلال الألغاز، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق بناء برامج تعليمية مخصصة لهذا الغرض. كما يمكن استخدام الحاسوب في هذا الميدان بكفاءة، وتصميم برامج تعليمية حاسوبية تتدرج فيها الألغاز من مستوى إلى مستوى تبعاً لتطور المنهج الدراسي.

وإن كنت أرى أن المرحلة الأنسب لاستخدام هذه الطريقة هي المرحلة الثانوية لما تحقق لتلاميذها من نمو عقلي يناسب هذا اللون من التعليم الابتكاري.

صعوبات تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

غير أن هناك صعوبات تكثف هذه الطريقة لعل من أهمها:

- ١- كون اللغة العربية في معظم مناهجنا تدرس بوصفها فروعاً مستقلة مما يسهم في تجزئية الفكر اللغوي عند التلاميذ.
- ٢- ضعف ثقافة معلمي اللغويات العربية التراثية، فهناك ما يقرب من ثلاثمئة مرجع لغوي قديم وحديث تحتوي ألغازاً متعددة معظمها بعيد تماماً عن مناهج كليات التربية والآداب التي تقوم بإعداد المعلمين.
- ٣- إن اللغز يشير إلى القاعدة إشارة ولا يشرحها، ومن ثم فإن برنامج مقترحاً لتنفيذ هذه الطريقة قد يكون أجدى من الأساليب التقليدية كالتمثيلات

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

أو البطاقات أو الألعاب.

٤- أن الأسلوب التقليدي لتعليم النحو على هيئة أبواب مستقلة قد يجعل من الصعوبة استخدام الألغاز التي تربط بين أكثر من باب من أبواب النحو في آن واحد.

هل عرف أجدادنا أدب الأطفال ؟

أدب الطفل ، أو أدب الأطفال ، هو تلك الأعمال الأدبية المنتجة خصيصاً للأطفال وتشمل الأجناس الأدبية المعروفة فى أدب الكبار من شعرو قصة ومسرحية فهو فى النهاية وجه ثان لأدب الكبار يشترك معه فى الأهداف العامة وهى الإمتاع والتسلية والتهديب والتثقيف . ويختلف عنه فى الحجم واللغة ، فمن المتعارف عليه أن يكون أدب الأطفال أصغر حجماً إذ لا قدرة للطفل على متابعة رواية متشابكة طويلة ، ولغة الطفل محكومة بنموه اللغوى المحدود فلا يصح أن تكون لغة الأدب الأطفال صعبة المعانى أو مجازية التراكيب .

وإذا كان فنا القصة والمسرح قد وفدا إلى الأدب العربى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين مع الاحتكاك الثقافى بأوروبا ، فإن الشعر كان هو الفن الأدبى الأكثر عراقة فى الثقافة العربية . بل إنه كان ديوان العرب وسجل حياتهم ووسيلتهم الإعلامية والتربوية قديماً .

وقد ذهب بعض دارسى تاريخ الأدب العربى إلى أن الشعر العربى القديم تضمن كثيراً من عناصر فننى القصة والمسرحية من حيث الشخصيات والحوار والحبكة الدرامية وكأنهم أرادوا بذلك أن ينفوا أن يكون مولد ذينك الفنين : القصة والمسرحية نتيجة تأثر بالأدب الغربى .

وقياساً على ذلك يمكن القول بأن أدب الطفل ، إذا عددناه فناً أدبياً جديداً له جذور في تراثنا الشعري القديم . غير أن مثل هذا القياس لا يسلم ، لأن لأدب الطفل ، بمعناه الحديث ، خصائص تميزه من غيره ، وتجعله فناً ذا طابع خاص ومن ثم تصبح نسبته إلى الأدب القديم غير شرعية .

غير أن شعرنا العربي القديم إذا لم يكن قد احتوى أدب الأطفال بوصفه فناً أدبياً خاصاً؛ فقد تضمن الكثير من أدب الأطفال بوصفه لوناً شعرياً متميزاً ، أو غرضاً شعرياً عرفته القصيدة العربية ، فقد روت لنا كتب التراث كثيراً من الأبيات أو المقطوعات أو أبعاض القصائد التي تحدث أصحابها فيها عن تربية الأطفال وشؤونهم (كما روت لنا كتب التراث كثيراً من تلك الأراجاز التي كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن ، أو يرقصنهم بها . بل ونسبت كتب التراث ذلك في بعض الأحيان للرجال ، فكأن الرجل العربي القديم لم يكن متجهماً فظاً غليظ القلب كما تصوره لنا بعض الكتابات . بل كان يشارك زوجه في خدمة بيته وحمل أطفاله وترقيصهم وتدليلهم إذا دعت إلى ذلك حاجة .

فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين أن الزبير بن العوام كان يرقص ابناً له وهو ينشد مرتجراً متفاخراً بابنه الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق :

أبيض من آل أبي عتيق

مبارك من ولد الصديق

ألدّه كما ألدُّ ريقى

وروى الراغب الأصفهاني فى (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء)
نموذجاً آخر من بحر الرجز لشاعر يصف وجوه أطفاله بأنها كالأقمار جمالاً ، وهو
يقول إنه لولا هؤلاء الصغار للزم داره ولم يغش تصور الملوك الجبابرة ولكن حاجته
إلى المال لرعاية أطفاله ألجأته إلى مدح الملوك :

والله لولا صبية صغار

وجوهم كأنها أقمار

لما رأني ملك جبار

ببابه ، ما طلع النهار

ويروى لنا صاحب " العقد الفريد " أبياتاً رجزية أخرى مما كان يستخدم
فى ترقيص الأطفال لأعرابى خفيف الظل يشبه حبه لطفله ، بحب بخيل أتاه المال
بعد معاناة وفقر شديدين ، فهو يحب ماله حباً جما ، وكلما عنّ له أن ينفق شيئاً
من ماله ذاك الذى أتاه بعد طول نقر ، بدا له شئ عاقه عن بذل ذلك المال
فهوضنين بطفله تماماً كضن ذلك البخيل بماله فيقول ذلك الأعرابى وهو يرقص
طفله :

أحبه حبّ الشحيح ماله

قد كان ذاق الفقر ، ثم ناله

إذا أراد بذله ، بداله

وشاع فى كتب التراث أيضا ذلك الترقيص الذى تغنت به أعرابية :

يا حبذا ربح الولد

ربح الخزامى فى البلد

أهكذا كل ولد ؟

أم لم يلد مثلى أحد ؟

فهذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن نحتسبها جذوراً حقيقية لأدب الأطفال فى تراثنا العربى، ويمكن أن نضيف إليها ذلك القصص الرمضى الذى رواه لنا الجاحظ فى كتاب الحيوان " وكتاب " المحاسن والأضداد " المنسوب له ، أو رواه لنا أبو العلاء فى ثنايا كتابه الضخم " رسالة الصاهل والشاحج " أو ما رواه الأبشيهى فى كتابه " المستطرف من كل فن مستظرف " ومن هذا المصدر الأخير نختار القصة الآتية :

قال الشعبى : مرض الأسد فعادته السباع ماعدا الثعلب ، فأراد الذئب أن يكيد للثعلب عند ملك الحيوانات فقال للأسد : أيها الملك . لقد مرضت فعادتك السباع جميعاً ماعدا الثعلب ، قال الأسد : فإذا حضر الثعلب فأخبرنى . فلما بلغ ذلك الثعلب جاء ليعود الملك فقال له الأسد : يا أبا الحصين مرضت فعادنى السباع كلهم إلا أنت . قال الثعلب : بلغنى مرض الملك فخرجت أسعى فى طلب الدواء له

فقال الأسد : فأى شئ أصبت ؟ قال الثعلب : قالوا لى : عليك بخرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج فيعالج بها الملك . فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فشققها ، وتسلسل الثعلب خارج عرين الأسد ، وبعد قليل مر عليه الذئب يعرج والدم يسيل من ساقه . فقال له الثعلب : يا صاحب الخف الأحمر ، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان ، فانظر ما يخرج من رأسك !! "

فمثل هذه القصة وغيرها مما روته لنا كتب التراث يصلح أن يكون مادة طيبة لأدب أطفال حقيقى يشتمل على كل الخصائص التى يمتاز بها أدب الأطفال العصرى ، وهذا القصص القديم إلى جانب شعر الترقيص الذى أشرنا إليه ، مما نستطيع أن نعهده - دون تجوز - أصولاً عربية حقيقية لأدب الأطفال . فإذا انتقلنا إلى لون آخر من ألوان الأدب القديم المتصلة بالأطفال ، وجدنا ما يمت إلى الأطفال بصلة ما ، مثل الحديث عن تربيته وتعليمهم ، والحديث عن تنكرهم - فى بعض الحالات - لأبائهم أو أمهاتهم ، والحديث عن رثاء الأطفال الذين ماتوا صغار فلم تقربهم عيون أهلهم .. إلى آخر تلك الفنون التى نرى أنها تنتمى إلى أدب الكبار أكثر من انتمائها إلى أدب الأطفال ، وما نرى فيها إلا لوناً خاصاً من ألوان الفن أو غرضاً جديداً من أغراض الشعر لم يلتفت إليه نقادنا قدر التفاتهم إلى تلك الأغراض الشعرية التقليدية من مرح وفخروهجاء وغزل .

والحطيئة مع ما جبل عليه من شراسة الطبع ، وتبلد المشاعر ، وحدة الجفاء ، يروون عنه أبياتاً تفيض رقة وعذوبة فى مجال حياته الأسرية كقوله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سجنه :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ زغب الحواصل لإماء ، ولاشجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
فقد رووا أن الحطيئة هذا الغليظ القلب أراد سفرًا طويلًا فهيأ دابته وأخذ
متاعه على راحلته وخرجت زوجته وبناته يود عنه فقال مخاطباً مهدداً إياها بطول
الغياب :

عُدَى السنين إذا رحلتُ لرحلتى

ودعى الشهور فإنهن قصار

فأجابته زوجته فى الحال بقولها :

اذكر تحنُّنًا إليك وشوقنا

واذكر بناتك إنهن صغار

فأخذته العاطفة إلى بناته وقال لمرافقيه : حُطُّوا - أى أنزلوا أمتعتى من
على الرواحل - فوالله لارحلت أبداً " .

وهكذا ، يجد المتأمل فى تراثنا الأدبى القديم ثروة وأصولاً طيبة ليس فقط
لأدب الأطفال بمعناه العلمى الضيق ، بل ولأدب الأطفال بوصفه باباً واسعاً من
أبواب الأدب العربى القديم كما نقول : أدب الكتاب ، وأدب الوزراء بمعنى ما قيل

- لهم وفيهم وعندهم وفي مجالسهم من أشعار وقصص ومساجلات ومسامرات وأحاديث . فلا جناح علينا إذا أن نتسع بمفهوم أدب الأطفال في تراثنا ليشمل :
- أ - القصص الرمزي على السنة الحيوانات والطيور فمثل ذلك القصص يصلح للأطفال في كل زمان ومكان .
- ب - مراثي الآباء والأمهات لأبنائهم
- ج - شعر الترقيص .
- د - مراسلات الآباء والأبناء .
- هـ - عتاب البناء العاقين .
- و - قضية وأد البنات وما ورد فيها من شعر تأييداً أو تفنيدياً .
- ز - تعليم الأطفال .
- ح - نوادر المعلمين مع الأطفال (كما في رسالة المعلمين للجاحظ) .

عندما يهجو الشعراء آباءهم !!

من عجائب الدنيا أن يكون بين الوالد وولده من الجفوة وسوء المعاملة ما يكدر صفو الحياة ويحول الحياة الأسرية إلى نكد مستمر، وعذاب متجدد، وقد يكون الوالد هو السبب في ذلك حين يسئ معاملة ابنه فينشأ الابن عاقاً غليظ القلب متمرداً، بل وخبيث اللسان أيضاً فقد قالوا: كان لحنظلة النميري ابن عاق اسمه مرة، فقال له يوماً: إنك لم ريا مرة فقال: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة !!، فقال: إنك خبيث كاسمك، فقال: أخبث مني من سماني به، فقال: كأنك لست من الناس فقال: من أشبه أباه فما ظلم، قال: ما أحوجك إلى أدب، قال:

الذي نشأت على يده أحوج إليه مني، قال: عقت أم ولدتك، قال: إذا ولدت من مثلك،

قال: لقد كنت مشؤوماً على إخوانك، دفنتهم وبقيت، قال: أعجبنى كثرة عمومتي، قال: لا

تزداد إلا خبيثاً، قال: لا يجتني من الشوك العنب.

ومن غرائب تراثنا الشعري ما نجده في كتب التراث عند نفر من الشعراء عرفوا بسلطة اللسان وسوء الخلق، وعقوق الوالدين.

ويأتي على رأس هؤلاء "الخطيئة" الذي هجا نفسه وأمه وأباه، فقد روى الراغب الأصفهاني في محاضراته أن "الخطيئة" قال يهجو نفسه وقد نظر في بئر فساء منظره:

أبنت شفتاي اليوم إلا تكلمنا
أرى لي وجهاً قبح الله خلقه
بشرّ فما أدري لمن أنا قائله
فقبح من وجهه وقبح حامله
وقال يهجو أمه:

لحاك الله شراً من عجوز
تنحي واجلسي مني بعيداً
ولقاك العقوق من البنينا
أراح الله منك العالمينا
أغريلاً إذا استودعت سرّاً
ألم أوضح لك البغضاء مني
ولكن لا إخالك تعلمينا
وموتك قد يسر الصالحينا
وقال يهجو أباه:

لحاك الله ثم لحاك حقاً
فبئس الشيخ أنت على النوادي
أبأ، ولحاك من عم وخال
وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم لا حياك ربي
وأبواب المخازي والضلال

وقال أيضاً يهجو والديه معا في بيت واحد مخاطباً أمه:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني
وأبا بنيك فسأني في المجلس
ومما روى الخالديان في "الأشباه والنظائر" قول أعرابي يهجو أباه وقد رآه
يتصابى وهو في سن متقدمة ويتخلى عن وقاره وعما يليق بسنه من هيبة وترفع
فقال يهجو:

إذا كانت الآباء مثل أب لنا فلا أبقت الدنيا على ظهرها أبا
إذا شاب رأس المرء أقصر وارعوى وإن أبانا حين شاب تشبها
وروى أبو الفرج في "الأغاني" عن "مطيع بن إياس" الشاعر الماجن المعروف
أنه كان عاقا لأبيه شديد البغض له ، وقد رآه يوما مقبلا عليه من بعيد "ومطيع"
جالس مع إخوانه يشربون الخمر فلما اقترب منهم "أبو مطيع" قال "مطيع" يهجو:

هذا إياس مقبلا جاءت به إحدى الهنات
"هوزن" فوه وأنفه "كلمن" في إحدى الصفات
وكان "سعفس" بطنه والثغر "شين" "قريشات"
لما رأيتك أتيا أيقنت أنك شرأت

وتبدو في الأبيات رائحة الخمر وآفة السكر فهو يسخر من منظر أبيه ويشبهه
بمجموعات الأبجدية العربية القديمة (هوز-كلمن-سعفس-قرشت).

وروا عن أعرابي أنه دخل على كسرى مجلس ملكه فهابه ما رأى من بهاء
المقاصير وفخامة الأرائك وصباحة الوجوه ، وتذكر ما يعانيه قومه البدو الأعراب من
شظف العيش وسوء الحال وكآبة المنظر فقال:

لكسرى كان أعقل من تميم ليالي فر من بلد الضباب
فأسكن أهله ببلاد رجب وأشجار وأنهار عذاب

فصار بنو أبيه بها ملوكا وصرنا نحن أشباه الكلاب
فلا رحم الإله هدى تميم فقد أزرى بنا في كل باب
وأما الشاعر "ابن عنين" وقد كان أيضا من المجان المولعين بالهجاء ، وله قصيدة شهيرة سماها "مقراض الأعراض" هجا فيها كثيرا من معاصريه ، أشار إليها "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" وابن خلكان في "وفيات الأعيان" فقد هجا أباه فقال:

وجنبني أن أفعل الخير والد ضئيل إذا ما عُدَّ أهل التناسل
بعيد من الحسنى ، قريب من الخنا وضع مساعي الخير جم المعاييب
إذا رمت أن أسمو صعوذا إلى العلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبي
وروى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عن الشاعر علي بن محمد بن بسام البغدادي ، وكان شاعرا مجيدا إلا أن غالب شعره كان في الهجاء حتى هجا نفسه وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته وكان يكنى أبا جعفر فقال:

بنى أبو جعفر داراً فشيدها ومثلته لخيار الدور بناء
فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبها يؤس وضراء
ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء
وروى المحبي في خلاصة الأثر عن الأديب أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد الأديب اللغوي الشاعر المنشئ المشهور أصل والده من جزيرة قبرس

بالسين المهملة لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة بالبحر الشامي وهو من الفىء الذي أفاءه الله على الأسلام حين فتحها فأشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق ومكث بعد الأمير يزداد في الرفعة حتى صار أحد الأعيان المشار إليهم بالتقدم وولد له أحمد هذا ونشأ وانتظم في سلك الجند ولما وقعت الفتنة بين علي بن جانبولا ذو العساكر الشامية وانتهى الأمر إلى انهزام العسكر الشامي وقتل منهم من قتل وأسـر من أسـر كان الشاهيني من جملة من أسـر في تلك الوقعة ولما أطلق من ربيعة الأسـر اعتاض عن الوشيـج والـحام بالقراطيس والأقلام كما قال :

صبوت إلي حب الفضائل بعدما تقلدت خطايا وصلت بلهزم

وكان الشاهيني على طريقة ابن بسام ويقفو أثره في عبث اللسان وشكوى الدهر وهجاء أبناء عصره وكان ابن بسام هجا أباه فضرب الشاهيني على قلبه ونسج علي منواله حيث قال في أبيه

أقول لركب من معين وهم على	جناح رحيل دائم الخفقان
أما أنه لولا فراق بكورنا	يثبن إلى ردى بجذب عناني
ولولا أبي شاهين قص قواذمي	لكان جناحي وافر الطيران

وقال

لما رأيت العيش من ثمر الصبا	وعلمت أن العفوح حظ الجاني
أدركت مالا سولته شبيبتي	وفعلت مالا ظنه شيطاني

ولما مات والده في سنة أربعين وألف حزن لفقده وانعزل عن الناس مدة .

وقال آخر في أبيه:

لي والد متحامل من غير ما جرم عملته
إن لم يكن أشنى إليّ من المنون فلا عدمته

وقال في أخيه منصور:

أبوك أبي وأنت أخي ولكن أبي قد كان يبذر في السّباح
تجاريني فلا تجري كجريسي وهل تجري البيادق كالرخاخ

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>